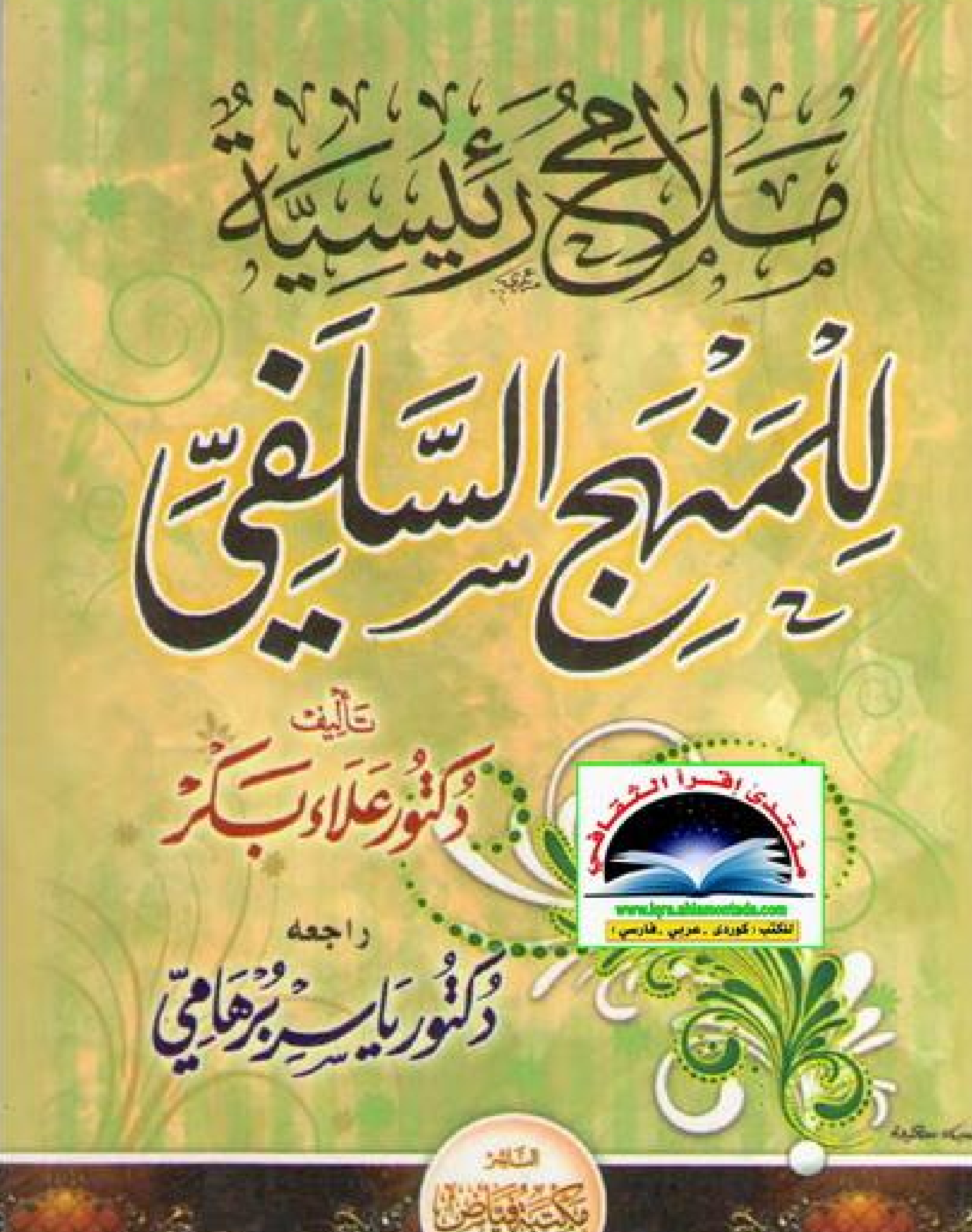
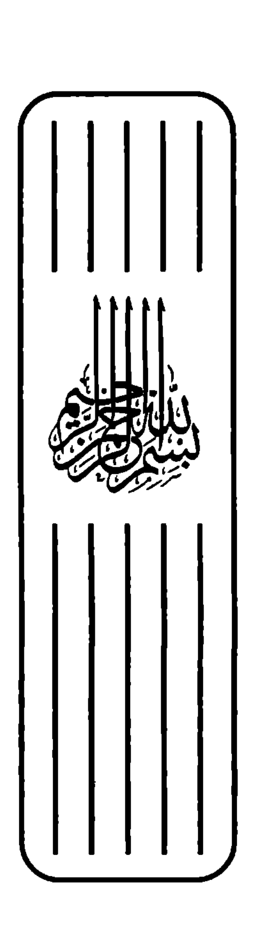
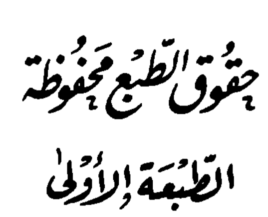

ملامح رئيسية
للمنهج السلفي
تأليف
دكتور علاء بكر
راجعه
دكتور ياسر برهامي
الناشر
مكتبة فياض
المنصورة

ملامح رئيسية

للمنهج السلفي





١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

رقم إيداع: ٨٠٠٥ / ٢٠١١

الناشر

مكتبة فياض

للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة - عزبة عقل - شارع الهادي

هاتف: ٠٥٠٢٢٦٧٣٩٨ - ٠٥٠٢٢٣٧٥٩٤٣



تأليف

دكتور علاء بكر

راجعه لغويًّا

أحمد محمد معوض

الناشر

الدار السلفية للنشر والتوزيع
الأسكندرية

الناشر

مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع
المنصورة



مقـدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي

محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين.

هل نحن أمة لا ماضي لها تعتبر به؟ هل نحن أمة لا منهج لها تسير عليه؟ هل نحن نحتاج إلى الأخذ بمناهج الشرق تارة وبمناهج الغرب تارة، أملا في الخروج مما نحن فيه؟ لقد تعرضت أمتنا عبر تاريخها الطويل لفترات من الضعف والتخاذل، ولاقت مرات من الفشل والهزائم، ولكنها كانت تقوم من كبوتها في كل مرة فور عودتها إلى التمسك بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ . فما بالنا بعد أن تخلصنا من الاستعمار وحررنا إرادتنا بالاستقلال لم نرجع إلى التمسك بديننا، وآثرنا أن نجرب مناهج الغرب والشرق التي لا تهتدي بهدي السماء.

لقد عاشت مصر - على سبيل المثال - قبل الإسلام قرونًا في ظل حكم الرومان، تابعة مقهورة، وما إن فتحها عمرو بن العاص ورفاقه ﷺ حتى تحولت من رق العبودية للرومان إلى عز الحرية والإسلام، وتبدلت من تابعة مقهورة إلي رائدة منصورة، فشارك المصريون بنصيب وافر في الفتوحات الإسلامية في إفريقيا وغيرها، وهزموا التتار العتاة، ودحروا الصليبيين الغزاة، وكان فيهم من العلماء البارزين والرجال

الناجحين الكثير والكثير. وكنا جزءًا من حضارة إسلامية عظيمة بلغ اتساعها الآفاق وأدركت أمجادها عنان السماء، فلما طال بنا الأمد وقست قلوبنا وبعدنا عن الكتاب والسنة والاقتداء بسلف الأمة صرنا إلى ما نحن فيه من الهوان والضياع.

يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

لقد أدرك شباب الصحوة الإسلامية في كل المجتمعات الإسلامية حتى في المجتمعات الأوروبية الغربية أنه لن يصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ... الكتاب و السنة بفهم سلف الأمة، وها هي الدعوة السلفية تلقى - بحمد الله تعالى - المؤيدين والمنتسبين في كل مكان. ولِمَ لا ...وهي دعوة التوحيد الموافقة للفطرة، وهي العلم النافع والعمل الصالح والأخذ

بالإسلام كله؟

ولكن أعداء الإسلام من العلمانيين والمستغربين يأبون إلا أن يعزلوا أنفسهم عن تيار الصحوة وجمهورها بإظهار العداوة باللسان تارة - وما تخفي صدورهم أكبر - وبالطعن في هذه الدعوة تارة أخرى ... وهيهات فالقافلة تسير، وتوفيق الله تعالى لجهود الدعاة كبير.. والأمة بحمد الله تستجيب .. والباطل يندحر... ولله الحمد والمنة.

إن المذهب السلفي هو المذهب الذي يمثل الإسلام نقيًّا كما نزل، ويصوره أصدق تصوير، بالتزام الكتاب والسنة منهجًا وطريقا، وفق فهم قرون الخيرية سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين الذين بهم قامت حضارة الإسلام العظيمة، وكانت لهم - بفضل توفيق الله تعالى لهم - دفعة قوية حافظت على استمرار الأمة في علوها وقيادتها للبشرية قرونا طويلة.

والناس اليوم أحوج ما يكونون إلى التمسك بالمنهج السلفي، والتزام هدي السلف في العقيدة والعبادات والأخلاق والسلوكيات، وبالعلم النافع والعمل الصالح، والتعرف على موقف المنهج السلفي من القضايا التي تقوم عليها حياة الناس المعاصرة.

ومن هنا أقدم هذا الجهد المقل لإخواني من طلبة العلم ومحبيه على أمل أن أكون قد أسهمت بشيء - ولو كان يسيرًا - في توضيح المنهج السلفي وإبراز ملامحه لكل من يريد أن يتعرف عليه.

ولا أنسى أن أقدم شكري وامتناني لكل من عاونني في إظهار هذا العمل وتقديمه. وأخص بالذكر شيخنا الفاضل ياسر برهامي الذي لم يبخل بوقته وعلمه في التوجيه والنصح والإرشاد فجزاه الله عني خيرًا.

اللهم تقبل ... واغفر وارحم ... واعفُ عما تعلم ... والحمد لله رب العالمين.

د. علاء بكر
الإسكندرية

جمادى الأولى ١٤٢١ هـ

يونيو ٢٠٠١م



ملامح رئيسية

للمنهج السلفي

أولا : ملامح نظرية للسلفية

أولا: ملامح نظرية للسلفية

السلفية: لغة، شرعًا، تاريخًا

معنى السلفية لغة:

سَلَفَ: تقدم، السَّالف: المتقدم.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

قال الفراء: يقول: جعلناهم سلفًا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون.

قال الجوهري: سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفًا، مثال: طَلَبَ يَطْلُبُ طَلَبًا أي: مضى.

وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون.

والسلف أيضًا: من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل. واحدهم سالف ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه:

مضوا سلفًا قصد السبيل عليهم
وصرف المنايا بالرجال تقلب

أراد أنهم تقدمونا، وقصد السبيل عليهم، أي نموت كما

ماتوا، فنكون سلفا لمن بعدنا، كما كانوا سلفًا لنا.

وقيل: سلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته؛ ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح[(١)]

ومذاهب السلف: مذاهب المتقدمين من الإسلام، وشرعًا كل من يقلد ويقتفى أثره في الدين[(٢)]

---

(١) راجع في ذلك: لسان العرب لابن منظور جـ٣ ص٢٠٦٨ - ٢٠٧٠ ط . دار المعارف.

(٢) محيط المحيط: بطرس البستاني جـ٣/ ٩٨٣ والسلفية لغة مصدر صناعي في آخره ياء وتاء

وفي السنة النبوية: وردت كلمة (السلف) بمعنى (السلم)، وحقيقته شرعا: بيع موصوف في الذمة ببدل يعطى عاجلًا، والعلماء على مشروعيته إلا ما حكى عن ابن المسيب. عن ابن عباس ﷺ قال: (قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين (أي إلى السنة والسنتين) فقال: «**مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ** (أي: إذا كان مما يكال) **وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ** (أي: إذا كان مما يوزن) **إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ**» (متفق عليه).

وقد ورد لفظ (سلف) بالمعنى الوارد في القرآن الكريم في أحاديث نبوية عديدة. كالحديث عن المسيح الدجال (انظر زاد المعاد وخطبته ﷺ في صلاة الكسوف). وإخباره ﷺ لفاطمة ابنته

لفظ سلف في القرآن الكريم:

ورد لفظ (سلف) بمعنى تقدم أو مضى في القرآن الكريم في مواضع عديدة:

١ - قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٢ - قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[النساء: ٢٢].

٣ - قال تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[النساء: ٢٣].

٤ - قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[المائدة: ٩٥].

٥ - قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال: ٣٨].

٦ - قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

٧ - قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

= رضي الله عنها بقرب أجله وأنها أول من تلحقه وأنه خير سلف لها.

٨- قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

ومن الناحية التاريخية فالمراد بالسلف: الصحابة والتابعون وتابعوهم ممن وافق الكتاب والسنة، فمن خالف برأيه الكتاب والسنة فليس بسلفي وإن عاش بين أظهر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

❐ معنى السلفية اصطلاحًا:

واصطلاحًا: فالمراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأتباعهم وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفًا عن سلف، كالأئمة الأربعة وسفيان الثوري والليث بن سعد وابن المبارك والنخعي والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، دون من رمي بالبدعة أو شهر بلقب غير مرضي مثل: الخوارج والروافض والمرجئة والجبرية والجهمية والمعتزلة[١]. فكل من التزم بعقائد وفقه هؤلاء الأئمة كان منسوبا إليهم وإن باعدت

---

(١) ابن حجر القطري في كتابه «العقائد السلفية بأدلتها العقلية والنقلية».

٤- وكذلك أصحاب الاتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والقارة الهندية ومصر وشمال إفريقيا وسوريا[(١)].

مضمون السلفية:

ومن حيث المضمون: السلفية هي منهج الإسلام في ذروته الشامخة وقمته الحضارية*، وتوجيه إلى النموذج الذي طبقه ونفذه وحققه عمليًّا من القرون الأولى، ومن هذا المنهج وبتطبيق هذه القرون الفاضلة له استمدت حضارة المسلمين مقوماتها وأصولها، ومدارها على التوحيد وفهم دور الإنسان في الحياة كما ورد في آيات الكتاب الكريم وسنة النبي ﷺ وبتنفيذ أحكام الشريعة الإلهية بجوانبها المتعددة في مختلف مجالات الحياة.

فالسلفية منحصرة إذًا في المدرسة التي حافظت على العقيدة

= أخرى.

(١) انظر «السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية» د. مصطفى حلمي ص٣، ٤ ط. دار الدعوة - الإسكندرية نقلًا عن أنور الجندي في «الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب» ص٤٩ مطبعة الرسالة.

* بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها وقمتها وتحققت في عصور قرون الخيرية الثلاثة الأولى وهم من نسميهم (السلف) في اصطلاحنا.

النبي ﷺ وأصحابه لا تخرج عما كانوا عليه*.

والانتساب للسلفية إذا أمر ممدوح، ومن انتسب إلى مذهب السلف وجب قبول ذلك منه وإقراره عليه:

يقول ابن تيمية رحمه الله: «لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه، واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقًّا، فإن كان موافقًا له باطنًا وظاهرًا فهو بمنزلة المؤمن الذي هو على الحق باطنًا وظاهرًا، وإن كان موافقًا له في الظاهر فقط دون الباطن فهو بمنزلة المنافق فتقبل منه علانيته، وتوكل سريرته إلى الله، فإننا لم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس ولا نشق بطونهم». اهـ (١).

فمن أظهر التمسك بالسلف قُبل ذلك منه، فإن خالف

---

* ظهرت ملامح متعددة للاتجاه السلفي في العصر الحديث، وإن بدت في جهود متفرقة لعلماء في أنحاء مختلفة من بلدان العالم الإسلامي. كما كان للسلفيين دور ظاهر في المحافظة على نقاء التوحيد والعقيدة الإسلامية والعبادات، وكذلك الجهاد ضد الاستعمار الغربي الصليبي.

(١) نقض المنطق لابن تيمية ص ١٢٣، وهذه المسألة بدهية إذ أن الإقرار بفضل السلف يوجب مدح من زعم وأظهر اتباعهم والاقتداء بهم.

السلف علمًا وعملًا وجه إلى الصواب من علم وعمل السلف الصالح.

بل إن الرجوع إلى السلف في أمور الدين مما يجب التمسك به، ويدل على حتمية السلفية بهذا الفهم أنه لا يصلح هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

يقول د. مصطفى حلمي: «إذا كان المسلمون يلتمسون اليوم طريقًا للنهوض فليس لهم من سبيل إلا وحدة جماعتهم، ووحدة الجماعة ليس لها سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة وهذه خلاصة الاتجاه السلفي، عودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ». اهـ[1]

❊❊❊

(١) من مقدمة الطبعة الأولى من «قواعد المنهج السلفي» د. مصطفى حلمي.

ظهور مصطلح السلفية من الناحية التاريخية

ظهر مصطلح السلفية عقب تغيرات عديدة طرأت على المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ انتهت بظهور هذا المصطلح.

ويمكن إيجاز هذه التطورات على النحو التالي:

لم يلحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد بلغ الرسالة كاملة وأدى الأمانة تامة، وأكمل الله به الدين، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إلا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إلا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ**».

فبلغ الإسلام كماله قبيل وفاة النبي ﷺ، ولم يعد أهل الإسلام يحتاجون إلى شيء إلا أن يحافظوا على هذا الدين كاملا كما تلقوه وطبقوه في عهده ﷺ.

وقد حذر النبي ﷺ الأمة من الإحداث في الدين، وإدخال ما ليس منه فيه، وأمر بالتمسك بهديه وهدي خلفائه الراشدين والعض عليهما بالنواجذ، ونهى القرآن الكريم نهيًا شديدًا عن الاختلاف والتفرق في الدين.

المحافظة على وحدة الجماعة، لذا لم تظهر أي نظريات عقائدية مخالفة لجماعة المسلمين وما كانت الدعوات الغريبة لتجرؤ على الظهور أمام الملأ بل كانت تختبئ في طيات الفتن [١].

وما وقع من اختلافات أو منازعات بين الصحابة لم تكن منازعات ذات آراء عقائدية خاصة. حتى الأحداث التي وقعت بعد مقتل عثمان ﵁ لم يصحبها اختلاف عقائدي، إذ كان الجميع على عقيدة دينية واحدة.

فتميز المسلمون في عهد الصحابة ﵃ في فترة ما بعد وفاة النبي ﷺ بأنهم ظلوا على عهدهم محافظين، «وبعرى الجماعة موثقين وذلك منذ وفاة الرسول ﷺ وفي ظل خلافة الشيخين فلا نسمع أصواتًا معارضة ذات بال فالإجماع منعقد وتام. ثم انفرط عقد الجمع قليلًا واهتز في السنوات الأخيرة من سني

---

(١) انظر في ذلك (نظام الخلافة في الفكر الإسلامي) د. مصطفى حلمي ص٢٨٧ ، ٢٨٨. ولذلك لم تظهر دعوة عبد الله بن سبأ اليهودي المشهور بابن السوداء والتي أوقعت الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان ثم قتال علي ومعاوية، وكان ابن سبأ أول من دعا إلى تأليه علي بن أبي طالب. وكانت الدعوة سرية مستترة ولم ينتبه لها المسلمون في عهد عثمان ﵁ وعهد علي بن أبي طالب لسريتها. والله أعلم.

عثمان، وإن لم تعد المياه إلى مجاريها بخلافة علي فقد تمت خلافته على أساس البيعة والشورى أي بنفس الطريقة التي أتى بها سابقوه إلى الخلافة فلم يعتمد فيها على وصية أو نص ولم يشر بكلمة إلى هذا. كما كان الخلاف منحصرًا في الخلافة لم يتجاوزها إلى حجج وأسانيد بعيدة عن العقيدة أو بدع مستحدثة لم يعرفها الأوائل»[1].

ومن مظاهر حرص الصحابة ﭫ على وحدة الصف وتقوية الجماعة وتجنب الفرقة و الاختلاف:

١- تضييق الخلاف حول الأحق بالخلافة في سقيفة بني ساعدة، إذ ترك الأنصار طلب الخلافة واجتمع الجميع على إمامة أبي بكر الصديق. ومشاركة الجميع في قتال المرتدين وقتال مانعي الزكاة حتى عاد الحق إلى نصابه.

٢- رفض عثمان ﭬ دفاع الصحابة عنه لما حاصره الثوار في بيته خشية سفك دماء المسلمين ودرأ للفتنة وسعيًا لإخمادها. فقتل ﭬ مظلومًا.

٣- تنازل الحسن بن علي ﭭ عن الخلافة راضيًا مختارًا لمعاوية بن أبي سفيان لما رأى اجتماع أهل الشام عليه ومنعتهم

---

(١) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي: ص ٢٨٩، ٢٩٠.

وتفرق أتباعه واختلافهم عليه، وذلك جمعا للكلمة وحقنا للدماء ودفعًا للتنازع والفرقة. حتى سمي عام التنازل (عام الجماعة). وقد قال ﷺ عن الحسن ؓ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِن الْـمُسْلِمِينَ عَظِيمَتَيْنِ**» فكان كما أخبر ﷺ.

ثانيًا: أهل الحديث:

وهم الآخذون بعلم الصحابة ﵃ والناقلون لما كانوا عليه من أمور الدين، وعرفوا أيضًا بأنهم أهل الأثر (وهذه النسبة إلى الأثر أي الحديث وطلبه واتباعه). وامتد ظهورهم من عصر الصحابة إلى عصر بني أمية وفترة من حكم العباسيين. وخلالها كان الاهتمام بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وتفسيراتهم واجتهاداتهم مع حفظها، حفظ صدر، وحفظ كتابة، والعمل بما جاء فيها، فهم أهل نقل ودراية، واتباع واقتداء، وحرص على الالتزام بالدين كما نقله إليهم صحابة النبي ﷺ وأخذوه عنهم.

لقد سار أهل الحديث من التابعين وتابعيهم بالقافلة الإسلامية الكبرى مهتدين بكتاب الله وسنة النبي ﷺ مقتفين آثار السلف الصالح، لا يلتفتون إلى من تنحى عن القافلة وخرج عن مسارها من أهل البدع والأهواء، ولم يأبهوا أول

الأمر بالعقائد والآراء المنافية للصواب، مطمئنين إلى أغلبيتهم العددية إذ هم جمهور المسلمين. ولكن لما استفحل الخطر بعد ذلك دخلوا الميدان مدافعين عن الحق أمام الباطل(١).

وأول انشقاق عقائدي حقيقي ظهر في الأمة تم على أيدي الخوارج لا بسبب انفصالهم عن كلٍّ من عليٍّ ومعاوية، وإنما لرفعهم لشعار (لا حكم إلا لله) وإنكار حق قريشٍ وحدها في الخلافة وقولهم بالاختيار المطلق دون قيد ولو كان الخليفة عبدًا... إلخ أي أنهم أعلنوا أول حركة تستند على فكر نظري ونسق معين خاص تنحو به عن الغالبية فيميزهم بذلك عن القاعدة التي انشقوا عنها. ولولا فهم علي بن أبي طالب لخطورة مغزى حركة الخوارج لما تحول لقتالهم تاركا وراء ظهره معركته الأصلية ضد معاوية. ففرق الخوارج إذًا تعد (أقدم انشقاق ديني حدث في الجماعة الإسلامية) ووقفوا يناضلون عن آراء ونظريات اعتنقوها عن إيمان بها ودافعوا عنها بالسيف ووصلوا في التطرف إلى آخر مداه، مما جعل المسلمين ينظرون إليهم بنفور ويعتبرونهم أصحاب بدع(٢).

---

(١) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي: ص ٢٩٢ .

(٢) نظام الخلافة: ص ٢٨٨.

وبعد الخوارج كان ظهور الشيعة المناصرين للبيت العلوي.

ولكن انشقاق الخوارج ثم الشيعة لم يؤثر في الغالبية العظمى والقاعدة العريضة للمسلمين وهم أهل السنة والجماعة الذين لم يتميزوا في هذه الفترة باسم خاص؛ لأنه لا حاجة تدعوهم إلى هذا التميز، فهم الغالبية العددية من جانب والتي تجتمع على العقيدة الإسلامية الخالصة النقية من جانب آخر، حيث إنهم ملتزمون بالكتاب والسنة دون غيرهما، ولم تكن التيارات المنشقة من الخطورة والكثرة بحيث تحتاج إلى اتجاه معارض يشغل نطاقًا واسعًا لمواجهتها، فالأغلبية المسلمة المتمسكة بالكتاب والسنة ومنهج الصحابة كانت هي الأصل الذي انشق منه المخالفون، والأصل لا يحتاج إلى سمة خاصة تميزه، ولكن الذي يوضع له الاسم المعين لتمييزه هو الخارج عن هذا الأصل[١] . لذا لما سأل رجل الإمام مالكًا رحمه الله

---

(١) نظام الخلافة: ص ٢٨٨ ، ٢٨٩.

- بدأ التشيع بمناصرة علي بن أبي طالب وأولاده في مواجهة بني أمية، ثم تحول إلى الغلو في أئمة البيت العلوي والطعن في أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة ﷺ .

- الإمام مالك ﷺ : هو أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة في وقته، جمع علم المهاجرين والأنصار في الموطأ أشهر =

تعالى عن تعريف أهل السنة أجابه بقوله: «الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا رافضي ولا قدري»[١]

ثالثًا: أهل السنة والجماعة:

لم يأبه المسلمون الأوائل بما ظهر من نظريات فكرية منافية لما أخذ عن الصحابة ﷺ مطمئنين إلى كثرتهم العددية، ولكن لما استفحل الخطر، وظهر تعلم الفلسفة ودراسة علم الكلام، وخاض أهل البدع في عقائد المسلمين بعقولهم وأهوائهم، وازداد نفوذ المعتزلة خاصة في خلافة المأمون[٢] على رأس المائتين من الهجرة فما بعدها، دخل أهل السنة الميدان، بمنهجهم المتميز عن أهل البدع من المعتزلة وغيرهم، حيث كان منهجهم مبنيًّا على تقديم النقل الثابت على العقل، وذم الرأي المخالف للأدلة وتقديم أوهام العقل وخيالاته الذي هو

=

كتبه. توفي في سنة ١٧٩ هـ.

(١) أبو زهرة «الإمام مالك» ص ١٨٠

(٢) يتحمل الخليفة العباسي المأمون الكثير من مسؤولية ترجمة كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية، ومن ثم انتشارها بين المسلمين فجلبت ما جلبته من الاختلاف والفرقة، وساعدت أهل البدع على تأصيل مذاهبهم المبتدعة ووضع القواعد الكلامية لها، حيث خلطوا بدعهم بمصطلحات الفلسفة اليونانية.

منهج أهل الكلام.

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نقطع بتاريخ محدد[١] . أو واقعة معينة تسببت مباشرة في ظهور مصطلح واسم (أهل السنة والجماعة) إلا أن لقب السني كان يطلق في هذه الفترة في مقابلة لقب المعتزلي.

رابعًا: محنة الإمام أحمد رحمه الله:

ابتلي المسلمون في زمن الإمام أحمد رحمه الله ببدعة أن القرآن مخلوق وهي مقالة ضالة[٢] . ترجع إلى جهم بن صفوان وكان ملحدًا عنيدًا وزنديقًا زائغًا، وقد تلقى هذه المقالة عن الجعد بن درهم، ولكنها لم تشتهر في أيام الجعد كما اشتهرت عن الجهم. فإن الجعد لما أظهر هذه المقالة طارده بنو أمية فهرب منهم وسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم فتقلد هذه المقالة عنه، ولم يكن له أتباع غيره فلما تمكن منه خالد بن عبد الله القسري (الأمير)

---

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ لابن كثير ورد عن ابن عباس قوله: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة. وقال عمرو بن قيس الملائي - توفي سنة ١٤٣هـ: «إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه» انظر الشرح والإبانة لابن بطة ص ١٣٣.

(٢) مذهب أهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

قتله يوم عيد الأضحى بالكوفة. وذلك سنة ١٢٤هـ.

وقتل الجهم* على يد سالم بن أحوز بأصبهان وقيل: بمرو وكان سالم يومئذ نائبها. ثم تقلد هذه المقالة المخذولة عن الجهم بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي المتكلم شيخ المعتزلة، وأحد الذين أضلوا الخليفة المأمون* العباسي وجدد القول بخلق القرآن، وتقلد هذه المقالة الباطلة عن بشر القاضي أحمد ابن أبي دؤاد، وأعلن هذه المقالة الجهمية، وحمل الخليفة المأمون على امتحان الناس بالقول بخلق القرآن. وكان بسببه ما كان على أهل السنة من الحبس والضرب والقتل وغير ذلك(١).

---

* جهم بن صفوان: أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع رأس الجهمية لم يرو شيئًا، ولكنه زرع شرا عظيما. قتل سنة ١٢٨هـ لخروجه على أمراء خراسان.

* الخليفة المأمون: من الخلفاء العباسيين من أبناء هارون الرشيد، وأعلمهم بعلم الكلام والفقه، احتضن علماء المعتزلة وفي عصره ترجمت الكتب اليونانية واختلط علم الكلام عند المعتزلة بمصطلحات الفلسفة اليونانية توفي سنة ٢١٨ هـ تولى الخلافة في عام ١٩٧هـ.

(١) يراجع في ذلك: ابن كثير في البداية والنهاية: جـ ١٠/ ٣٣١، ومعارج القبول جـ ١/ ٢٣٠.

وقد أخذ الكثيرون بالرخصة نتيجة الإكراه على ذلك خشية العقوبة المنتظرة ولكن الإمام أحمد رحمه الله جهر عند امتحانه بمعتقد أهل السنة في ذلك. وتمسك بمنهج أهل السنة في الاستدلال بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة مما كان له أثره في حفظ منهج أهل السنة في مواجهة خصومه من المعتزلة. فالتفت حوله الأمة من جديد لتحافظ على عقيدتها ومنهجها القويم؛ ولذلك سمي رحمه الله (إمام أهل السنة والجماعة).

وقد حُبِسَ أحمد وجُلِدَ أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق. فلما تولى المتوكل الخلافة كشف عن الناس الغمة وأعاد الحق إلى نصابه، وأخرج الإمام أحمد رحمه الله من الحبس.

إن دفاع الإمام أحمد المجيد في المشكلة يمكن أن يعد برهانًا ساطعًا - لا على موقفه السلفي الواضح واتخاذ السنن والآثار قدوة ومنهجًا في العلم. وأسلوبًا في العمل فحسب - وإنما فضلًا عن هذا أيضًا فقد دلل بهذا الموقف على الاتجاه العام لأهل السنة والجماعة في محافظتهم على التراث ودقتهم المنهجية في تلقيه وإظهاره: يقول الإمام: «لست أتكلم إلا ما كان من كتاب أو سنة أو عن الصحابة والتابعين، وأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود»[1]. وتقدم إلى المعركة العقائدية

---

(١) راجع ترجمة الإمام أحمد للحافظ الذهبي: ص٢٣.

وسلاحه عقيدة راسخة كان لها أبعد الأثر في فشل خصومه وإعلاء شأن السنة، فاقترن اسم ابن حنبل* بالبدع كخصم عنيد لها وأصبح علمًا على التمسك بمنهج السلف فقيل عنه[١]: «بموت أحمد بن حنبل تظهر البدع»[٢]

خامسًا: ظهور مصطلح السلفية:

(ظهر الاختلاف بين أهل الحديث الذين تمسكوا بالنقل وبين المعتزلة الذين أقروا الجدل واعتمدوا على العقل واستبعدوا النقل (فتركوا الحديث وتحاملوا على المحدثين وكذبوهم وأولوا المتشابه من آي القرآن الكريم تأويلًا لم يقرهم

---

* **الإمام أحمد بن حنبل**: إمام أهل السنة والجماعة، شيخ الحديث والسنة الصابر على المحنة، أبو عبد الله الشيباني، عرف بالإمامة في الحديث والفقه، مع الورع والتقوى والصلاح والزهد والعبادة، توفي في بغداد سنة ٢٤١ هـ الموافق ٨٥٥ م. يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأحمد بن حنبل وإن كان اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولًا، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله، علمها ودعا إليها وصبر على من امتحنه ليفارقها» نقلاً من السلفية وقضايا العصر ص٢١.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم: جـ ٦ / ص ١٦٨

(٢) نظام الخلافة: ص ٢٤٥

أهل السنة عليه[١]).[٢].

ظل أهل الحديث من بعد الإمام أحمد على المنهج الشرعي المميز لهم، إلى أن ظهر (أبو الحسن الأشعري) الذي استخدم المنهج الكلامي في الدفاع عن عقائد أهل السنة والجماعة في مواجهة المعتزلة.

وتابع الأشعري في ذلك شيوخ آخرون[٣]؛ بدعوى نصرة عقائد أهل السنة بمنهج المعتزلة أي باستعمال علم الكلام واعتبروا علم الكلام من العلوم الشرعية إذا أريد به موافقة الكتاب والسنة. فإن لم يوافق الكتاب والسنة فليس بكلام شرعي ككلام أهل الاعتزال وأمثاله.

يقول طاش كبرى زاده: «وبالجملة يشترط في الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل وأن تكون العقيدة مما وردت في الكتاب والسنة. ولو فات أحد هذين الشرطين لا

(١) المعتزلة لزهدي جار الله: ص ٢٥٣.

(٢) نظام الخلافة: ص ٣٨٣.

(٣) منهم أبو بكر الباقلاني وعبد القاهر البغدادي وأبو المعالي الجويني وأبو حامد الغزالي ومحمد بن تومرت وفخر الدين الرازي والإيجي وغيرهم من الأشاعرة.

يسمى كاملًا أصلًا»[١] فيزعم الأشاعرة أن علم الكلام محمود إن أريد به نصرة عقائد السلف. وأنه بهذا المنهج يكون الرد على المخالفين.

أما إن استعمل علم الكلام في مخالفة الكتاب والسنة على طريقة المعتزلة والمتكلمين وأتباع الفلاسفة فهو مذموم. ويرى الأشاعرة أن أهل السنة كالحلقات الدائرية يتصل بعضها ببعض وتتداخل كل دائرة منها في الأخرى. فالدائرة الأولى تضم الصحابة والتابعين أي السلف والدائرة الثانية تضم أهل السنة والجماعة الذين اتخذوا السلف قدوة وأصلًا لهم، والدائرة الثالثة هي دائرة شيوخ الأشاعرة[٢] ويرى الأشاعرة أن طريقة السلف في الاقتصار على الكتاب و السنة أسلم وأحوط ولكن طريقة الأشاعرة في الرد على المخالفين لأهل السنة بعلم الكلام أعلم وأحكم[٣]، وأن الأشاعرة بذلك امتدادٌ للسلف وأطلقوا على أنفسهم لقب (الخلف)[٤]، وأنهم جمعوا بين

---

(١) مفتاح السعادة: أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده (٩٦٢هـ- ١٥٥٤م) جـ٢ ص٢٠

(٢) راجع في ذلك: نظام الخلافة: ص ٣٨٣، ٣٨٤.

(٣) وسيأتي مزيد بيان ذلك والرد عليه وبيان خطأ قائله.

(٤) يقول د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: «أن اعتبار السلفية ظاهرة =

العقل والنقل معًا.

ولكن نظريات الأشاعرة الكلامية لم تلق قبولًا لدى المتمسكين بمنهج الأوائل أتباع الإمام أحمد وأهل الحديث، والذين أطلق عليهم في فترة من الفترات اسم (الحنابلة) لتمسكهم بعقيدة أهل السنة والجماعة التي عليها الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله.

=

عباسية نشأت نتيجة عجز العامة (الجمهور) عن مواكبة الفكر العقلاني لدى الفلاسفة والمتكلمين الذي شاع في العصر العباسي، ووقوف مداركهم عند النصوص الشرعية الواضحة البسيطة - حيث انبعثت من الجمهور قياداته التي تتخذ من العودة إلى النصوص وفهمها من خلال آثار الصحابة موقفًا مضادًا للتيارات العقلانية - هذا التصور وهو أن السلفية إنما حدثت في ظل دولة بني العباس مضادة للتيارات الفكرية الجديدة غير صحيح؛ لأن السلفية بصفتها منهجًا لفهم الإسلام والتزامه تمثلت في جيل الصحابة بصورتها الأنقى، ولهذا كانت الدعوة إلى السلفية دعوة إلى الرجوع لذلك المنهج؛ ولأن الدعوة إلى السلفية، أي إلى منهج صحابة رسول الله ﷺ نادى بها الرسول ﷺ ونادى بها علماء الصحابة أنفسهم وتابعوهم قبل العصر العباسي».

السلفية وقضايا العصر ص٢٣. وانظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية تحقيق: محمد رشاد سالم جـ٢ / ٤٨٢، ٤٨٦.

رأى الحنابلة أتباع السلف في ذلك الوقت أن منهج الأشاعرة الجديد يعتبر أيضًا انسياقًا منهم في التيار الكلامي البدعي وهم في الأصل أهل حديث لا يحيدون عن منهج السلف، ولا يقبلون في ذلك منهجًا وسطًا.

وبظهور منهج (الخلف) صار لقب (السلفية) يطلق عندئذ في مقابلة لقب (الخلفية)[١].

وأتباع المذهب الأشعري وإن كانوا يعدون من أقرب المذاهب إلى المذهب السلفي لكونهم أيدوا أهل السنة في عدة مسائل إلا أنهم في نظر السلفيين ليسوا بسلفيين خُلَّص؛ لأن المذهب السلفي بمعناه الدقيق يرفض علم الكلام وبلفظه سواء كان على طريقة المعتزلة أو على طريقة الأشاعرة[٢].

من مخالفات المذهب الأشعري لمذهب السلف:

لما خالف الأشاعرة منهج السلف خالفوهم في بعض

---

(١) يراجع:

- مبحث نشأة مصطلح أهل السنة والجماعة في كتاب (نظام الخلافة في الفكر الإسلامي) ص٢٨٤- ٢٩٣.
- مبحث نشأة مصطلح السلفية في كتاب (قواعد المنهج السلفي) ص ٢٣- ٣٩ .كلاهما للدكتور مصطفى حلمي حفظه الله.

(٢) المرجع السابق.

٣- ينصر الأشاعرة مذهب غلاة الجهمية في الإرجاء وهو القول بأن الإيمان هو المعرفة ولا يلزم النطق بالشهادة ولا العمل.

٤- قولهم أن كلام الله نفسي: فالقرآن معناه من الله وألفاظ القرآن مخلوقة وهي عبارة عن كلام الله.

أبو الحسن الأشعري:

ينسب إليه المذهب الأشعري. ولد عام ٢٦٠هـ بالبصرة، ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري، فهو:

أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل ابن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي موسى الأشعري ﷺ.

كان أبوه من أهل السنة والجماعة، كما كان محدثا، وقد أوصى عند وفاته إلى زكريا بن يحيى الساجي، أحد أئمة الفقه والحديث، وعنه روى أبو الحسن الأشعري بعض الأحاديث.

درس الفقه على المذهب الشافعي، ودرس علم الكلام على مذهب المعتزلة على يد أبي علي الجبائي، أحد أئمة المعتزلة

= أثر. والصواب أن لمشيئة العباد أثرًا في أفعالهم بها تقع تلك الأفعال كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

المعروفين.

تبين له فساد مذهب المعتزلة، فقام بالرد عليهم، فكوَّن مذهبًا جديدًا يجمع بين منهج المعتزلة في الاستدلال، ومذهب أهل السنة في الاعتقاد. فخالف أهل الحديث في المنهج فترتب على ذلك مخالفات لأهل السنة في بعض المعتقدات، ولكن يذكر له دوره في الرد على المعتزلة وبيان فساد ما هم عليه.

وقد تبين له في أواخر حياته صحة مذهب السلف منهجًا واعتقادًا، فالتزمه، يشهد لذلك آخر كتبه (الإبانة).

من أشهر مؤلفاته:

١- الإبانة عن أصول الديانة.

٢- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع.

٣- استحسان الخوض في علم الكلام.

٤- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

توفي أبو الحسن الأشعري عام ٣٢٤هـ.

❐ حديث افتراق الأمة بترك ما كان عليه الصحابة ﭫ:

عن معاوية ﭬ عن النبي ﷺ قال: «أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْـمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي

الْـجَنَّةِ وَهِيَ الْـجَمَاعَةُ».

وفي رواية للترمذي عنه ﷺ قال: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً**» قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**».

والحديث ظاهر الدلالة في بيان الفرقة الناجية، والتنبيه على التزام هدى الرسول ﷺ وأصحابه في فهم الدين وتطبيقه. فجماعة الحق على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في الاعتقاد والمنهج والعلم والعمل.

والحديث أخرج رواياته العديد من أئمة الحديث: أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم والدارمي والآجري واللالكائي.

وممن ذكر صلاحيته للاحتجاج به الحاكم ووافقه الذهبي. وقال ابن تيمية: «وهو حديث صحيح مشهور».

وقد صححه الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ٢٠٣، ٢٠٤.

وما جاء في الحديث من وقوع الاختلاف في الأمم السابقة مما أشار إليه القرآن الكريم في مواضع متعددة، وما جاء في الحديث من وقوع هذا الاختلاف في هذه الأمة إما هو من

باب القياس على الأمم السابقة، أو أخذًا بذلك كسنة كونية قدرها الله في عباده، وإما هي بإخبار من الوحي المنزل. والقرآن الكريم أشار إلى ذلك بصور متعددة: تارة بالإخبار عن أن الأمة ستختلف وتفترق، وتارة ببيان أن الاختلاف سنة كونية، وأن الفصل بين العباد يكون يوم القيامة، وتارة بالنهي عن التفرق والاختلاف في الدين والتوعد عليه.

وهذا كله بيِّن واضح.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل: ٩٢، ٩٣].

وقال تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ [فصلت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٦٥].

وقال تعالى في بني إسرائيل: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [الجاثية: ١٧] وهذا في القرآن كثير.

لذا كان النهي للأمة عن التفرق والوعيد عليه. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

والأمة المقصودة في الحديث هي لدى عامة السلف أمة الإجابة، وعليه تكون الفرق المستحقة للهلاك - في الحديث - محصورة بالطوائف المنتسبة للإسلام، وتجمعها خاصية واحدة يحددها مفهوم المخالفة للفرقة الناجية، فإذا كانت الفرقة الناجية إنما استحقت هذه النجاة بصفتها المذكورة في الحديث، وهي التزام هدى الرسول ﷺ، وهدى أصحابه،

فإن سبب هلاك الفرق الأخرى انحرافها عن هدى الرسول ﷺ، وهدى أصحابه.

وإذا كان هذا الهدى يمثل سمتًا واحدًا، وقدرًا محددًا معينًا لمن جاء بعدهم، فإن مجال الانحراف الذي تقع به تلك الفرق خلاف ذلك.

فهو أنماط متعددة قابلة للتوليد في أشكال جديدة، ثم إنه نسبي تتفاوت الفرق فيما بينها من حيث قربها من المعيار الثابت المتمثل في سمت الفرقة الناجية أو بُعدها الذي يزداد شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى حد التنكر حتى للانتساب للإسلام ومن ثم الردة الصريحة وهنا تخرج الفرقة عن زميلاتها من الفرق التي لم تصل إلى هذا الحد والتي ما زالت في دائرة الحديث.

والانحراف في مجال العقيدة وموضوعات الإيمان يأتي في مقدمة أسباب الخروج عن دائرة الفرقة الناجية ولهذا كانت فرق القدرية والروافض والخوارج والمرجئة من أوائل الطوائف دخولًا في فرق الهلاك، وكلما كانت الشعب المتفرقة لهذه الطوائف أكثر انحرافا عن عقيدة السلف، كانت أشد إيغالًا في هاوية الهلاك[١].

---

(١) السلفية وقضايا العصر للدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي ط.
=

أما قوله ﷺ عما عدا الفرقة الناجية التي التزمت ما كان عليه وأصحابه أي عن الثنتين والسبعين فرقة: «كلها في النار». فإن المقصود به - لدى السلفيين- أن هذه الفرق قد انعقدت عليها أسباب دخول النار بانحرافها عن هدى الرسول ﷺ وأصحابه. ومع هذا فينبغي أن نعي جيدًا احتياطات السلفيين في تطبيق هذا الحديث على أتباع تلك الفرق اتساقًا مع قواعدهم العقدية[(١)]:

= مركز إشبيلية للدراسات والإعلام، الرياض .ط. الأولى ص ٦٦- ٧٦.

(١) يقول ابن تيمية في كتابه (الإيمان): «وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة من كان منهم منافقًا فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقًا بل كان مؤمنًا بالله ورسوله في الباطن لم يكن كافرًا في الباطن، وإن أخطأ في التأويل كائنًا ما كان خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار. ومن قال: إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرا ينقل من الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة وإنما يكفر بعضهم بعضًا ببعض المقالات». ا هـ. ص ١٩٠. ط. المكتبة القيمة بالقاهرة.

فهم أولًا: يفسرون قول الرسول ﷺ «كلها في النار» بأن ذلك لا يعني الخلود فيها، فالخلود في النار إنما هو للمشركين الخارجين عن أمة الإجابة إلى أمة الدعوة، أما المسلمون المنحرفون بما لم يصل للشرك والكفر فإنهم لا يخلدون في النار وإن دخلوها. كذلك فإن قوله: «كلها في النار» يعني استحقاقهم للنار لانحرافهم أما الدخول الفعلي من عدمه، ومدة البقاء، فهذه لها أحوال متفاوتة:

- فقد لا يدخل الشخص النار أساسًا، إما لتوبة يختم بها حياته يرجع بها عن آرائه المنحرفة، أو بحسنات من العبادة والدعوة والجهاد ماحية، أو مصائب تكفر عنه ... إلخ

- وقد تنتشله رحمة الله، ويدخل في قوله سبحانه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

- وقد يدخل النار، ثم يخرج منها قبل استيفاء مدة عذابه بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين

- وقد يدخلها حتى يستوفي عذابه ثم يخرج منها إلى الجنة برحمة أرحم الراحمين.

هذه المراتب تتوزع فيها العصاة والمبتدعة من أهل القبلة من أمة محمد ﷺ.

أما الخلود في النار فإنه للكفار والمشركين، وهؤلاء ليسوا من أمة محمد ﷺ (أمة الإجابة) أصلًا[١].

وهم ثانيًا: لا يحكمون على شخص معين وإن انحرف وابتدع ما دام من أهل القبلة بأنه من أهل النار وإن كان قوله أو فعله من أسباب دخول النار، يقول ابن تيمية:

ولا نشهد لمعين أنه من أهل النار؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه؛ لأن لحوق الوعيد المعين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه، وفائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتضٍ لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه. وانتفاء مانعه[٢]. هذا موقف السلف في شأن حديث التفرق[٣].

❊❊❊

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص ٦٧، ٦٨، وانظر شرح العقيدة الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص٢٣٢- ٢٣٥.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٢/ ٤٨٤.

(٣) السلفية وقضايا العصر: ص٦٨، ٦٩.

النار إلا فرقة واحدة وهي ما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديما لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله»[(١)]. اهـ.

ويقول ابن رجب الحنبلي أيضًا: «وفي أمره ﷺ باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عموما دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع السنة بخلاف غيرهم من ولاة الأمور»[(٢)]. اهـ.

قلت: ويشهد لاتباع سنة الخلفاء الراشدين من الصحابة كاتباع سنته ﷺ أنه ﷺ جمع بين سنته وسنتهم في ضمير واحد فقال ﷺ: «**عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**» ولم يقل: (عضُّوا عليهما بالنواجذ).فاعتبرهما شيئًا واحدًا في الأمر بالتمسك بهما. وهذا دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين إنما هي الفهم الصحيح والتطبيق السليم لسنة الرسول ﷺ، فلا بد من التقييد في الفهم والعمل بطريقة السلف ﷺ وأئمتهم هم الخلفاء

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ط. الحلبي ط. الخامسة ص٢٥٨.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٨، ٢٥٩.

الراشدون.

دور ابن تيمية في إنعاش المذهب السلفي:

ولد ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٦١ هـ، وتوفي في دمشق سنة ٧٢٨ هـ.

نشأ ابن تيمية رحمه الله نشأة علمية دينية[(١)]، وتعمق في دراسة منهج الأوائل وعلومهم، واستوعب الكتاب والسنة فهما وتدقيقا، وخاض في علوم الفلاسفة والمتكلمين فحصا وتقييما، فحاز من العلوم الكثير وسلك مسلك الاعتدال، ووجد الهدي في مذهب السلف، والابتداع والضلال في مناهج الفلاسفة والمتكلمين، كما واجه المقلدين والجامدين من فقهاء المذاهب، مبينا بعدهم عن الكتاب والسنة ومنهج الأئمة، رغم ادعاء الاتباع والتمسك بما كانوا عليه.

لقد ظهر ابن تيمية في عصر متأخر كانت الانشقاقات قد حدثت، وجهلت الغالبية الاتجاه السلفي، وسطت تراكمات الفكر الفلسفي والتأويل الكلامي والشطح الصوفي حتى ظن أغلبية المسلمين أنها هي الإسلام.

وأغلب الظن أن ابن تيمية فتح عينيه على الواقع المرير للعالم

---

(١) كان جده مُحدِّثًا مشهورًا وكذلك كان أبوه .

الإسلامي في ذلك الوقت[١]، وأدرك بثاقب نظره أن العلة تكمن في جهل المسلمين بتراثهم، والتجائهم إلى ما هو بعيد عن الروح الإسلامية ككتاب (السياسة المدنية) للفارابي، ورسائل إخوان الصفا، و(قانون الياسق) المغولي، فأدرك أنه قد (فسد الراعي وفسدت الرعية). فشمر عن ساعديه ليعيد إلى الأذهان عظمة الإسلام بعد أن غابت علومه في غياهب الكتب وكاد يطمسها الزمن وتضيع في متاهات النسيان، ولم يعد قائمًا في ذاكرة المسلمين إلا الأفكار الدخيلة التي لا تمت بصلة إلى تراثهم. وكم من أباطيل وأراجيف ومفتريات دست في وقائع التاريخ حتى كادت تصير من الأمور المسلَّمة التي لا تناقش! ومن السهل أن تصبح الأكاذيب حقائق عن طريق طمس المعالم الأصلية للوقائع وإحلال أخرى محلها تتفق مع الأهواء والمشارب والنزعات!![٢].

وجد ابن تيمية نفسه وسط هذا الطوفان الذي يحاول أن

---

(١) شهدت حياة ابن تيمية غزو التتار لبلاد المسلمين. بدأ غزو التتار عام ٦١٦هـ، وسقطت بغداد في أيديهم عام ٦٥٦هـ، واشترك ابن تيمية بنفسه في جهاد التتار بعد أن وصلت جيوشهم إلى حماة وقد عاصر ابن تيمية دولة المماليك .

(٢) نظام الخلافة د. مصطفى حلمي: ص ٤٨٠، ٤٨١ بتصرف.

يغرق في طريقه كل شيء فوقف صامدًا، وكان سلاحه حاسمًا وبتارًا، لقد أحاط بالعلوم الإسلامية كلها، بل اتجه إلى غير الإسلامية أيضًا، فتمكن بواسطة هذه الأسلحة أن يحارب في عدة ميادين في وقت واحد، وإن كثرة خصومه لتعطينا الدليل على تمكن هذا الشيخ وغزارة علومه. ومن العجب أنه لم يكتف بالحجاج العقلي الفلسفي، بل أخذ يفند أحداث التاريخ ليجلوها ويمسح عنها ما علق بها من معالم كادت تطمس الحقائق نفسها[(١)]

وقد أضفى ابن تيمية على مؤلفاته طابعا خاصا يتميز بحرارة الجدل وعنف الخصومة، فقد كان العصر عصر تراجع للمذهب السني أو السلفي بتعبير أدق أمام طغيان علم الكلام والتصوف وفرق الشيعة والفلاسفة، بل إن الفقهاء المتزمتين أيضًا لم يسلموا من قلمه. لقد خشي إمامنا على العقيدة الإسلامية من الانحرافات والبدع، وتعددت الميادين التي خاضها في سبيل إحياء المذهب السلفي، فقد أدرك المنهج السليم في العقائد والعبادات معا، فأغضب الكثيرين منه، وألب عليه خصومات عديدة، وخاض معارك ضارية ضد

---

(١) د. مصطفى حلمي: المرجع السابق، ص ٤٨٠، ٤٨١ بتصرف.

خصوم أقوياء تمكنوا من سجنه[١]، مما يدل على العنف الذي اتسمت به تلك المعارك كما يدل على عجز خصومه، فلا عجب بعد هذا أن تلاحظ طابع الشدة في كتابته التي يدافع بها عن الاتجاه السلفي في مواجهة المنحرفين عنه[٢].

لقد خشي شيخ الإسلام أن يتجاهل المسلمون تراثهم، ويبتعدوا عن الكتاب والسنة، ويندفعوا في اتجاهات شتى ليصبحوا معها أعوانًا لأعداء الإسلام، فلم يجد بدا من التمسك بمنهج السلف - وهو لا يعدو الوقوف عند النصوص- وجد في المنهج الطريق القويم لإصلاح ما أفسده الغلاة من كل الطوائف. لهذا تلاحظ سيطرة النصوص على فكر ابن تيمية سيطرة دائمة. إنه يدور في دائرتها ويصطبغ بها مذهبه وفقهه وآراؤه كلها[٣].

منهج ابن تيمية:

تعد جهود ابن تيمية مع تعددها وتنوعها تعبيرًا عن

---

(١) سُجن رحمه الله بقلعة القاهرة ثم الإسكندرية، وسجن بقلعة دمشق مرتين وتوفي بها عام ٧٢٨هـ.

(٢) راجع نظام الخلافة: ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(٣) السلفية وقضايا العصر ص٤٨.

منهجه[١]، فلم يترك ناحية من نواحي الدين إلا طرقها وعالجها في كتاباته، وأظهر رأي أهل السنة والجماعة فيها مستخدمًا منهجه الذي لا يحيد عنه. مستوعبًا حجج المعارضين التي ظهرت حتى عصره ثم باسطًا وجهة نظر أهل السنة وردودهم عليها.

لقد عاد ابن تيمية إلى النصوص من الكتاب والسنة، ولكنه أظهرها لنا بعد استيعابه لنظريات الفقهاء والمتكلمين في ثوب جديد مجلوة بحصيلة الأفكار الفقهية والكلامية، وتفوق على الفقهاء والمتكلمين في متانة الحجة وقوة البرهان[٢]

لقد وجد ابن تيمية في الأدلة السمعية ضالته؛ لأن النقل يضيق من شقة الخلاف وهو أسلم المناهج، وكل من حاد عنه اكتشف خطأه في النهاية، وهو ميراث النبوة، لذا جعل ابن

---

(١) أهم معالم منهج ابن تيمية رحمه الله المستخلصة من كتبه:

أ- إثبات الاتفاق بين الدليل العقلي والدليل النقلي.

ب- رفض التأويل والمصطلحات الكلامية والفلسفية ومحاولة تقييمها وإخضاعها للمعاني التي جاء بها الكتاب والسنة، والتعبير عن العقائد الإسلامية بالألفاظ الشرعية.

جـ- نقض المنطق وهدمه واستبعاده.

(٢) راجع نظام الخلافة: ص٥٢٩، وقواعد المنهج السلفي: ص٢٢.

تيمية من نصوص الكتاب والسنة حجر الزاوية في منهجه كما صاغ آراءه السياسية في هذه الحدود[(١)].

لقد كان شيخ الإسلام يقيم الأفكار والنظريات بميزان النقل؛ لأنه كان محيطًا تمامًا بالكتاب والسنة حتى قيل: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث». كذلك كان استحضاره لآيات القرآن عندما يريد إقامة الدليل مثار الدهشة والعجب، فلم يضعف قولًا أو ينصر رأيًا على آخر إلا لموافقته لما دل عليه القرآن و الحديث أي أن التزام ابن تيمية بالنصوص هو الذي حدد له الطريق وخط له المنهج[(٢)].

لقد تسلح بالقرآن الكريم والحديث. فالحق هو الذي جاء به الرسول ﷺ وهو الذي اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول.

وهذا المنهج هو فيصل التفرقة بين الحقيقة والبدعة. إنه يطعن فيمن يحكمون بالظن وهوى النفوس ثم يحاولون إيجاد السند من أصل ديني إما بالرأي والقياس فيعدونه من العقليات، أو الهوى والذوق ويسمونه ذوقيات، أو بالتأويل

---

(١) راجع نظام الخلافة: ص٤٨١، ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق: ص٤٨٧.

كما يفعل الخوارج مدَّعين اتباعهم للقرآن، أو كما يفعل الشيعة عندما يتلمسون الأدلة من الأحاديث الموضوعة.

إن الموقف الذي اتخذه ابن تيمية يضارع في دقته وسلامته المنهج العلمي الحديث. إنه لم يتخذ أحكامًا سابقة في الذهن ليبررها بالنصوص، ولكنه بدأ من النصوص ناقدًا لها، فاحصًا إياها بفكر العالم الخبير، مبقيًا السليم مستبعدًا الخاطئ والمنحول[1].

لم يدع ابن تيمية العقل جانبًا، و إنما وضعه في خدمة الشرع، ولم يقدمه على النصوص كما يفعل المعتزلة. فالعقل قائم في خدمة النص. فالنصوص لها المكانة الأولى في منهج ابن تيمية، وفيها الغنى عن كل ما عداها، لسبب جوهري وهو أن الرسول ﷺ قد بين أصول الدين كلها ونهى عن اتباع البدع، والعقل لا يتعدى في مهمته دور النظر والاستدلال من واقع النصوص؛ لأنه في هذه الحالة يصبح طريقًا إلى الإيمان عن اقتناع ووعي، وهو يتبع في منهجه هذا الشيخ الإمام أحمد بن حنبل[2].

---

(١) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٧.

(٢) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٠ - ٤٨٢ بتصرف.

أما المنهج الذي وضع المعتزلة فيه العقل بمكانة الصدارة ونصبوه وسيلة للاستدلال يأتي في المرتبة الأولى فهو عند ابن تيمية منهج خاطئ، يدل على العجز عن إيجاد الدليل النقلي؛ لأنهم لا ينظرون في الإسناد، ومدى صحة النقل وثبوته، ولا معرفة لهم بصناعة الحديث والإسناد، وإذا عثروا على دليل من واقع الأحاديث يوافق رأيهم نقلوه، من غير دراية بالحديث من حيث الإسناد أو المتن[1].

فتقديم النظر العقلي على الدليل الشرعي خطأ، وكل ما خالف صحيح المنقول فقد خالف أيضًا صريح المعقول.

إن في الكتاب والسنة عامة أصول الدين ومسائله في قضايا التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد. وآيات الله السمعية وآياته العقلية كلها متوافقة.

والاختلاف بين المتكلمين هو موضع الطعن عند ابن تيمية؛ لأنه يرى أنه اختلاف مذموم لا يبين أين توجد الحقيقة وما هو سندها ويبتعدون عما جاء به الكتاب والسنة؛ لأنهم لا يعرفونه، بينما الحق واحد لا يخرج عما جاءت به الرسل وهو الموافق لصريح العقل وفطرة الله التي فطر عباده عليها، ويدل

---

(١) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٣ بتصرف.

على عقم علم الكلام وقصوره عند ابن تيمية ما ظهر من ندم متكلمي الأشاعرة في أواخر حياتهم[١] .

لقد بذل ابن تيمية المحاولات تلو الأخرى في كتبه ومناقشاته لإثبات أن السلف كانوا أهل نظر ودراية إلى جانب كونهم أهل نقل ورواية، وأنهم آثروا عدم تضييع جهودهم وأوقاتهم في محاولات عقيمة، إذ رأوا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الكفاية، وأقاموا البناء كاملا في العقيدة والشريعة والعبادات والنظم والأخلاق جميعا. فإذا أرادت الأمة أن تأخذ بزمام أمورها من جديد بين الأمم فعليها باتباع طريقتهم. وهذا معنى قول عبد الله بن مسعود: (من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات[٢] ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بدينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[٣] .

---

(١) راجع نظام الخلافة: ص٤٨٥ بتصرف.

(٢) يريد أصحاب النبي ﷺ الذين سبقوا.

(٣) انظر منهج علماء الحديث والسنة: ص١٧١ .

صور من جهاد ابن تيمية ضد التتار:

لم يقف جهاد ابن تيمية عند الجهاد بالقلم واللسان وإنما تعداه إلى القتال في سبيل الله بالسيف والسنان، وله سجل مشرف في قتال التتار الغازين لديار المسلمين. فقد تصدى للتتار بكل ما يملك من قوة علمية ونفسية بل بدنية، فقد وقف في دمشق مع نائب السلطان الأفرم يحرض المسلمين على الثبات ضد التتار في حين فر من المدينة أكثر العلماء وكبار رجال الدولة، كما أغلظ لسلطان التتار غازان لسوء معاملته للمسلمين مع ما في ذلك من خطر على حياته، ولما رأى اشتداد خطر التتار سافر من سوريا إلى مصر، وحرض السلطان الناصر ورجاله على حرب التتار بعبارات شديدة، ثم اشترك بنفسه في معركة «مرج الصفر»، وانطلق بين الجنود يحرضهم ويؤكد لهم استحقاقهم لنصر الله ما داموا قد أخلصوا في طاعة الله. ثم انطلق يقاتل معهم قتالًا شديدًا ضد التتار[1]

---

(١) راجع في ذلك: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: د. محمد رشاد سالم ص٢٥، ٢٦، البداية والنهاية جـ١٤

فوات الوفيات لابن شاكر ١/ ٧٢، ٧٣. والعقود الدرية ص١١٨ وما بعدها.

دور الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تجديد الدعوة السلفية:

ولد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بلدة العيينة سنة ١١١٥هـ. ونشأ نشأة علمية دينية، ورحل في طلب العلم، وتأثر كثيرا بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]. وتلميذه ابن القيم رحمه الله[2].

ولقد وجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الأوضاع المتردية في نجد وما حولها، وانتشار البدع والخرافات بين الناس، حتى شاع فيهم صرف العبادات لغير الله تعالى والوقوع في الشركيات، والتعلق بالأشجار والأحجار والأولياء وقبور الصالحين والتوسل والتبرك بها لتفريج الكربات وقضاء الحاجات.

وقد كشف الشيخ عن ساعد الجد، وقام لتصحيح عقائد الناس، ومحاربة الشركيات والبدع، وتحمل في ذلك الكثير والكثير، واتخذت دعوته الإصلاحية الطابع الديني السياسي، إذ ألف الكتب والرسائل في الدعوة إلى التوحيد وعقائد

---

(١) لذا فكثيرًا ما يستشهد بأقواله وفتاويه في رسائله.

(٢) ويدل على ذلك اختصاره لكتابه القيم (زاد المعاد).

السلف الصالح، وأيد دعوته أمير الدرعية (محمد بن سعود) حتى انتشرت دعوته وتمكنت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم قتال المعاندين بعد وصول الحجة إليهم[١]. ومن أشهر المسائل التي دعا إليها الشيخ مخالفيه[٢]:

١ - الدعوة إلى توحيد الألوهية وإفراد الله بالعبادة وهذه أهم قضايا دعوة الشيخ.

٢- منع التوسل المبتدع مع الإقرار بالتوسل المشروع.

٣- منع البناء على القبور والعكوف عليها وإقامة الأضرحة والقباب حتى لا تكون ذريعة إلى الشرك.

٤- توحيد الله في أسمائه وصفاته.

٥- محاربة البدع المستحدثة.

---

(١) وقد سلك الشيخ في نشر دعوته أساليب كثيرة منها الوعظ والتدريس والخطابة والرسائل وتأليف الكتب ومناظرة المخالفين ثم لجأ إلى القتال لحماية أنصار الدعوة وإيجاد المناخ المناسب لنشرها.

(٢) يراجع في ذلك أشهر كتبه وهو (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) والذي جمع فيه آيات وأحاديث في بيان مسائل التوحيد وقضاياه.

٦- الدعوة إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد المذموم.

وقد توفي رحمه الله سنة ١٢٠٦هـ بعد أن رأى ثمار دعوته المباركة في الأرض.

وما زالت آثار هذه الدعوة منتشرة في بقاع الأرض خاصة في الجزيرة العربية (المملكة العربية السعودية).

وقد تأثر بهذه الدعوة الكثير من العلماء والمصلحين، فكانت هذه الدعوة هي الشعلة ليقظة إسلامية معاصرة. ووصلت آثارها إلى أنحاء كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها في مصر والشام والعراق والهند وباكستان وإفريقيا وغيرها.

وممن تأثر بها وأشاد بصاحبها:

- الشيخ جمال الدين القاسمي بالشام.
- والشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني (١٠٩٩هـ - ١١٨٢هـ).
- والشيخ محمد بن علي الشوكاني (١١٧٢هـ - ١٢٥٠هـ)، وهما من علماء اليمن المشهورين.
- الأستاذ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ هـ - ١٣٥٤ هـ) (١٨٦٥ م - ١٩٣٥ م).

- والأستاذ محمد حامد الفقي من مصر. وغيرهم كثير[١].

ومما ساعد على استمرارية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وعظم انتشارها:

١ - القوة السياسية للدعوة: المتمثلة في نصرة (آل سعود) لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٢- دور علماء الدعوة في نشر الدعوة بالمؤلفات والرسائل وبث الدعاة لها في كثير من المناطق الإسلامية.

٣- موسم الحج: حيث يتعرف خلاله الحجاج على حقيقة الدعوة السلفية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ومن ثم اعتناقها وتبني الدعوة إليها[٢].

❁❁❁

(١، ٢) يراجع في ذلك:

«الصفات الإلهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيه» للدكتور محمد أمان بن علي الجامي ط. دار الإيمان . الإسكندرية. ص١٢١ - ١٣٨.

«دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تاريخها مبادئها أثرها» تأليف محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان ط. المطبعة السابقة.

من قواعد المنهج السلفي في الاستدلال

ظهر اصطلاح (السلف) و(السلفية) واشتهر بعد أن ظهر النزاع ودار حول مسائل أصول الدين بين الفرق الكلامية، وادعاء كل فرقة أنها على الحق المبين، أو أنها لا تخرج عما كان عليه الأوائل، فكان لابد من أن توضع أسس وقواعد واضحة المعالم للمنهج الذي كان عليه السلف، حتى لا يلتبس الأمر على كل من يريد الاقتداء بهم والسير على منوالهم، وهذا المنهج عرف بالاستقراء والتتبع لطريقة السلف في الاستدلال والتعرض لمسائل الأصول. وقد وجد أن المنهج السلفي يقوم على قواعد أساسية[١]. وهي:

١- الاستدلال بالكتاب والسنة.

٢- تقديم النقل على العقل.

٣- رفض التأويل الكلامي.

٤- التمسك بفهم الصحابة.

❀❀❀

(١) راجع في ذلك «قواعد المنهج السلفي» للدكتور مصطفى حلمي.

١- الاستدلال بالكتاب والسنة

تمسك السلف عند الاحتجاج في مسائل الدين بالاقتصار في الاستدلال على الكتاب والسنة، إذ فيهما كفاية لكل متطلع لمعرفة أمور دينه، كما أن الشرع أوجب علينا الأخذ بالكتاب والسنة، ونهانا عن اتباع غير الكتاب والسنة[١]. وقد ساعدت العناية الكبيرة التي أولاها السلف للقرآن الكريم تلاوة وحفظا وفهما وتفسيرًا أن ينالوا منه الحقائق البينة ويستنبطوا منه القواعد المحكمة، وأن يردوا على التساؤلات العديدة المطروحة بين الناس عن حقائق عالم الغيب وأدركوا بذلك أن القرآن الكريم كاف في الرد على أعداء الدين دون الحاجة إلى مناهج المتكلمين وطرقهم.

كما اعتنى السلف الصالح بالسنة النبوية دراية ورواية، فكانوا أهل الحديث ورواته، والعلماء بصحيحه وسقيمه، ودقائق مسائله.

ولم يفرق السلف في الاستدلال بين الكتاب والسنة.

فالسنة تبين الكتاب وتفسره، بل السنة خير تفسير يفسر به

---

(١) والآيات في ذلك كثيرة، ذكرنا طرفًا منها.

القرآن بعد القرآن، وقد يتوقف فهم مجمل القرآن على تفصيل السنة، وقد تأتي السنة بأحكام غير مذكورة في القرآن. فيوجب ذلك الأخذ بالكتاب والسنة جميعا دون تفريق بينهما، فكلاهما وحي من عند الله من حيث المعنى. وفي الحديث: **«أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ القُرآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»**.

والسنة أصل في الاستنباط قائم بذاته ثبت وجوب الأخذ بها في «النصوص الكثيرة جدًّا الواردة في القرآن التي تدل بصورة قاطعة على لزوم اتباع السنة والالتزام بها واعتبارها مصدرا للتشريع واستفادة الأحكام منها. وقد جاءت هذه النصوص دالة على ما ذكرنا بأساليب متنوعة وصيغ مختلفة: فهي تأمر بطاعة الرسول وتجعل طاعته طاعة لله، وتأمر برد المتنازع فيه إلى الله وإلى الرسول أي إلى كتابه وسنة نبيه، وتأمر بأخذ ما يأتينا به الرسول والابتعاد عما ينهانا عنه، وتصرح أن لا إيمان لمن لا يحكم رسول الله فيما يختلف فيه مع غيره. وتقول: ألا اختيار لمسلم فيما قضى به رسول الله وتحذر المخالفين لأمره من سوء العاقبة والعذاب الأليم»[1] [2].

---

(١) الوجيز في أصول الفقه: د. عبد الكريم زيدان ص ١٦٢، ١٦٣.

(٢) ولا يخفى أن الإجماع كحجة ليس بدليل ولكنه دليل على وجود دليل من الكتاب أو السنة أو القياس الجلي، علمه من علمه، =

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور: ٥٤].

واتباع السنة واجب في الأصول والفروع، في العقيدة والعمل، في الظاهر والباطن لعموم الأدلة وإجماع الأمة. قال

= وجهله من جهله، والقياس كحجة إلحاق فرع لم يرد في الكتاب والسنة بأصل من الكتاب والسنة في الحكم لاشتراكهما في العلة، فمرد الإجماع والقياس إلى الكتاب والسنة كذلك. أما القواعد الفقهية التي سار عليها العلماء على اختلاف بينهم فيها فهي قواعد أخذت من أدلتها من الكتاب والسنة وعممت على الأحكام التي تندرج تحت عمومها فمردها جميعًا إلى الكتاب والسنة أيضًا. فبالجملة اعتمد السلف على الكتاب والسنة في أخذ أحكام الدين جميعها في الأصول والفروع في الاعتقاد والفقه ولم يخرجوا عنهما بحال من الأحوال.

الشافعي: «أجمع العلماء على أن من استبانت له السنة لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»(١).

والسنة وحي من عند الله. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٣٣]. ولذا لا يجوز الاستغناء عنها بزعم الاكتفاء بالقرآن. بل من علم القرآن وجد فيه السنة ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]. وهي تبين القرآن ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]. ويستحيل تعارض القرآن مع السنة الصحيحة، كما لا تتعارض السنة مع السنة بغير إمكان الجمع بتخصيص أو تقييد أو نسخ أو غير ذلك. والكتاب والسنة بمنزلة واحدة من جهة التشريع، وإن كان القرآن يقدم تشريعا وتعظيما وفضلا فهو كلام الله(٢).

(١) «منة الرحمن في نصيحة الإخوان» للشيخ ياسر برهامي ط. مكتبة الإيمان. الإسكندرية: ص٥٤ بتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق: ص٥٥، ٥٦.

ويدل على كون السنة وحيًا قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ويجب تقديم الحديث على الرأي والقياس والعرف والمصلحة المرسلة وأقوال العلماء وأئمة المذاهب وعمل بعض الأئمة. وأهل السنة لا يختلفون في ذلك كأصل، وإنما يقع خلافهم في تطبيقه كثبوت الحديث صحة وضعفا، وعمومه أو خصوصه وإطلاقه أو تقييده، لكن لا يقدم عند أحد منهم قول أحد على قول النبي ﷺ، وكلهم قال: «إن صح الحديث فهو مذهبي». أو نحوها[١].

ومصادر أدلة الأحكام: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهذه متفق عليها عند أهل السنة وما سوى ذلك فمحل اجتهاد بينهم مثل قول الصحابي والمصالح المرسلة والاستصحاب وغيرها[٢].

وبالجملة قد (اجتمع المسلمون من عهد النبي ﷺ وحتى يومنا هذا على وجوب الأخذ بالأحكام التي جاءت بها السنة النبوية وضرورة الرجوع إليها لمعرفة الأحكام الشرعية، والعمل بمقتضاها، فما كان الصحابة ولا من جاء بعدهم يفرقون بين حكم ورد في القرآن وبين حكم وردت به السنة،

---

(١) منة الرحمن في نصيحة الإخوان: ص٥٥.

(٢) المرجع السابق: ص٥٦.

فالجميع عندهم واجب الاتباع؛ لأن المصدر واحد، وهو وحي الله، والوقائع الدالة على إجماعهم كثيرة لا تحصى)[١].

وقد جاءت الأدلة الكثيرة فيها الأمر بالتزام الكتاب و السنة والعمل بما فيهما، متضمنة الإعراض عما سواهما، وترك ما يخالفهما:

قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣] . والمراد ما أنزل إليكم هو القرآن والسنة المبينة له لا آراء الرجال.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

وعموم الآية يفيد أن من دعي إلى العمل بالقرآن والسنة وصد عن ذلك فهو من المنافقين، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سبب الآية.

وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد

---

(١) الوجيز في أصول الفقه: د. عبد الكريم زيدان: ص١٦٣.

وفاته ﷺ هو الرد إلى سنته. وتعليق الإيمان على رد التنازع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يفهم منه أن الرد إلى غيرهما ينافي الإيمان بالله.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة:٩٢].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦١].

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

[آل عمران: ١٦٤].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠].

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٥، ١٦].

قال تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

□ آثار في النهي عن الخروج عن الكتاب والسنة:

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ. فَقَالَ: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟! تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ. بِهَذَا هَلَكَتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ**». وفي رواية:

«إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الكِتَابِ»[(١)].

وقال ﷺ: « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ »[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ ». وفي رواية: «فَلا تُجَالِسُوهُمْ»[(٣)].

وفي الحديث المرفوع: « الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ »[(٤)].

وفي الحديث المرفوع: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله». أخرجه سعيد بن منصور في سننه.

---

(١) أخرجه مسلم ح٢٦٦٦، والطبراني والبزار. انظر المجمع ١/ ١٥٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١/ ٢٣٨، والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، انظر المجمع ١/ ١٨٧.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه أبو داود ح٤٦٠٣، وأحمد ٢/ ٢٥٨، وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٣٢.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتاب الله».

وعن الأوزاعي ﷺ قال: «عليكم بالأثر وإياكم والكلام في ذات الله». وكان ﷺ يبغض أهل الأهواء وينهى عن مجالستهم أشد النهي.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «إن أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم».

□ اقتصار السلف في الاستدلال على الكتاب والسنة:

ومن الأمثلة الدالة على اقتصار السلف في الاستدلال على الكتاب والسنة وترك ما سواهما:

١- مناقشات الصحابة في سقيفة بني ساعدة لاختيار من يخلف النبي ﷺ في إمامة الأمة. وقد سلم الجميع لحديث النبي ﷺ: «**الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ**». ومن ثم اختاروا للإمامة أبا بكر الصديق ﷺ.

٢- مراجعة بعض الصحابة ﷺ لأبي بكر الصديق في قتال مانعي الزكاة ثم موافقتهم له لما بين أن الشرع لا يفرق بين تاركي الصلاة ومانعي الزكاة.

٣- مراجعة ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج الذين كفروا عليًّا وأصحابه فرد عليهم شبههم بالكتاب والسنة فتاب منهم من تاب ورجعوا إلى الحق.

٤- محاورة الإمام أحمد لقاضي المحنة ابن أبي دؤاد والتي اقتصر فيها في رده على الكتاب والسنة متمسكًا بطريقة السلف في ذلك[1].

٥- محاورة عبد العزيز المكي مع بشر المريسي والتي سجلها في كتابه (الحيدة) في قضايا خلق القرآن والأسماء والصفات الإلهية[2].

---

(١) انظر منهج علماء الحديث والسنة: ص١٠٩ - ١٢٢.

(٢) المرجع السابق: ص١٢٣-١٤٠ مع وجود بعض المآخذ على هذا الكتاب حيث أنكر فيه أن يقال سمع الله وبصر الله لعدم ورود النص بذلك وهذا خطأ من جهتين:

الأولى: أنه قد ورد به النص كقول عائشة رضي الله عنها: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات» (متفق عليه). وقول النبي ﷺ: «فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر» (رواه مسلم وغيره). وفسره غير واحد على أنه بصر الرحمن عز وجل.

الجهة الثانية: أن ورود الأسماء كاف في إثبات الصفات؛ لأن الاسم يتضمن الصفة فاسم الحي يدل على صفة الحياة واسم =

٦- رسالة الإمام أحمد في (الرد على الجهمية والمعطلة).

٧- الإمام البخاري في جزء (خلق أفعال العباد).

٨- الدارمي في رده على بشر المريسي.

❑ مناظرة بالكتاب والسنة من آثار السلف الصالح:

دخل غيلان على عمر بن عبد العزيز - وكان قد تكلم في القدر- فقال له عمر: ويحك يا غيلان ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: يا أمير المؤمنين أتكلم فتسمع قال: تكلم. فقرأ غيلان أول سورة الإنسان وفيها:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] يؤيد بها قوله في نفي القدر. فقال عمر: ويحك من هاهنا تأخذ الأمر وتدع بدء خلق آدم عليه السلام؟ ثم تلا عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

ومراد عمر تذكيره بالأصل والمبدأ، وأن الله خلق الإنسان،

=

القدير يتضمن صفة القدرة وهذا هو الحق في هذه المسألة عند عامة أهل السنة والحديث. (وكتبه ياسر برهامي).

وخلق أعماله، ولا ينفي ذلك مسؤوليته عما يفعله.

فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالا فهديتني وأعمى فأبصرتني وجاهلا فعلمتني، والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبدًا.

ولكنْ غيلان نقض العهد بعد وفاة عمر بن عبد العزيز في زمان هشام. فجاء به هشام وذكره بقول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وسأله هشام: علام استعنته على أمر بيده لا تستطيعه إلا به، أو على أمر في يدك؟ ثم أمر به ليضربوا عنقه[1]

❊❊❊

(١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين د. مصطفى حلمي ط. دار الدعوة الإسكندرية ص٤٥، ٤٦ نقلًا عن «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» للملطي ص١٦٨ وكتاب السنة لأحمد بن حنبل. ط. السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٩هـ جـ٢ / ص١٢٧

٢ – تقديم النقل على العقل

سار السلف على تقديم الأدلة الشرعية (السمعية-النقلية) في إثبات عقائد الدين وحقائقه الدينية، ورفضوا رفضًا قاطعًا اتباع منهج علماء الكلام في الاستدلال بالأدلة العقلية المأخوذة من علم الكلام والفلسفة.

فكان نهج السلف أن يبدؤوا بالشرع أولًا ثم يخضعون له العقل، ومن ثم يقدمون الرواية على النظر العقلي وفق طرق المتكلمين.

وهم يرون أن العقل يوافق الشرع ولا يخالفه، وقد يأتي الشرع بمحارات العقول، وهو لا يأتي أبدًا بمحالات العقول فلا تعارض بين نقل صحيح ونظر عقلي سليم. والنقل الصحيح حجة، والنظر العقلي تابع للدليل السمعي ولا يتعارض معه أبدًا.

أما المتكلمون فإنهم يقدمون أدلتهم العقلية على الأدلة السمعية. فيبدؤون في البحث عما تقبله عقولهم وترضاه من آراء المتكلمين، ثم يخضعون لها نصوص الشرع. وهم يرون أن الأدلة العقلية قطعية، وأن الأدلة النقلية أدلة ظنية، لذا يعمدون

إلى تأويل ما خالف آراءهم العقلية من الشرع ليوافق ما هم عليه.

وقد ورد العديد من أقوال السلف التي تبين رفضهم لعلم الكلام ونبذه، مما يبين بطلان تقديمه على الشرع في الاستدلال، وسنذكر طائفة منها قريبًا.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

«ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط: قد تعارض في هذا العقل والنقل، فضلًا عن أن يقول: فيجب تقديم العقل، والنقل: يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يفوض وإما أن يؤول. ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه»[1].

---

(١) من الفتاوى الكبرى لابن تيمية جـ١٣/ ص٢٨، ٢٩ نقلًا عن معالم الانطلاقة الكبرى لمحمد بن عبد الهادي المصري ط. دار طيبة ص٦٧.

يقول شارح الطحاوية:

«وكيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، إنما يتلقاه من قول فلان، وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله، لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان المنقول إلينا عن الثقات النقلة» ا.هـ.

يقول الشاطبي في الاعتصام[(١)]:

«إن الشريعة بينت أن حكم الله على العباد لا يكون إلا بما شرع في دينه على ألسنة أنبيائه ورسله ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وأشبه ذلك من الآيات والأحاديث، فخرجت عن هذا الأصل فرقة زعمت أن العقل له مجال في التشريع وأنه محسن ومقبح، فابتدعوا في دين الله ما ليس فيه»[(٢)].

---

(١) جـ١/ ٤٥

(٢) نقلًا عن (منهج الماتريدية في العقيدة) من سلسلة رسائل ودراسات =

وقال ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية ص١٩٠، ١٩١:

«وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه بل قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليمًا»[1].

=

في منهج أهل السنة برقم ٣٧ للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس .ط. دار الوطن للنشر، الرياض ط. الأولى، ص ١٨.

(١) نقلًا عن منهج الماتريدية في العقيدة: ص١٨، ١٩.

وقال أبو المظفر السمعاني في صون المنطق ص١٨٢ :

«اعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول وجعلوا الاتباع والمأثور تبعًا للمعقول، وأما أهل السنة: قالوا: الأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء صلوات الله عليهم ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بني على المعقول وجب ألا يجوز للمؤمنين أن يقبلوا أشياء حتى يعقلوا»[1] .

ويقول ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى جـ٣:

«إن كثيرًا مما دل عليه السمع يعلم بالعقل أيضًا، والقرآن يبين ما يستدل به العقل ويرشد إليه وينبه عليه كما ذكر الله ذلك في غير موضع. فإنه سبحانه وتعالى بين من الآيات الدالة عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وغير ذلك مما أرشد العباد إليه ودلهم عليه، كما بين أيضًا ما دل على نبوة أنبيائه، وما دل على المعاد، فهذه المطالب هي شرعية من جهتين: من جهة أن

---

(١) نقلًا عن منهج الماتريدية في العقيدة: ص١٧ ، ١٨ .

الشارع أخبر بها، ومن جهة أنه بين الأدلة العقلية التي يستدل بها عليها، والأمثال المضروبة في القرآن هي أقيسة عقلية، وقد بسط في غير موضع، وهي أيضًا عقلية من جهة أن تعلم بالعقل أيضًا»[١].

❁❁❁

(١) نقلًا عن منهج الماتريدية في العقيدة: ص٢٠.

من أقوال العلماء في ذم علم الكلام والاشتغال به *

قال الشافعي رحمه الله: «لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في علم الكلام».

وقال: «حكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام».

---

* يراجع في ذلك:

أضواء البيان للشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد:٢٤].

مقدمة العقيدة الطحاوية ط. الشيخ أحمد شاكر.

الروض الباسم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم لابن الوزير اليماني جـ٢/ ص١٦٨ . المطبعة السلفية، القاهرة سنة ١٣٨٥هـ. ولمزيد من التفصيل راجع: «منهاج السنة النبوية» ، و«بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» ، و«كتاب النبوات» ، و«الفتوى الحموية» كلها لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . وكذلك «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» ، و«اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» كلاهما لابن القيم.

وقال أيضًا:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة
إلا الحديث وعلم الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا
وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «لا يفلح صاحب كلام أبدًا وعلماء الكلام زنادقة».

وعن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة - رحمهما الله - أنه قال لبشر المريسي: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأسًا في الكلام قيل زنديق أو رمي بالزندقة». وقوله: «الجهل بالكلام هو العلم» أراد اعتقاد عدم صحته فإن ذلك علم نافع، أو أراد به الإعراض عنه، أو ترك الالتفات إلى اعتباره، فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله، فيكون علمًا بهذا الاعتبار. والله أعلم.

وعن أبي حنيفة النعمان رحمه الله قال عندما سئل عن الكلام ومقالات الفلاسفة: «عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك ما أحدث وكل محدثة فإنها بدعة».

وعن أحمد بن حنبل عن أبي عمر حفص بن عمر الضرير -رحمهما الله - أنه قال: «الكلام كله جهل وإنك كلما كنت بالجهل أعلم كنت بالعلم أجهل».

وعن مالك ﷺ قال: «إياكم والبدع قيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون كما سكت عنه* الصحابة والتابعون لهم بإحسان».

وعنه قال: «من طلب الدين بالكلام تزندق». ويروى هذا أيضًا عن أبي يوسف.

وعن عبد الله بن المبارك ﷺ قال: «أجمع أهل الفقه والآثار في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء وإنما العلماء أهل الأثر والتَّفقُّه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم».

---

* المقصود بالسكوت عن هذه الأمور هو السكوت عن الخوض في تفاصيل الحقيقة والكيفية والتأويلات ذلك على طريقة المتكلمين، وإلا فالكتاب والسنة والآثار مليئة بتوضيح العقيدة الصحيحة في الأسماء والصفات والقدر بأوضح الأدلة العقلية والنقلية. (وكتبه ياسر برهامي).

وعن الشافعي رحمه الله قال: ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس[١].

وعن الحسن البصري رحمه الله قال: «إنما أهلكتهم العجمة - أي المتكلمون - فحرفوا على حسب هواهم».

وعن جعفر بن محمد الصادق رحمه الله قال: «إذا بلغ الكلام إلى الله فأمسكوا عنه، إن أقواما تكلموا في الله فتاهوا».

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: عليكم بالأثر وإياكم والكلام في ذات الله.

وعن الأوزاعي رحمه الله قال: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا، وكف عما كفوا». وقال: «عليك بآثار السلف وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها بالقول».

وعن الإمام الذهبي رحمه الله قال: «قلَّ من أمعن النظر في علم الكلام إلا وأداه اجتهاده إلى القول بما يخالف السنة، ولهذا ذم

---

(١) أرسطاطاليس بن نيقوماخس أول من وضع فن المنطق وهو من أهل إصطخر. ذكره الشهرستاني في الملل والنحل، وابن الصلاح والنووي في الطبقات والكندي وابن زولاق في تاريخ مصر وصون المنطق للسيوطي وغيرهم.

علماء السلف النظر في علم الكلام، فإن علم الكلام مولد من علم الحكماء والدهرية».

وعن هشام بن عبد الملك رحمه الله أنه قال لابنه يعظه: «إياك وأصحاب الكلام فإن أمرهم لا يؤول إلى الرشاد».

وعن عبد الله بن طاهر رحمه الله أنه سئل: «يا أبا يعقوب هذه الأحاديث التي تروونها في النزول ما هي؟ فقال له: أيها الأمير هذه الأحاديث رواها من روى أحاديث الطهارة والغسل والصلاة والأحكام، ونقلها العلماء. ولا يجوز أن ترد هي كما جاءت بلا كيف، فإن يكونوا في هذه عدولًا وإلا فقد ارتفعت الأحكام وبطل الشرع. فقال له السائل: شفاك الله كما شفيتني». وهذا مروي عن أبي حاتم وأبي زرعة الرازيين.

وعن الجنيد بن محمد رحمه الله قال: «أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب، والقلب إذا عرى من الهيبة لله عري من الإيمان»[1].

وعن ابن قتيبة رحمه الله قال: «فأما الكلام فليس من شأننا ولا أرى أكثر من هلك إلا به»[2].

---

(١) راجع ذلك في: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للحافظ السيوطي.

(٢) منهج علماء الحديث والسنة: ص١٠٣ نقلًا عن الاختلاف في =

أقوال علماء الكلام في ذم الكلام والاشتغال به:

وقد نقل عن كبار علماء الكلام أنفسهم - خاصة الأشاعرة منهم - ما فيه ذم علم الكلام والاشتغال به، وإقلاعهم في آخر حياتهم عنه، لما رأوا من قبح غوائله. فمن ذلك:

قال الرازي في آخر حياته:

«لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق: القرآن. أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، و﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، و﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، ثم قال: «من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

وقال أيضًا في وصيته:

«ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتها في القرآن

=

اللفظ لابن قتيبة ص٢٢٥

العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمتناقضات، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية»(١).

وقال أبو الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: «أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض(٢)، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت».

وقال الوليد بن أبان الكرابيسي لبنيه حين حضرته الوفاة يوصيهم: «هل تعلمون أحدًا أعلم بالكلام مني؟ قال بنوه: لا. قال: فتتهموني؟ قالوا: لا. قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أهل الحديث، فإني رأيت الحق معهم».

---

(١) والرازي من أئمة التأويل في زمانه، وكتب ذلك في (أقسام اللذات) اعترافًا منه بأن طريق الحق اتباع القرآن في قضية أسماء الله تعالى وصفاته.

(٢) الجوهر: ما يقوم بنفسه (ذات)، والعرض: ما يقوم بالجوهر (صفة). مثال ذلك: زيد أسود، والأعراض تسعة: كم، أين، متى، وضع، ملك، أن يفعل، أن ينفعل، إضافة.

وعن أبي المعالي الجويني قال:

«لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق، وهربًا من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليك بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، فالويل لابن الجويني». وكان أيضًا يقول لأصحابه: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به». وذكر عن الحفيد ابن رشد وهو أعلم الناس بالفلسفة أنه قال: «ومن الذي قال في الإلهيات شيئًا يعتد به؟».

وذكروا عن الشهرستاني أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم. وقال في ذلك:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كف حائر ... على ذقن أو قارعًا سن نادم

وقال الفخر الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا له فيه قيل وقالوا

وعن أبي المعالي الجويني قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام.

وعن أبي حامد الغزالي قال: «من أشد الناس غلوًّا أو إسرافًا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتها التي حررناها فهو كافر. فهؤلاء ضيقوا رحمة الله على عباده أولًا، وجعلوا الجنة وقفًا على شرذمة يسيرة من المتكلمين».

وقال أيضًا: «وأما الخلافيات التي أحدثت في العصور المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف، فإياك أن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال. واحترز من شياطين الإنس، فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والضلال»[1].

والمتأمل لعلم الكلام ومحصلته يتبين له مخالفته للشرع من وجوه منها:

١ - أن مباحثه مبتدعة محدثة.

---

(١) راجع في ذلك: تفسير الشنقيطي لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] .والسيوطي في صون المنطق والكلام.

٢- أن دراسته تشغل عن دراسة الكتاب والسنة.

٣- أن منهجه مغاير للمنهج القرآني في عرض مسائل العقيدة وتناولها.

٤- أن مبادئه وأصوله تتنافى مع الكتاب والسنة.

٥- أن الاشتغال بعلم الكلام أدى إلى تفكك وحدة الأمة، وأوقع الكثيرين في الشك والحيرة والتخبط بل والإلحاد[١].

٦- أنهم لم يفلحوا في الرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومحصلة جهودهم هنا غير كافية، مع أنهم ما أحدثوا منهجهم إلا بزعم الرد على المخالفين بأدلة عقلية لا شرعية لعدم إيمان أهل الكتاب بالقرآن والسنة[٢].

---

(١) راجع في ذلك رسالة الدكتوراه (موقف الإمام ابن القيم من آراء المتكلمين) للدكتور محمد سعيد صبري صالح.

(٢) وقد نجح العلماء السلفيون في إفحام أهل الكتاب وبيان ضلالهم بأدلة القرآن والسنة، كما في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية، و«هداية الحيارى في الرد على أسئلة اليهود والنصارى» لابن القيم. يقول ابن تيمية: «كثير من المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون أنه يعلم بالعقل مثل تثليث النصارى ومثل تكذيب محمد ﷺ ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين، وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريق =

درء تعارض النقل والعقل:

لا يعني تقديم السلف للنقل على العقل، واقتصارهم في الاستدلال على الكتاب والسنة، ورفضهم تأويل النصوص بالأدلة العقلية على طريقة المتكلمين، أن السلف ينكرون دور العقل في التوصل إلى الحقائق والمعارف، أو أنهم لا يستعملون الفكر والنظر في الآيات الكونية. ولكن ذلك يعني أنهم لا يسلكون في استعمال العقل الطريقة التي سلكها علماء الكلام في الاستدلال بالعقل وحده في المسائل العقائدية والغيبية، وتقديمه على كلام الله ﷻ خالق العقل والعقلاء، وتقديمه على سنة النبي ﷺ المبلغ عن الله ﷻ بالوحي، والمعصوم من الخطأ في البيان.

فالسلف في منهجهم لا يدعون وجود تعارض بين الشرع والعقل، بل ينفون هذا التعارض الذي يصطنعه علماء الكلام المتأثرون بالفلاسفة اليونانيين.

ولكن شتان بين وظيفة العقل عند السلف، ودوره عند

=

القرآن، وقد ذكرت في الرد على النصارى من مخالفتهم للأنبياء كلهم مع مخالفتهم لصريح العقل ما يظهر به من كفرهم ما يظهر».

علماء الكلام والفلاسفة[١].

فعند علماء السلف:

العقل أمر معنوي يقوم بالعاقل سواء سمي عارضًا أو صفة: وهو مخلوق خلقه الله وأودعه في الإنسان، وهو يؤدي وظيفته من خلال قدراته، ومن خلال ما حوله مما يحيط به ويدركه، وقدرات العقل كمخلوق محدودة، وإدراك العقل للكون على اتساعه مقصور على الإحاطة بما تدركه حواس الإنسان وحواس الإنسان محدودة، فالقدرة المطلقة والإحاطة الشاملة، من صفات الخالق وليست من صفات العقل المخلوق.

والعقل الإنساني غير معصوم من الخطأ، وعقلاء الفلاسفة وعلماء الكلام يقع منهم من الجهل والضلال الكثير، والرد إليهم يوقع في الحيرة والاضطراب واختلاف الأحزاب فكيف

---

(١) يراجع في ذلك: «الصفات الإلهية في الكتاب والسنة» للدكتور محمد أمان بن علي الجامي ط. دار الإيمان ص٥٨- ٦١. «السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية» ط. دار الدعوة ص٥٨- ٨٩. و«منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين» ط. دار الدعوة: ص١٤٢- ١٥١. كلاهما للدكتور مصطفى حلمي. و«تمام المنة في الرد على أعداء السنة» و«تيسير علم الحديث» للشيخ محمد إسماعيل ط. الجماعة الإسلامية بالإسكندرية.

يعارض كلام الله وكلام رسوله المعصوم ﷺ بأقوال من يجوز عليه الخطأ والضلال؟

ولا يأتي الشرع بما يرفضه العقل، فلا يعارض نقل صحيح عقلًا صحيحًا، والشرع قد يأتي بما تحتار فيه العقول، ولكن لا يأتي بما يستحيل على العقل أن يتقبله.

والعقل يوجب علينا تصديق الشرع في كل ما أخبر به؛ لأن العقل آمن برسالة الرسول ﷺ وهو المبلغ عن الله فوجب الأخذ بما جاء به من الوحي.

ومقام التصديق بالرسول ﷺ يوجب اتباعه لا معارضته أو مخالفته ولو قلنا برد العقل للنص الذي أخبر به النبي ﷺ لكنا بذلك قد أبطلنا دلالة العقل التي أوجبت علينا قبول كل ما أخبر به النبي ﷺ .

والرد إلى الشرع يحدث الائتلاف والاجتماع، وهو انقياد لأمر واحد يتصف بالصدق، ولا يوجد ما يمنع اجتماع الخلق على الأدلة الشرعية.

بخلاف العقل فالرد إلى عقول الرجال يسبب اختلاف الآراء وقبول رأي منها لا يعني صدقه يقينًا، فلا سبيل إلى ثبوته ومعرفته، ولا هو وسيلة لجمع الناس واتفاقهم.

فالعقل وإن كان شرعًا مناط التكليف، ولكن الشرع لم

يجعل له دورًا في تشريع الحلال والحرام ووضع الواجبات الدينية والمنهيات الشرعية.

إن التنزيل جاء برد الناس عند التنازع إلى الكتاب والسنة وهذا يوجب تقديم السمع لا العقل قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

أما علماء الكلام وأتباع الفلاسفة فإنهم:

يقدسون العقل غاية التقديس، بل إن بعض الفلاسفة يرى أن العقل عين قائمة بنفسها.

ويرون أن دلالة العقل قطعية وبرهانية يقينية.

ويحصرون الاستدلال بالعقل في مصطلحاتهم الكلامية وبراهينهم المأخوذة من المنطق والفلسفة.

ويجعلون للعقل إحاطة كلية وإدراكًا واسعًا لكل ما في الكون، وقدرة على الوصول إلى الحقائق الغيبية، لذا يخوضوا بعقولهم في أمور الإلهيات والغيبيات وما وراء الطبيعة.

لذا فهم يوجبون على الله تعالى ما توجبه عقولهم، ويمنعون عن الله ما تمنعه عقولهم، فيما يتعلق في أفعال الله ﷻ وصفاته وأسمائه.

ولذا فهم يخضعون بالتأويل نصوص الشرع من الكتاب والسنة لما ذهبت إليه عقولهم من الأدلة. فأدلتهم العقلية أصل والشرع تابع لها.*

ويلزمهم على ذلك:

- أن ظاهر الكتاب والسنة قد يخالف العقل.
- أن دلالة العقل قطعية.
- أن دلالة النص ظنية.

---

* يقول ابن تيمية رحمه الله «والعجب أن من هؤلاء أي مدعي النظر والاستدلال من يصرح بأن عقله إذا عارضه الحديث لاسيما في أخبار الصفات حمل الحديث على عقله وصرح بتقديمه على الحديث وجعل عقله ميزانًا للحديث. فليت شعري هل عقله هذا كان مصرحًا بتقديمه في الشريعة المحمدية فيكون من السبيل المأمور باتباعه؟ أم هو عقل مبتدع جاهل ضال حائر خارج عن السبيل؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله». اهـ. من «نقض المنطق» لابن تيمية ص ٤٩.

- أن الواجب صرف النص عن ظاهره ليوافق العقل إن تعارضا.

- أن الأخذ بظاهر الكتاب والسنة يؤدي إلى الضلال في أمهات مسائل أصول الدين.

- أن الصحابة ﷺ جهلوا هذه الأدلة العقلية فلم يهتدوا إلى الحق في مسائل أصول الدين، أو أنهم انشغلوا عنها بأعباء الدعوة والجهاد في سبيل الله.

- أن النبي ﷺ لم يبين للصحابة أن ظاهر الكتاب والسنة غير مراد.

- أن المتكلمين أفضل علمًا وأحكم فهمًا من السلف.

- أن الفهم الكامل لعقائد الإسلام لم يعرف إلا على عهد المتكلمين. وكل ذلك باطل.

فالحجة كل الحجة فيما ثبت في كتاب الله تعالى أو سنة النبي ﷺ، وليس لأحد أن يخالف الكتاب أو السنة لقول قائل كائنًا من كان، وأن الله تعالى أتم دينه قبل وفاة نبيه وأكمله. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ، وأن النبي ﷺ بينه غاية البيان،

فبلغ الرسالة كاملة، وأدى الأمانة تامة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والصحابة أعلم الناس بهذا الدين إذ أخذوه عن النبي ﷺ فوعوه وعيًا تامًّا، ونقلوه نقلًا كاملًا، وعملوا به ففتح الله البلاد على أيديهم ومكنهم في الأرض، وانقادت لهم قلوب العباد قبل رقابهم، فدخلوا في دين الله طواعية أفواجًا.

☐ علماء السلف أهل نظر واستدلال:

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن العجب أن أهل الكلام يزعمون أن أهل الحديث والسنة أهل تقليد، ليسوا أهل نظر واستدلال، وأنهم ينكرون حجة العقل، وربما حكى إنكار النظر عن بعض أئمة السنة، وهذا مما ينكرونه عليهم فيقال لهم: ليس هذا بحق، فإن أهل السنة والحديث لا ينكرون ما جاء به القرآن هذا أصل متفق عليه بينهم، والله قد أمر بالنظر والتفكر والتدبر في غير آية، ولا يعرف عن أحد من سلف الأمة ولا أئمة السنة وعلمائها أنه أنكر ذلك، بل كلهم متفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلك. ولكن وقع اشتراك في لفظ (النظر) و(الاستدلال) ولفظ (الكلام) فإنهم أنكروا ما ابتدعه

المتكلمون من باطل نظرهم وكلامهم واستدلالهم، فاعتقدوا أن إنكار هذا مستلزم لإنكار جنس النظر والاستدلال»[١]. اهـ.

أمثلة لاستدلالات عقلية للسلف الصالح:

* جاءت جماعة من الدهرية إلى الإمام أبي حنيفة، فقال لهم: أجيبوني عن مسألة؟ فقالوا: هات. فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها، فهل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: لا هذا شيء لا يقبله العقل! فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ؟ فقالوا: صدقت».

* وسئل الشافعي: «ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم. قال: فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم،

---

(١) نقض المنطق لابن تيمية ص ٤٧.

والنحل فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعر، ويأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟ فأسلم المخالفون له على يديه».

* وذكر الإمام أحمد قلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان بصير فلابد من الفاعل. عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ.

وسأل هارون الرشيد الإمام مالكًا عن ذلك فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات.

واستحسن العلماء واحتجوا بقول الأعرابي عندما سُئل عن الدليل فقال: «البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟»

وعن الحسن البصري قال: «كانوا - يعني الصحابة - يقولون الحمد لله الذي لو جعل هذا الخلق دائمًا لا ينصرف لقال الشاك في الله: لو كان لهذا الخلق رب لحادثه، وأن الله قد حادثه بما ترون من الآيات: أنه جاء بضوء طبق ما بين

الخافقين، وجعل فيها معاشًا وسراجًا وهاجا، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكنًا، ونجومًا وقمرًا منيرًا، وإذا شاء بنى بناء جعل فيه من المطر والبرق والرعد ما شاء وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يقرقف الناس - أي يرعدهم - وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس، ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربًّا يحادثه بما يرون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة».

حادثه: أي جدد وجوده، فهو حادث، ويتعدى بالألف فيقال: (أحدثه).

ودار نقاش بين راهب وخالد بن يزيد بن معاوية عن أحوال أهل الجنة. فسأله الراهب: «أليس تقولون إنكم في الجنة تأكلون وتشربون لا يخرج منكم أذى؟ أفلهذا مثل تعرفونه في الدنيا؟ قال خالد: نعم الصبي يأكل في بطن أمه من طعامها وشرابها ثم لا يخرج منه أذى. قال الراهب: أليس تقولون إن الجنة تأكلون فيها فواكه ولا ينقص منها شيء؟ أفلهذا مثل في الدنيا تعرفونه؟ قال خالد: نعم الكتاب يكتب

منه كل شيء ثم لا ينقص منه شيء»[١].

- ذكر الشاطبي في الاعتصام بعضًا من طرق الصحابة ﷺ إزاء تلقيهم الأخبار المروية في مسائل التوحيد وتقبل العقل لها والاستدلال على صحتها بنظر عقلي. فمن ذلك[٢]:

١- فهمهم وصف الصراط بأنه كحدِّ السيف بأن العادة قد تخرق حتى يمكن المشي والاستقرار.

٢- أثبتوا الميزان للحساب بكيفية تليق بالآخرة؛ لأن الأعمال ليست كالأجسام التي توزن في الدنيا.

٣- أثبتوا عذاب القبر بأن رد الروح إلى البدن وتعذيبه يقبله العقل، فالمحتضر يعالج سكرات الموت ويُخبر بآلام وكذلك أصحاب الأمراض المؤلمة ولا نرى عليه أثر ذلك.

٤- أثبتوا سؤال الملكين للميت وإقعاده في قبره من قبيل خرق العوائد وخروج حكم ذلك عن حكمنا المعتاد في الحياة

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين: ص٤٨. نقلًا عن الشاطبي جـ٢/ ص ١٨٧ ط. دار الشعب. مصر.

(٢) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين: ص ٤٣، ٤٤. نقلًا عن الشاطبي في الاعتصام جـ ٢ / ١٨٧ ط. دار الشعب سنة ١٩٧٠م، القاهرة.

الدنيا. ومثله إنطاق الجوارح لتشهد على صاحبها يوم القيامة، وقراءة الأمي الذي لا يقرأ لصحف أعماله يوم القيامة... إلخ.

٥- رؤية الله ﷻ في الآخرة جائزة، ولا يمنعها العقل، إذ لا دليل في العقل يدل على أنه لا رؤية إلا على الكيفية المعتادة عندنا في الدنيا.

٦- تكلم الله تعالى: لا يمنع العقل ذلك في حقه تعالى على وجه لا يشابه كلام المخلوقين ولكن على الوجه اللائق بجلاله ﷻ.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أخبر بأحاديث رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، فعارضه سائل بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾[الأنعام: ١٠٣] فقال له: ألست ترى السماء؟ فقال: بلى. فسأله أتراها كلها؟ أجاب: لا.

وقد تكلم أناس في معية الله مع العباد وإحاطته بهم مع كونه مستويًا على عرشه فوق سمواته. فضرب الإمام أحمد لذلك مثلين عقليين - ولله المثل الأعلى - فقال: «لو أن رجلًا في يده قوارير فيها ماء صاف، لكان بصره قد أحاط بما فيها مع مباينته له، فالله - وله المثل الأعلى - قد أحاط بصره بخلقه وهو مستو على عرشه.

والمثال الثاني: لو أن رجلًا بنى دارًا لكان مع خروجه عنها

يعلم ما فيها. فالله الذي خلق العالم يعلمه مع علوه عليه كما قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك: ١٤].

النظر العقلي عند السلف:

أدرك السلف أنه لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصحيح، وعرفوا قدر العقل في تأييد ما جاء به الشرع، وأكثروا من التأمل في الآيات الكونية، والنظر في الأمثلة العقلية، الشاهدة على صدق الكتاب والسنة، والدالة على صحة العقائد الإسلامية، فألحقوا النظر العقلي بالأدلة الشرعية، وأمعنوا في دراسة كتاب الكون المنظور، كما أمعنوا في دراسة الوحي المقروء، ومكنتهم رجاحة عقولهم، وسلامة نفوسهم، واجتنابهم لمتاهات الفلسفة، واضطراب المتكلمين، من الوصول إلى موافقة العقل للشرع في كل ما جاء به، وأنه لا تعارض بينهما، وأقاموا بذلك الحجة البالغة لمن تأمل كلامهم ودرس علمهم ووعى ما قالوا وما كتبوا.

والنظر العقلي والتأمل الفكري في الآيات الكونية الشاهدة على صدق وصحة العقائد الإسلامية منهج شرعي، دل عليه القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وسار عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن سار على طريقتهم من علماء أهل السنة والجماعة.

وقد أحسن السلف فهم هذه الطريقة واستخدامها عند الحاجة إلى تأكيد ما ثبت في الكتاب والسنة، وقد سجلت مناظراتهم وكتبهم التطبيق العملي لهذا النهج.

ولبيان ذلك كله نُبيِّن أولًا:

- أدلة للنظر العقلي في القرآن الكريم.
- أدلة للنظر العقلي في السنة النبوية.
- أدلة للنظر العقلي عند السلف.

❐ النظر العقلي في القرآن الكريم:

القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ويحتاج إلى من يُعْمِلُ فيه فكره ونظره، ويتدبره بإخلاص وطلب للحق فينال منه الحقائق البينة، والقواعد المحكمة، والأمثلة الصائبة، فيستغني بما عنده من الهدى عن الخوض فيما خاض فيه المتكلمون والفلاسفة.

وقد عرف السلف ذلك كله واستوعبوه فهمًا وعلمًا، ومارسوه تطبيقًا في مناقشاتهم ومناظراتهم، ولقد أدرك هذه الحقيقة البعض من أئمة الكلام والفلسفة ورأوا أن الأخذ بطريقة القرآن والتمسك بها هي أصلح منهج لإصلاح العقائد

والعقول[1].

يقول الرازي في أواخر حياته: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق: القرآن. أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥]، و ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، و ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[طه: ١١٠]، و ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، ثم قال: «من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي». اهـ[2].

وقال أيضًا في وصيته: «ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمتناقضات وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج

---

(١) راجع قواعد المنهج السلفي ص٢٢٣ – ٢٥٩.

(٢) المرجع السابق نقلًا عن الرازي: ص ٢٢٣.

الخفية»[١]

ولقد وقع في القرآن المخاصمة مع الفرق الضالة، وذكر القرآن بأدلته السمعية العقائد الحقة، وأنكر على المعتقدات الباطلة، وبين شبهات المخالفين وذكر الرد عليها بالأدلة البرهانية والخطابية[٢].

قال السيوطي: «قال العلماء: قد اشتمل القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا كتاب الله قد نطق به لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فمن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا

---

(١) قواعد المنهج السلفي، نقلًا عن الرازي: ص ٢٢٣

(٢) راجع في ذلك مقدمة الفوز الكبير في أصول التفسير لشاه ولي الله ابن عبد الرحمن.

الأقلون ولم يكن ملغزًا. فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليهم ما يقنعهم وتلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أبنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء». اهـ[١]

فالقرآن أقام الحجة العقلية على صحة ما جاء به من أمور الاعتقاد ولكن بطريقة أيسر فهمًا، وأقوى حجة، وأوضح دلالة، يستوعبها العالم والجاهل، الأعرابي في الصحراء، والنجباء من العقلاء، وهي فوق ذلك حجة دامغة، لا سبيل إلى ردها أو التشكيك فيها.

فإذا جمعت الأدلة السمعية للقرآن، وأضيفت إليها ما أكدته الأدلة العقلية الواردة في القرآن حصلت بها الحجة البالغة ولله الحمد والمنة.

فالأدلة العقلية في القرآن توصل إلى ما يريده المتكلمون من أدلتهم العقلية، ولكن بوسيلة غير وسيلتهم، إذ تخلو من مصطلحات المتكلمين وعلوم الفلاسفة، وبالتالي من حيرتهم واضطرابهم واختلافهم، فاتفقت الأدلة القرآنية في الهدف مع طريقة المتكلمين، وحققت ما لم تحققه، واختلفا في الوسيلة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: جـ٢/ ١٧٢

والمنهج.

والمراد بالحجة العقلية احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بدليل عقلي يقطع به المعاند له فيها[(١)]. وكمالها أن تكون حجة واضحة يفهمها كل عاقل.

«لقد أثبت علماء السلف أن أدلة الشرع عقلية أيضًا وليست نقلية فحسب، فإن القرآن الكريم جاء بالأدلة العقلية على أحسن بيان وأقومه واستخلصوا منه الطرق المبنية على البراهين التي تخاطب الإنسان أينما كان وحيثما وجد، وكلها دل عليها القرآن الذي وصفه الله تعالى بأنه يهدي للتي هي أقوم»[(٢)].

وسنذكر هنا طرفًا من ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ص١٧٢/ جـ٢ نقلًا عن ابن أبي الأصبع.

(٢) منهج علماء الحديث والسنة، ص١٤٧ يقول ابن تيمية في الفتاوى جـ١٢/ ٨: «القرآن قد دل على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده وصدق رسوله، وبه يعرف إمكان المعاد، ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام أحد من الناس، بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها بالحق وأحسن تفسيرًا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

أمثلة للأدلة العقلية في القرآن الكريم:

• إثبات وجود الخالق ﷻ:

وردت بالقرآن الكريم آيات عديدة تحتوي على أدلة عقلية واضحة في إثبات وجود الخالق ﷻ فمن أمثلة ذلك:

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

٢ - قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

ويسترعى الانتباه أن هذه الأدلة العقلية ليست أدلة جافة جامدة كأدلة المتكلمين، وهي إلى جانب إثبات وجود الخالق ﷻ تبعث في النفس الإقرار بنعمه وآلائه، والشعور بالخضوع له، وتبين قدرته على الخلق والإبداع، وأنه على كل شيء قدير، فليست مجرد إثبات صانع للكون لا يعرف عنه شيئًا إلا إثبات وجود مطلق له، دون تعريف بهذا الخالق، وإثبات هذا الوجود أمر مشترك بينه وبين مخلوقاته، لم تزد عليه أدلة المتكلمين شيئًا.

ناهيك عن وقع هذه الآيات على النفس وزيادة اليقين والهدى في القلب بها، وزيادة إيمان العبد بالله تبارك وتعالى خالقه ومولاه.

٣ – قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤، ٦٥].

٤ – قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ – ٨١].

٥ – قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

[فصلت: ٩ – ١٢].

٦ - قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

٧ - قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

• **إثبات أنه وحده المستحق للعبادة:**

وردت الآيات القرآنية العديدة الدالة على استحقاقه ﷻ وحده للعبادة، وبطلان عبادة غيره ﷻ من أمثلة ذلك:

- قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩- ٦٤].

والآيات واضحة الدلالة في الرد على المشركين الذين يعبدون مع الله غيره ولا يفردونه بالعبادة فاستحقاق الله تبارك وتعالى للعبادة وحده ظاهر من كونه الخالق وحده الرازق وحده المنعم وحده، الذي يدفع الضر ويجلب الخير، ومن دونه - كائنًا من كان - لا يملك من الأمر شيئًا. إن تبين ذلك كله للعيان جاء السؤال المعلوم إجابته لكل إنسان ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

- قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[الأنعام: ٤٦].

- قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠].

ومن أساليب القرآن في الدلالة على ذلك الاحتجاج بإقرار المشركين بتوحيد الربوبية والاعتراف بخلق الله للعباد على توحيد الألوهية وهو وجوب إفراده تعالى بالعبادة دون غيره.

- قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ

هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[الزمر:٣٨].

ومن أساليب القرآن كذلك ضرب الأمثلة العقلية التي تدل على الفارق بين الشرك مع الله غيره وبين الإخلاص في العبادة له وحده ليتبين الفارق بين المؤمن الموحد والكافر المشرك في صورة حسية تستوعبها العقول.

- قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

وكذلك بين الفارق بين الخالق والمخلوق، وبالتالي استحقاق الأول للعبادة وحده، ووجوب هذه العبادة على المخلوق.

- قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

- **إثبات أن الإله واحد لا شريك له:**

وأساليب القرآن في ذلك متعددة. منها: الامتناع – عقلًا – تواجد أكثر من إله واحد للكون، فمثل هذه المشاركة في تصريف الكون وتسيير شؤونه يترتب عليها اضطراب الكون وفساده، وهذه المشاركة تنافي كمال الألوهية والربوبية:

- قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون: ٩١].

- وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

[الإسراء: ٤٢، ٤٣].

- وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

[الأنبياء: ٢٢].

ومن أدلة ذلك أيضًا أنه لا خالق للمخلوقات غير الله وحده، فإذا كان ذلك فكيف يتخذ معه في الألوهية شركاء؟

- قال تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[الرعد: ١٦].

- **إثبات النبوة وإرسال الرسول ﷺ :**

وردت آيات كثيرة في القرآن للدلالة العقلية على صدق الأنبياء عامة وصدق النبي ﷺ خاصة، وهي أدلة قوية الدلالة ظاهرة الحجة، نذكر بعضًا مما ورد في صدق نبوة النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله تبارك وتعالى:

١ - قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ

لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فقصص الأنبياء السابقين وأخبار الأمم السابقة جاء بها النبي ﷺ صادقة مفصلة، وهي ليست من علم قومه، وهو لم يكن من أهل الكتاب ولم يتعلم على أيديهم، وقد جاء بما ليس عند أهل الكتاب في بعض هذه التفاصيل.

٢ - قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وهذه حجة ظاهرة إذ كان ﷺ لا يقرأ ولا يكتب ثم جاء بهذا الكتاب المعجز.

٣ - قال تعالى: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

- وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

[المؤمنون: ٦٩].

وهذه أيضًا حجة ظاهرة، فإنه ﷺ لبث فيهم عمرًا عرفوه فيه جيدًا وعرفوا صدقه وأمانته وصلاحه حتى لقبوه (بالأمين) فكيف يكذبونه في إخباره عن أمر عظيم وهو رسالته وكيف لا يكذب على الناس ثم يكذب على الله !!!

٤ – قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾

[الحاقة: ٤٤– ٤٧].

وهذه حجة ظاهرة إذ أن الله تعالى يكشف من يكذب على العباد بادعاء النبوة لئلا يلتبس الأمر على الناس، إذ كيف يكون كاذبًا وينصره ويعزه بين الناس؟ وقد رأينا في المكذبين من أدعياء النبوة كيف خذلهم الله وأهلكهم وفضح أستارهم وكشف كذبهم لكل ذي عينين.

- **إثبات البعث والنشور والإحياء بعد الإماتة:**

الإيمان باليوم الآخر عقيدة غيبية، أخبرت بها رسل الله جميعًا، وكذبت بها أقوام عديدة، ولإثباتها تعددت أساليب القرآن الكريم في استعمال الأدلة العقلية الدالة على إثبات ذلك، منها دلالة إحياء الله تعالى للأرض الميتة بإنزال المطر:

- قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾[فاطر: ٩].
- وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

- وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩، ٤٠].

ومنها: دلالة خلق الله تعالى للعباد في النشأة الأولى، وخلقه لما هو أعظم أي السموات والأرض، فهو ﷻ على كل شيء قدير.

- قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨ – ٨٣].

فهذه الحبة الساكنة وهي أشبه بجماد هامد قد تترك على ذلك أسابيع أو أشهرًا أو سنوات، فإذا وضعت في باطن الأرض، وسقيت بالماء، انبعثت فيها الحياة والحركة، والأرض الجرداء قد تترك هامدة السنين الطوال، ثم ينبتها ماء المطر فإذا

هي قد اهتزت وربت.

والشجر الأخضر الرطب بالماء الذي ينبض بالحياة، إذا جف ويبس أوقدته النار، وهذا الاشتعال يضاد رطوبته وماءه. فسبحان الخلاق العليم الذي هو على كل شيء قدير.

أفيعجزه بعث الأبدان من الأجداث بعد الموت ؟

- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].
- قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].
- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

والآيات في ذلك كثيرة والأساليب متعددة ولسنا بصدد الإفاضة فيها والحصر لها[١]. وفيما ذكرنا كفاية في إثبات المطلوب.

---

(١) راجع في ذلك تفسير مفاتيح الغيب للرازي المجلد الأول ص٥٢١- ٥٢٦. ففيه بيان لأساليب قرآنية أخرى في إثبات الحشر والمعاد والبعث والنشور بعد الموت.

- **إثبات صفات الله وأفعاله:**

من أساليب القرآن في بيان صفات الله وأفعاله بيان استحقاق الله تبارك وتعالى لكل كمال في صفاته وأفعاله وتنزيهه ﷻ عن كل نقص وعيب وعجز، وما لا يليق من أحوال المخلوقين.

قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

وعموم الآية يفيد تنزيه الله تعالى عما يعتقده فيه المشركون من المعتقدات الباطلة التي كانوا عليها ويصفونه بها مما يخالف ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومضمون الآية تنزيه الله عما لا يليق به ووصفه بكل كمال.

وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٥٧ - ٦٠].

ومن ذلك بيان بطلان عبادة غير الله لكونهم متصفين بالعجز والنقص، وهذا ينافي الألوهية واستحقاق العبادة.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٣].

❑ ضرب الأمثال العقلية في القرآن الكريم:

اعتمد القرآن ضرب الأمثال العقلية للرد على المخالفين والمنكرين، وهذا النوع من الاستدلال من الأدلة القوية في إقامة الحجة وقد نبه القرآن على ذلك في أكثر من آية.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧].

فالقرآن به الأمثال الواضحة الدلالة لمن يتدبرها ويعقلها، وفيها غنى للناس عن غيرها من طرق المتكلمين. وغاية ما ذكره المتكلمون قد جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وأتمه.

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى:١٧]. فالكتاب مصدر الحق، والميزان هو العدل الذي جاء به الكتاب. فلا يظن ظان أن الحق في غيره وأن العدل عند سواه. ولمن أراد الحق والعدل أن يرجع إلى كتاب الله المنزل يتدبره ويتأمله.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

والآية نص في الجهاد في الدعوة إلى الله وإحقاق الحق من

الدين وإبطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين وإنكار الجاحدين بالقرآن العظيم، ففيه بيان العقائد وأدلتها ورد الشبه عنها(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

والمراد: «ولا يأتيك يا محمد ﷺ هؤلاء المشركون وأمثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه ويصورون به باطلًا أو اعتراضًا فاسدًا إلا جئناك بالكلام الحق الذي يدفع باطلهم ويدحض شبهتهم وينقض اعتراضهم ويكون أحسن بيانًا وأكمل تفصيلًا»(٢).

ومن أمثلة ذلك: ضرب الأمثلة لبيان الفارق بين المؤمن الموحد والمشرك الكافر في صورة حسية يدركها العقل.

---

(١) «منهج علماء الحديث والسنة» د. مصطفى حلمي: ص١٤٩، ١٥٠ نقلًا عن تفسير الإمام الجزائري السلفي عبد الحميد بن باديس رحمه الله ص٤٢١، ص٤٢٩.

(٢) انظر المرجع السابق.

المختلفين:

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

[القلم: ٣٥، ٣٦].

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

[الجاثية: ٢١].

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

[الأنعام: ٥٠].

- **الجدل والمجادلة في القرآن الكريم:**

الجدل لغة: شدة الخصومة والقدرة عليها، ومقابلة الحجة بالحجة وجادله: أي خاصمه.

والمجادلة: المناظرة والمخاصمة.

يقال: جادلتُ الرجل فجدلته جدلًا أي غلبته ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام.

وفي الحديث النبوي: «**مَا أُوتِيَ الـجَدَلَ قَوْمٌ إِلَّا ضَلُّوا**».

المكابرين المعاندين أهل الكفر والشرك.

وفي المقابل فالجدل المذموم ما خالف ذلك، فهو جدل مخالف للحق، مخالف لأدلة الكتاب والسنة، لا يراد به وجه الله، ولا يستمد أدلته من الكتاب والسنة يريد به صاحبه معارضة الحق الذي جاء به الشرع، من أجل الباطل الذي هو عليه.

فأما ذم الجدل في خلاف الحق الذي دل عليه الشرع:

- فقد قال تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[غافر: ٥].
- وقال تعالى: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾[الكهف: ٥٦].
- وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[الحج: ٨]، و[لقمان: ٢٠].
- وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾[الحج: ٣].
- وقال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

[غافر: ٤].

- وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ [غافر: ٣٥].
- وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩].
- قال تعالى: ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦].
- قال تعالى: ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وأما ذم الجدل الذي لا يراد به وجه الله.

- فقد قال تعالى: ﴿ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].
- وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٧].
- قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣].
- قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾

[غافر: ٥٦].

ويدخل في جملة الدلالة على مشروعية المجادلة بالحق ما ورد عن مجادلات رسل الله السابقين ومناظراتهم مع أقوامهم، وكذلك ما ورد في مجادلة النبي ﷺ للكفار والمشركين.

وقد ظن بعض المتكلمين أن ورود الأمر بالمجادلة دليل على مشروعية تعلم وممارسة علم الكلام، وهذا باطل، يعلم بطلانه من سنن الأنبياء السابقين، فما عرفوا علم الكلام، ولا مارسوه، ولا يعلم عن نبي أنه كان فيلسوفًا أو متكلمًا. ونبينا ﷺ في محاوراته ومراسلاته مع الكفار والمشركين لم يستعمل مصطلحات المتكلمين ولا طرقهم. فعلم من هديهم صلوات الله وسلامه عليهم أن الجدل المراد شرعًا بخلاف جدل المتكلمين وبعيد عن مصطلحاتهم. ومن الآيات في جدل أنبياء الله ورسله:

- قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾

[هود: ٣٢].

- قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي

قَوْمِ لُوطٍ ﴾[هود: ٧٤].

- وقال تعالى: ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾[الأعراف: ٧١].

وأما الجدل في عهده ﷺ فوردت فيه آيات:

- قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء: ١٠٩].

- قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحج: ٦٨].

- قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المجادلة: ١].

- قال تعالى: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١٣].

- **حكم الجدال والمراء ولو في الحق:**

أنزل الله تعالى كتابه وجعله حجة على عباده، فيه كفاية لمن يبحث عن الحق. فمن بحث عن الحق فيه وجده.

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤].

فمن علم الحق بدليله من الكتاب أو السنة فليس له أن يزيد في الكلام، ويحاور في الخطاب، فالجدال هنا باب شر، والمراء في الدين بعد تبين الحق مذموم.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: « **مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ** ». وقرأ الآية: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وسنده صحيح.

فالجدل بقصد إفحام الغير وتعجيزه، أو تنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل، جدال محظور لا نجاة من إثمه إلا بالسكوت، إذ الباعث عليه الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير مع ما في المماراة من تهييج الغضب ودفع المخالف إلى الانتصار لكلامه بما يمكنه من حق أو باطل(١).

قال بلال بن سعيد: «إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته». وقال ابن أبي ليلى: «لا أماري صاحبي، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه».

---

(١) يراجع في ذلك (تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين) للقاسمي مراجعة وتحقيق طائفة من الجامعيين: ص ٢٣، ٢٤.

والمراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فإن كان الكلام حقًّا فصدق به، وإن كان غير ذلك فبين بالشرع دليل بطلانه وكفى.

والخصومة لجاج في الكلام لِيُسْتَوفى به مال أو حقٌّ مغصوب ولا تكون الخصومة مذمومة إلا إن كانت بالباطل أو بغير علم، كالذي يدافع قبل أن يعلم الحق في أي جانب، أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لا حاجة لها في نصرة الحجة وإظهار الحق، أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره. وهذا هو مقصود اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدًّا[١].

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد أو إسراف، وزيادة لجاج، ومن غير قصد عناد وإيذاء، ففعله ليس بحرام. ولكن الأَوْلى تركه ما وجد إليه سبيلًا، فإن ضبط اللسان في الخصومة على قدر الاعتدال متعذر[٢].

(١،٢) يراجع في ذلك (تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين): ص٢٣، ٢٤.

وفي الحديث: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الْخَصِمُ». رواه البخاري.

والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، فينسى المتنازع سبب الخصومة ويبقى الحقد فيه، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته، ويطلق لسانه فيه، فمن دخل في الخصومة تعرض لهذه المحظورات.

وأقل ما في الخصومة تشويش الخاطر، فينبغي ألا يفتح بابه إلا لضرورة، مع حفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة، وذلك صعب جدًّا[١].

إن الأَوْلى والأصلح والمطلوب شرعًا استخدام طريقة القرآن في الحجاج والجدل والتعبير عن حقائق الإيمان. ولا يخفى أنها أفضل الطرق، وهي من أساليب الرسل في مناقشة الأمم الذين بعثوا إليهم[٢]. والأمثلة على ذلك كثيرة من نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم:

فعن مجادلة نوح عليه السلام لقومه. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ

---

(١) يراجع (تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين): ص٢٣، ٢٤.

(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٦١.

جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾[هود: ٣٢].

وعن مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[الأنعام: ٨٠ – ٨٣].

وفصل القرآن مناظرة إبراهيم عليه السلام مع النمرود.

إن الدارس للقرآن الكريم المتدبر لآياته يلتقي مع مناظرات متعددة للكفار والاحتجاج عليها بالأدلة العقلية الكافية الشافية[١].

وقد أمر الله تعالى بالجدل بالتي هي أحسن. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقال سبحانه: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

• أمثلة للأدلة العقلية في الحديث النبوي:

روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده عن بُسْرِ بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه. قال رسول الله ﷺ: « قَالَ اللهُ ابْنَ آدَمَ أَنَّى

---

(١) انظر منهج علماء الحديث والسنة: ص ١٧٠، ١٧١.

تُعْجِزُنِي وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ »(١)

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص ابن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أَيَبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا رَمَّ ؟ قَالَ «نَعَمْ ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا ، ثُمَّ يُمِيتُكَ ، ثُمَّ يُحْيِيكَ ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ» ، قَالَ فَنَزَلَتِ الآيَاتُ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ يس (٢)

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَخْلُو بِهِ رَبُّهُ كَمَا يَخْلُو أَحَدُكُمْ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ».

فسئل: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ؟ وَنَحْنُ جَمِيعٌ وَهُوَ وَاحِدٌ؟

فَقَالَ «سَأُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ الله هَذَا الْقَمَرُ كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِيًا بِهِ ؛ فَاللهُ أَكْبَرُ».

والتشبيه هنا تشبيه الرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي، فإن الله

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وله شاهد في الصحيحين عن أبي هريرة وهو حديث حسن إن شاء الله.

(٢) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

تعالى ليس كمثله شيء.

• **حوار النبي ﷺ مع وفد نصارى نجران:**

وردت في كتب السيرة والتفسير قصة المباهلة المشهورة بين النبي ﷺ ووفد نصارى نجران. وقد أورد الطبري في تفسيره بعضًا من هذا الحوار نذكره:

«...قال لهم النبي ﷺ: **«أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ وَلَدٌ إِلَّا وَهُوَ يُشْبِهُ أَبَاهُ؟»**

قَالُوا: بَلَى.

قَالَ: **«أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ؟»**.

قَالُوا: بَلَى.

قَالَ **«فَهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؟»**.

قَالُوا: لَا

قَالَ: **«أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ؟»**.

قَالُوا: بَلَى.

قَالَ: **«فَهَلْ يَعْلَمُ عِيسَى عَنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا مَا عُلِّمَ؟»**.

قَالُوا: لَا

قَالَ: «فَإِنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيسَى فِي الرَّحِمِ كَيْفَ شَاءَ، وَرَبُّنَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ».

قَالُوا: بَلَى.

قَالَ: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيسَى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَمَا تَحْمِلُ الْـمَرْأَةُ ثُمَّ وَضَعَتْهُ كَمَا تَضَعُ الْـمَرْأَةُ وَلَدَهَا، ثُمَّ غُذِّيَ كَمَا يُغَذَّى الصَّبِيُّ ثُمَّ كَانَ يَطْعَمُ وَيَشْرَبُ وَيُحْدِثُ؟».

قَالُوا: بَلَى.

قَالَ: «فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا كَمَا زَعَمْتُمْ؟».

قال: فعرفوا ثم أبوا إلا جحودًا. فأنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]»[(١)].

حجية أحاديث الآحاد في العقائد والأحكام:

ومن أساليب المتكلمين التي يبررون لأنفسهم بها نبذ الكتاب والسنة زعمهم أن حديث الآحاد لا يحتج به في العقائد، فيسقطون السنة النبوية من حساباتهم في إثبات أمور العقيدة والتوحيد، إذ إن أكثر السنة النبوية آحاد، والمتواتر منها

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين: د. مصطفى حلمي ط. دار الدعوة الإسكندرية: ص٣٦، ٣٧. نقلًا عن الواحدي في أسباب النزول ص٦١ ، ٦٢ط. الحلبي ١٣٨٨هـ-١٩٦٨ م.

بالنسبة إلى الآحاد قليل.

وحجتهم أن الأحاديث المتواترة تفيد القطع واليقين فيحتج بها، وأحاديث الآحاد - على كثرتها - ظنية تفيد العلم الظني لا اليقيني. فيعمل بها في الأحكام لا في العقائد، إذ إن الشرع نهى عن اتباع الظن والأخذ به.

وحديث الآحاد هو كل حديث لم يبلغ حد التواتر، حتى وإن كان مستفيضًا، حتى وإن كان صحيحًا مما اتفق عليه البخاري ومسلم وتلقته الأمة عنهما بالقبول.

والمحصلة: نبذ أكثر السنة النبوية وقصر الاحتجاج في أغلب مسائل العقيدة والتوحيد على القرآن وحده مع تقديم أقوال المتكلمين وآرائهم على الآيات عند تعارضهما في الأذهان مستخدمين التأويل لصرف المعاني عن ظاهرها لتوافق مذاهب المتكلمين.

والصواب: أن أحاديث الآحاد الصحيحة حجة بنفسها في العقائد والأحكام لا يفرق بينها وبين الأحاديث المتواترة وعلى هذا جرى علماء الأمة جيلًا بعد جيل[1] والتفريق بين

---

(١) راجع في ذلك للأهمية:

- «الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام»، و«وجوب الأخذ

=

الأحاديث المتواترة والآحاد في الاحتجاج في العقائد باطل من وجوه منها:

١ - أن هذا القول قول مبتدع محدث، لا أصل له في الشريعة، لم يعرفه السلف الصالح رضوان الله عليهم، ولم ينقل عن أحد منهم، ولا خطر لهم على بال*، وفي الحديث: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» (متفق عليه)، وقوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي. والجملة الأخيرة منه عند النسائي والبيهقي بإسناد صحيح.

وإنما قال هذه المقالة جماعة من علماء الكلام، وأخذ بها من

=

بحديث الآحاد في العقيدة والرد على شبه المخالفين» كلاهما للشيخ الألباني رحمه الله.

- الفتاوى لابن تيمية: جـ١٨ / ١٦، جـ ٢٠ / ٢٥٧

- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن القيم جـ٢/ ٣٥٧- ٣٧٩، جـ٢/ ٤٢٠ -٤٣٤.

- إحكام الأحكام لابن حزم: جـ١/ ١١٩ - ١٣٣

- الرسالة للشافعي: ص٤٠١ - ٤٣١.

* رد خبر الآحاد في العقائد مذهب المعتزلة وتابعهم عليه الأشاعرة والماتريدية.

تأثر بهم من علماء الأصول من المتأخرين، وتلقاها عنهم بعض المعاصرين بالتسليم دون مناقشة أو برهان.

وما هكذا شأن العقيدة خاصة ممن يشترطون لثبوت مسائلها بثبوتها بأدلة قطعية عندهم.

وأعجب من ذلك وأغرب ادعاء اتفاق الأصوليين على الأخذ بذلك، وهي دعوى باطلة، وجرأة زائدة، فكيف يكون الاتفاق على ذلك وقد نص على أن خبر الآحاد يفيد العلم - كما يفيد العمل - الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وابن حزم[١]. والحسين بن علي الكرابيسي والحارث بن أسد المحاسبي وغيرهم[٢].

قال ابن خويزمنداد في كتاب (أصول الفقه) : «وقد ذكر خبر الواحد الذي لم يروه إلا الواحد والاثنان: ويقع بهذا الضرب أيضًا العلم الضروري، نص على ذلك مالك، وقال أحمد في حديث الرؤية: (نعلم أنها حق، ونقطع على العلم بها)

---

(١) راجع «إحكام الأحكام» لابن حزم جـ١ / ١١٩- ١٣٨ حيث ذكر في الاحتجاج على ذلك أدلة كثيرة قوية.

(٢) «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة» للألباني: ط. دار العلم بنها: ص٢٣.

وقال القاضي أبو يعلى في أول المخبر: «خبر الواحد يوجب العلم إذا صح سنده ولم تختلف الرواية فيه، وتلقته الأمة بالقبول، وأصحابنا يطلقون القول فيه، وأنه يوجب العلم، وإن لم تتلقه الأمة بالقبول».

قال: «والمذهب على ما حكيت لا غير».

وقال بذلك أبو إسحاق الشيرازي في كتبه في الأصول كالتبصرة وشرح اللمع وغيرهما، ولفظه في الشرح: «وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول يوجب العلم والعمل، سواء عمل به الكل أو البعض»، ولم يحك فيه نزاعًا بين أصحاب الشافعي، وحكى هذا القول القاضي عبد الوهاب من المالكية عن جماعة من الفقهاء. وذكره أبو بكر الرازي في كتابه «أصول الفقه»[(١)]

٢ - أن الشرع دل على أخذ العلم من الأفراد والجماعات الناقلين له قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢]. والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، والإنذار إعلام بما يفيد العلم. والتبليغ لأمور

---

(١) المصدر السابق: ص٢٣ - ٢٥.

الشرع من عقيدة وغيرها بلا فرق.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦]. وفي قراءة « فَتَثَبَّتُوا ».

ومفهوم الآية قبول خبر الواحد الثقة.

وفي الأحاديث الحث على تبليغ ما أخبر به النبي ﷺ، فلازم ذلك قبول خبره من الواحد طالما أنه من طريق صحيح[1].

فإن قيل: أحاديث الآحاد تفيد الظن والشرع نهى عن اتباع الظن[2]. فجوابه:

هذا في الظن المرجوح الذي لا يفيد علمًا، فيكون قائمًا على الهوى مخالفًا للشرع. وليست أحاديث الآحاد من ذلك في شيء، بل هي من الشرع.

---

(١) والآيات والأحاديث الموجبة للأخذ بما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة عامة وشاملة للمتواتر والآحاد بلا فرق، وفي العقائد والأحكام بلا فرق. وكفى بها حجة ظاهرة لا سبيل إلى دفعها إلا الهوى ومناصرة المتكلمين. وانظر في ذلك كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي.

(٢) قال تعالى في حق المشركين: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

ولازم ذلك رد العمل بأحاديث الآحاد في الأحكام والمعاملات إذا اعتبرناها من الظن المنهي عن الأخذ به شرعًا. وهذا باطل غاية البطلان.

وعلى هذا نقول:

أين الدليل الذي يعتد به على ترك العمل بحديث الآحاد في العقائد والتوحيد؟ هل ثبت ذلك بآية قرآنية أو حديث نبوي صحيح؟

وهل ثبت عن أحد من الصحابة ﷺ العمل بذلك أو التصريح به؟

وهل ثبت عن أحد من الصحابة رد ما أخبره به أحدهم من أحاديث نبوية تتضمن أمورًا عقائدية؟ وهل فعل ذلك أحد من أئمة التابعين ومن بعدهم؟

إننا نجزم بلا شك أنه ما من أحد من الصحابة أو التابعين أو أئمة الهدى رد خبر الواحد الذي يتضمن أمورًا عقائدية، بل كانوا يتلقون الخبر بالقبول واليقين طالما ثبتت صحته، كما في أحاديث الرؤية وتكليم الله وندائه ونزوله في ثلث الليل الأخير كل ليلة... إلخ.

٣ –أن النبي ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي» متفق عليه. ومن بلغ عنه فقد أقام الحجة على المبلغ، وحصل له بذلك العلم، وادعاء

أن العلم والحجة لا تقوم بإخبار المبلغ، ما كان للأمر بذلك معنى.

وقد كان رسول الله ﷺ يرسل الواحد من أصحابه يبلغ عنه فتقوم الحجة بذلك على من بلغه[(١)]

وقد أرسل ﷺ عليًّا ومعاذًا وأبا موسى ﷺ في أوقات مختلفة إلى اليمن يبلغون عنه ويعلمون الناس الدين. وأهم شيء في الدين إنما هو العقيدة.

وهذا دليل قاطع على أن العقيدة تثبت بخبر الواحد وتقوم به الحجة على الناس وإلا ما اكتفى ﷺ بإرسال الواحد بمفرده، ولأرسل معه من يتواتر به النقل.

٤ – أن القول المذكور يستلزم اختلاف المسلمين فيما يجب عليهم اعتقاده فيكون الحديث حجة في حق الصحابي باطلًا مردودًا في حق من بعده فالصحابي الذي سمع من النبي ﷺ حصل له اليقين بما سمع واعتقد ذلك عن يقين.

ومن جاء بعده فلم يقبل قول هذا الصحابي لكونه حديث آحاد لا يرى هذا الاعتقاد ويرده. وما ثبت تواترًا في زمن التابعين ولم يثبت بعدهم متواترًا اختلف الاعتقاد بين

---

(١) وانظر الرسالة للشافعي في مبعوثيه ﷺ: ص٤١٤ – ٤١٩.

الزمنين .. وهكذا.

ومن لوازم ذلك أن حديث الصحابي كان صدقًا وحجة في حق الصحابي، ويعد باطلًا ومردودًا في أزمان بعده.

ومن لوازم ذلك رد كل ما رواه الصحابة مباشرة عن النبي ﷺ في أمور الاعتقاد إذا لم ينقل عنهم متواترًا ويبقى إثبات ما كان فيها من اعتقادات أخذها الصحابة من النبي ﷺ كأفراد على وصول عقول المتكلمين إلى إدراكها وإثباتها.

٥ – أن القول المذكور من لوازمه أن لا يكتفى بإخبار الواحد من علماء الحديث بأن هذا الحديث متواتر إذ إن خبره عن تواتر الحديث خبر آحاد لا يحتج به. أي أنه لا يحتج إلا بما شهد بتواتره جميع الناس لا واحد أو قلة من أهل الاختصاص. ومثل هذا لا يتيسر لكل أحد أن يثبت شهادة الجميع بتواتر الحديث، إما لنقص العلم عنده أو لعدم الاطلاع على كتب أكثر أهل الحديث.

ويزيد الأمر غرابة أن هؤلاء المتكلمين أبعد الناس عن تعلم الحديث ومطالعة كتب علمائه، وبضاعتهم فيه مزجاة ويفوتهم من أقوال المحدثين الكثير والكثير(١).

---

(١) ويدل على شدة جهلهم بالحديث المتواتر إنكار تواتر بعض =

وأعجب من ذلك ذمهم للتقليد في أمور العقيدة، وهم في علم الحديث لا يملكون إلا التقليد فيه.

٦ - فإن قيل: حديث الآحاد يفيد الظن، ويحتمل الخطأ فيه، عمدًا أو سهوًا، أو بعدم ضبط في النقل ونحوه. وما كان هذا صفته لا تؤخذ منه عقائد. فوجب ترك العمل بحديث الآحاد لذلك. والجواب: هذا مردود من وجهين:

الأول: إجماع السلف على قبول أحاديث الآحاد في العقائد وإثبات صفات الرب تعالى والأمور الغيبية العلمية بها.

الثاني: هذا الادعاء يوجب أيضًا طرح العمل بأحاديث الآحاد في الأحكام والفرعيات لنفس العلة وهذا باطل. فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا هذا، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها، جاز عليهم ذلك في نقل غيرها، وحينئذ فلا وثوق بشيء نقل لنا عن نبينا ﷺ وهذا انسلاخ من الدين.

قال ابن القيم رحمه الله: «ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات

=

الأحاديث المعلوم تواترها عند علماء الحديث والمشتغلين به كنزول الله تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من كل ليلة وكرؤية المؤمنين لربهم في الجنة يوم القيامة ونزول المسيح في آخر الزمان وظهور الدجال إلخ.

بها، كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها، فما الفرق بين باب الطلب وباب الخبر، بحيث يحتج بها في أحدهما دون الآخر وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات، كما تحتج بها في الطلبيات العمليات، ولاسيما الأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا، وأوجبه ورضيه دينًا فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه جوز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته، فأين سلف المفرقين بين البابين؟

نعم سلفهم بعض متأخري المتكلمين الذين لا عناية لهم بما جاء عن الله ورسوله وأصحابه، بل يصدون القلوب عن الاهتداء في هذا الباب بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ويحيلون على آراء المتكلمين وقواعد المتكلفين، فهم الذين يعرف عنهم التفريق بين الأمرين، وادعوا الإجماع على هذا التفريق، ولا يحفظ ما جعلوه إجماعًا عن إمام من أئمة المسلمين، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين وهذا عادة أهل الكلام، يحكون الإجماع على ما لم يقله أحد من أئمة المسلمين.

بل أئمة المسلمين على خلافه». اهـ[(١)]

٧ – أن مآل الأخذ بهذا القول هو الاقتصار في العقيدة على ما جاء به القرآن وترك العمل في العقائد بالأحاديث النبوية، وعدم الاعتداد بما جاء فيها من الأمور الغيبية.

فإن أكثر الأحاديث النبوية آحاد، والمتواتر منها قليل بالنسبة إلى الآحاد، والمتواتر اللفظي منها أقل، والمتواتر المعنوي إنما تختلف ألفاظه وتتفاوت. والناس يختلفون في إثبات هذا المتواتر ويتفاوتون.

ويشهد لذلك أن هؤلاء المتكلمين لا تجدهم يثبتون أمرًا عقائديًّا مستدلين بثبوته متواترًا عند علماء الحديث، فهم أبعد الناس عن الأخذ بذلك؛ لأنهم أجهل الناس بالأحاديث وطرقها، وأزهد الناس في الاشتغال بها وطلبها. ولذلك تراهم يحكمون على أحاديث أنها من الآحاد وهي عند أهل العلم بالحديث من المتواتر.

وأغرب من ذلك وأعجب ادعاء بعضهم أنه لا حاجة إلى السنة في أمور العقيدة، وأنه لم يثبت في أحاديث الآحاد ما تنفرد السنة به في أمور العقيدة، والأعجب تصديق البعض ذلك

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيم: جـ٢/ ٤١٢-٤١٧

والأخذ به. يقول أحدهم: وليس في العقائد ما انفرد الحديث بإثباته[١]. ويقول في موضع آخر: وقد قرر مؤلف المقاصد: أن جميع أحاديث أشراط الساعة آحادية[٢] فهذا بوضوح ما انتهى به الأمر بالنسبة لهؤلاء القائلين بعدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد أن نبذوا السنة النبوية كلها من الناحية العملية.

٨ - أن كثيرًا من العقائد الإسلامية التي تلقتها الأمة عن السلف، وتلقت أحاديثها بالقبول، هي من الآحاد، وترك العمل بأحاديث الآحاد ترك لهذه العقائد الإسلامية الثابتة، وتخطئة للسلف في اعتقادها واتخاذها دينًا، وأن يكون إسلامنا غير إسلامهم، وعقائدنا غير عقائدهم[٣]

---

(١) «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة» للألباني: ص٣٥. نقلًا عن «الإسلام عقيدة وشريعة» للشيخ محمود شلتوت ص٤٣١.

(٢) المصدر السابق: ص٣٦ نقلًا عن الشيخ شلتوت ص٦١

(٣) راجع في ذلك «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة» للشيخ الألباني رحمه الله: ص٣٦ - ٣٩.

- وراجع لمزيد من التوسع في هذه القضية:
- «أخبار الآحاد في الحديث النبوي» للشيخ عبد الله بن جبرين.
- «أصل الاعتقاد» دكتور عمر الأشقر.

ومن أمثلة هذه العقائد السلفية:

١ - أفضلية نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والرسل.

٢ - إثبات الشفاعة العظمى للنبي ﷺ في المحشر، وشفاعته لأهل الكبائر من أمته.

٣ - معجزاته ﷺ المادية ما عدا القرآن الكريم.

٤ - ما ورد في الأحاديث عن بدء الخلق وصفة الملائكة والجن، وصفة الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان الآن.

٥ - القطع بأن العشرة المبشرين بالجنة من أهل الجنة.

٦ - الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة.

٧ - الإيمان بحوضه ﷺ الكوثر. وأن من شرب منه لم يظمأ أبدًا.

٨ - الإيمان بالقلم وأنه كتب كل شيء.

٩ - الإيمان بأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

١٠ - الإيمان بأشراط الساعة: كخروج المهدي، وظهور

=

- «الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد» لسليم الهلالي.

الدجال، ونزول عيسى عليه السلام ... إلخ.

١١ - الإيمان بعروجه ﷺ إلى السموات العلا ورؤيته لآيات الله تعالى الكبرى فيها.

وكما كان السلف الصالح لا يقدمون الاجتهادات العقلية على الأدلة الشرعية في مسائل العقيدة والتوحيد فقد كانوا كذلك لا يقدمون الاجتهادات الفقهية على الأدلة الشرعية في مسائل الفقه وقضاياه، لذا فقد كان منهجهم في ذلك اتباع الأحكام الفقهية المبنية على الكتاب والسنة وترك ما عداها من آراء الفقهاء المخالفة للكتاب والسنة. وهم في ذلك كله يرون العذر للمجتهدين المخالفين، لا يجعلون رد أقوالهم قدحًا في إمامتهم وعلمهم وصلاحهم[(١)]، ولكن لا يرون عذرًا لمن قلد الأئمة في آرائهم التي اتضح بجلاء مخالفتها للكتاب والسنة، ولم يكن من منهج السلف التقيد بإمام معين في كل فتاويه. والاجتهاد عندهم واجب على من قدر عليه واستكمل أدواته. «فالعامي له أن يقلد من غلب على ظنه أنه من أهل العلم والدين أما العالم فعليه أن يأخذ بالأرجح» لذا ينبغي «أن يدرس ما دونه الأئمة الأربعة وغيرهم دون تعصب لرأي أحد

---

(١) انظر «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لابن تيمية.

منهم»[١]

والأئمة أنفسهم حثوا تلاميذهم وأتباعهم على تقديم الكتاب والسنة على اجتهاداتهم وآرائهم إذا تبينت المخالفة.

فعن الشافعي قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي وإذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط».

وعن الإمام أحمد: «ليس لأحد مع الله ورسوله كلام».

وعن الإمام مالك: «ما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ».

وعن أبي حنيفة: «لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي».

☐ **فائدة:**

تنقسم الأحكام الشرعية إلى:

* **أحكام قطعية يقينية:**

وهي بدورها تنقسم إلى:

أ- أحكام قطعية لا يجهلها أحد من المسلمين لاستفاضة

---

(١) انظر «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لابن تيمية.

العلم بها بين العامة والخاصة، كوجوب صوم رمضان ووجوب الصلوات الخمس وحرمة الخمر وحرمة الزنا ووجوب الغسل من الجنابة، وهذه الأحكام تسمى المعلوم من الدين بالضرورة، فمن خالف هذا المعلوم من الدين بالضرورة يكفر كفر عين.

ب - أحكام قطعية لا يعلمها إلا الخاصة من العلماء، ويجهلها الكثير من العامة، كحرمة زواج المرأة وخالتها، أو المرأة وعمتها، وأن للجدة السدس في الميراث، وأن القاتل عمدًا لا يرث، وهذه الأحكام مع كونها قطعية فمن يخالفها لا يكفر حتى تقام عليه الحجة التي يكفر مخالفها.

نقل الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم عن الإمام الخطابي أنه قال بعد ذكره أن مانعي الزكاة في عهد أبي بكر ﷺ هم أهل بغي: «فإن قيل: كيف تأولت أمر الطائفة التي منعت الزكاة على الوجه الذي ذكرت وجعلتهم أهل بغي؟ وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة وامتنعوا عن أدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟ قلنا: لا، فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافرًا بإجماع المسلمين، والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان، منها قرب العهد بزمان الشريعة

الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ، ومنها أن القوم كانوا جهالًا بأمور الدين، وكان عهدهم بالإسلام قريبًا، فدخلتهم الشبهة فعذروا، فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله في إنكارها.

وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئًا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرًا كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، والاغتسال من الجنابة، وتحريم الزنا والخمر، ونكاح ذوات المحارم، ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلًا حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده، فإنه إذا أنكر شيئًا منها جهلًا به لم يكفر وكان سبيله سبيل أولئك القوم في بقاء اسم الدين عليه.

أما ما كان الإجماع فيه معلومًا من طريق علم الخاصة كتحريم زواج المرأة على عمتها وخالتها وأن القاتل عمدًا لا يرث، وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر، بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة». اهـ. كلام الخطابي رحمه الله.

**** أحكام ظنية غير قطعية:**

والأحكام الظنية التي تلقتها الأمة بالقبول من يخالفها يعد مبتدعًا يعامل معاملة المبتدعين في الدين.

ومن خالف الحديث الصحيح فهو مخطئ ينكر عليه، ولا يعتد بخلافه لكونه من الخلاف غير السائغ وليس له الدليل المعتبر، بل هو مخالف لما صح من الدليل.



٣ – رفض التأويل الكلامي

رفض التأويل الكلامي من السمات البارزة للمنهج السلفي في الاستدلال، وهذا يعني الأخذ بظاهر النصوص في مسائل الاعتقاد.

وظاهر النصوص ما يتبادر منها من المعاني بحسب ما تضاف إليه وما يحتف بها من القرائن.

والواجب في النصوص إجراؤها على ظاهرها بدون تحريف.

فإذا كان الله أنزله باللسان العربي من أجل عقله وفهمه، وأمرنا باتباعه، وجب علينا إجراؤه على ظاهره بمقتضى ذلك اللسان العربي، إلا أن تمنع منه حقيقة شرعية.

ولا فرق في هذا بين نصوص الصفات وغيرها، بل قد يكون وجوب التزام الظاهر في نصوص الصفات أولى وأظهر؛ لأن مدلولها توقيفي محض لا مجال للعقول في تفاصيله[(١)]

---

(١) انظر «تقريب التدمرية» للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين. ط. مكتبة السنة، القاهرة ط. الأولى ١٤١٣هـ -١٩٩٢م: ص٥٥ بتصرف يسير.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

[الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[الزخرف: ٣].

و قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف: ٣].

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن نصوص الصفات تجرى على ظاهرها اللائق بالله ﷻ من غير تحريف، وأن ظاهرها لا يقتضي تمثيل الخالق بالمخلوق. فاتفقوا على أن لله تعالى حياة وعلمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا حقيقة، وأنه مستو على عرشه حقيقة، وأنه يحب ويرضى، ويكره ويغضب حقيقة، وأن له وجهًا ويدين حقيقة لقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] .

وقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٢٠]، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ فَسَوْفَ

يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فأجروا هذه النصوص وغيرها من نصوص الصفات على ظاهرها، وقالوا: إنه مراد على الوجه اللائق بالله تعالى بلا تحريف ولا تمثيل.

فساد ترك الأخذ بظاهر النصوص في العقائد:

والذين يجعلون ظاهر النصوص معنى فاسدًا فينكرونه يكون خطؤهم على وجهين:

الوجه الأول: أن يفسروا النص بمعنى فاسد لا يدل عليه اللفظ فينكرونه لذلك، ويقولون: إن ظاهره غير مراد.

مثال ذلك: قوله تعالى في الحديث القدسي: «**يا ابن آدَمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْنِي، يا ابن آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فلم تُطْعِمْنِي، يا ابن آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فلم تَسْقِنِي**»(١)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩/ ٤٣)، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض من حديث أبي هريرة ﷺ.

قالوا: فظاهر الحديث أن الله يمرض ويجوع ويعطش وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد.

فنقول: لو أعطيتم النص حقه لتبين لكم أن هذا المعنى الفاسد ليس ظاهر اللفظ؛ لأن سياق الحديث يمنع ذلك فقد جاء مفسرًا بقول الله تعالى في الحديث نفسه: « **أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فلم تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فلم تُطْعِمْهُ، واسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فلم تَسْقِهِ**». وهذا صريح في أن الله سبحانه لم يمرض ولم يجع ولم يعطش وإنما حصل المرض والجوع والعطش من عبد من عباده[1]

الوجه الثاني: أن يفسروا اللفظ بمعنى صحيح موافق لظاهره لكن يردونه لاعتقادهم أنه باطل وليس بباطل.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

قالوا: فظاهر الآية أن الله علا على العرش، والعرش محدود، فيلزم أن يكون الله سبحانه وتعالى محدودًا، وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد[2]

---

(١) تقريب التدمرية للشيخ ابن عثيمين : ص٥٧ ، ٥٨.

(٢) أو يتوهمون أن استواء الله تعالى على العرش كاستواء الإنسان على =

فنقول: إن علو الله تعالى على عرشه - وإن كان العرش محدودًا - لا يستلزم معنى فاسدًا، فإن الله تعالى قد علا على عرشه علوًّا يليق بجلاله وعظمته، ولا يماثل علو المخلوق على المخلوق، ولا يلزم منه أن يكون الله محدودًا وهو علو يختص بالعرش والعرش أعلى المخلوقات، فيكون الله عاليًا على كل شيء، وهذا من كماله وكمال صفاته فكيف يكون معنى فاسدًا غير مراد؟![1]

وقد يجتمع الخطأ من الوجهين في مثال واحد، مثل قوله ﷺ: « **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** ».

فقالوا على الوجه الأول: ظاهر الحديث أن قلوب بني آدم بين أصابع الرحمن فيلزم منه المباشرة والمماسة وأن تكون أصابع الله سبحانه داخل أجوافنا، وهذا معنى فاسد فيكون

= ظهر الدابة أو السفينة فيكون الله تعالى محتاجًا إلى العرش في استوائه كاحتياج الإنسان إلى الدابة أو السفينة فينكرون ظاهر اللفظ لذلك وهذا - كما بين الشيخ - ظن فاسد فاستواء الله ليس كاستواء المخلوقين بل هو استواء خاص أضافه إلى نفسه ﷻ يليق به كسائر صفاته وأفعاله. فإن الله تعالى لا يماثل المخلوقين.

(١) تقريب التدمرية ص ٦٠، ٦١

غير مراد.

وقالوا على الوجه الثاني: ظاهر الحديث أن أصابع الله حقيقية والأصابع جوارح وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد.

فنقول على الوجه الأول:

إن كون قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن حقيقة لا يلزم منه المباشرة والمماسة، ولا أن تكون أصابع الله ﷻ داخل أجوافنا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] فإن السحاب لا يباشر السماء ولا الأرض ولا يماسهما.

ويقال: سترة المصلي بين يديه وليست مباشرة له ولا مماسة له.

فإن كانت البينية لا تستلزم المباشرة والمماسة فيما بين المخلوقات فكيف بالبينية فيما بين المخلوق والخالق الذي وسع كرسيه السموات والأرض وهو بكل شيء محيط، وقد دل السمع والعقل على أن الله تعالى بائن من خلقه، ولا يحل في شيء من خلقه ، ولا يحل فيه شيء من خلقه وأجمع السلف على ذلك.

ونقول على الوجه الثاني:

إن ثبوت الأصابع الحقيقية لله تعالى لا يستلزم معنى فاسدًا وحينئذ يكون مرادًا قطعًا، فإن لله تعالى أصابع حقيقية تليق بالله ﷻ ولا تماثل أصابع المخلوقين، وفي صحيحي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: (جَاءَ حَبْرٌ مِن الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْـمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا الْـمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] هذا لفظ البخاري في تفسير سورة الزمر(١).

فأي معنى فاسد يلزم من ظاهر النص حتى يقال إنه غير

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤٥١، ٧٥١٣) كتاب التفسير وكتاب التوحيد. وأخرجه مسلم (٢٧٨٦/ ١٩-٢٢) كتاب صفة القيامة والجنة والنار، والنسائي في تفسيره رقم: ٤٧١، ٤٧٢.

مراد؟[١]

فإن قيل: إجراء النصوص على ظاهرها في باب الصفات فيه تشبيه الخالق بالمخلوق فلزم ترك الظاهر وإثبات معانٍ يقبلها العقل وتتجنب التشبيه.

والجواب: هذا باطل من وجوه، فتوهم المشابهة والمماثلة ثم نفي ذلك يتضمن عدة محاذير منها:

الأول: أنه فهم من النصوص صفات المخلوقين، وظن أن ذلك هو مدلول النص، وهذا فهم خاطئ، فإن الصفة التي دلت عليها النصوص تناسب موصوفها وتليق به.

وتمثيل الخالق بالمخلوق كفر وضلال؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ولا يمكن أن يكون ظاهر النصوص كفرًا وضلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٦] وقوله: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ﴾ [النساء: ١٧٦].

الثاني: أنه جنى على النصوص حيث نفى ما تدل عليه من المعاني الإلهية، ثم أثبت لها معاني من عنده، لا يدل عليها ظاهر اللفظ، فكان جانيًا على النصوص من وجهين.

---

(١) تقريب التدمرية ص ٦٢ ، ٦٣

الثالث: أنه نفى ما دلت عليه النصوص من الصفات بغير علم، فيكون بذلك قائلًا على الله ما لا يعلم، وهذا محرم بالنص والإجماع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

الرابع: أنه إذا نفى عن الله ﷻ ما تقتضيه النصوص من صفات الكمال لزم أن يكون الله سبحانه متصفًا بنقيضها من صفات النقص، وذلك لأنه ما من موجود إلا وهو متصف بصفة، ولا يمكن وجود ذات مجردة عن الصفات فإذا انتفت صفة الكمال عنها لزم اتصافها بصفات النقص.

وحينئذ يكون من نفى عن الله تعالى ما تقتضيه النصوص من صفات الكمال متعديًا في حق الله تعالى، حيث جمع بين نفى صفات الكمال عنه، وتمثيله بالمنقوصات والمعدومات، بل قد يرتقي به الغلو في النفي إلى تمثيله بالممتنعات المستحيلات، ويكون أيضًا جانيًا على النصوص، حيث عطلها عما دلت عليه من صفات الكمال لله تعالى، وأثبت لها معاني من عنده لا يدل عليها ظاهرها، فيجمع بين النفي والتمثيل في صفات الله، وبين التحريف والتعطيل في نصوص الكتاب والسنة ويكون ملحدًا في أسماء الله وآياته. وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ

بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠][1]

وباختصار:

فإن الذين يخرجون النصوص الشرعية عن معانيها الظاهرة إلى معانٍ أخرى لم يدل عليها دليل شرعي بمقتضى ما ذهبت إليه عقولهم قد وقعوا في عدة محاذير منها:

١- مخالفة طريق السلف.

٢- تعطيل النصوص عن المراد بها

٣- تحريفها إلى معان غير مرادة بها.

٤- تعطيل صفات الكمال التي تضمنتها هذه النصوص.

٥- تناقض طريقتهم فيما أثبتوه وفيما نفوه.

فيقال لهم في جانب الإثبات: أثبتْ ما نفيت مع نفي التشبيه كما أثبت ما أثبت مع نفي التشبيه.

---

(١) تقريب التدمرية : ص٦٥ ، ٦٦

ويقال لهم في جانب النفي: انف ما أثبت خوفًا من التشبيه كما نفيت ما نفيت خوفًا من التشبيه وإلا كنت متناقضًا. والقول الفصل المطرد السالم من التناقض ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها من إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وإجراء النصوص على ظاهرها على الوجه اللائق بالله ﷻ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل(١).

فمنهج السلف قائم إذًا على:

أ- رفض التأويل في النصوص العقائدية.

ب- رفض التحريف للنصوص.

جـ- رفض التعطيل لمعاني النصوص.

د- رفض التشبيه والتمثيل بين الخالق والمخلوق.

هـ- رفض تكييف صفات الله ﷻ.

---

(١) راجع: تقريب التدمرية: ص٣٧ بتصرف يسير.

أ- رفض التأويل:

يزعم المتكلمون أن أدلتهم العقلية المأخوذة من مصطلحاتهم الكلامية أدلة قطعية وأصل يجب الرجوع إليه، فإذا عارضتها الأدلة الشرعية من الكتاب أو السنة وجب - في زعمهم - تأويل النصوص الشرعية تأويلًا يجعلها موافقة للأدلة العقلية. وهذا هو التأويل الذي يلجأ إليه المتكلمون في أبحاثهم الكلامية في مسائل التوحيد والعقائد الغيبية والصفات الإلهية.

فالتأويل إذًا في اصطلاح المتكلمين إنما يعني اتخاذ العقل أصلًا يكون النقل تابعًا له فإذا ما ظهر تعارض بينهما - في زعمهم - فينبغي تأويل النص حتى يوافق العقل.

ومنهج المتكلمين في تأويل النصوص بأدلتهم العقلية باطل من وجوه منها:

١- أن هذا النوع من التأويل للنصوص لتوافق أقوال المتكلمين هو في حقيقته تحريف للنصوص وتعطيل لها.

٢- أنه لا يجوز شرعًا معارضة كلام الخلاق العليم بالمصطلحات الكلامية التي وضعها بشر بعقولهم، وهي مأخوذة في الأصل من فلاسفة وعلماء كلام من غير المسلمين.

٣- أن موافقتهم فيما ذهبوا إليه تؤدي إلى الاستخفاف بأدلة

الكتاب والسنة، والتقليل من قيمتها حيث لا يستدل بها على وجه الاستقلال بها يناقض الإيمان بها، كما أنه يؤدي إلى صرف الناس عن دراسة الكتاب والسنة وفهم معانيهما.

٤- أن الحجة العقلية الصحيحة لا تعارض الحجة الشرعية الصريحة بل يمتنع تعارضهما، إلا إذا كانت الحجة العقلية فاسدة، أو الفهم للحجة الشرعية فاسدًا.

٥- أن الشرع قد يأتي بأمور تحتار العقول في إدراكها، ولكنها غير مستحيلة عقلًا. مثال ذلك في الإيمان بالملائكة، فهذا إيمان بالغيب، عرف من النصوص الشرعية المتواترة، وهي مخلوقات نورانية، تحتار العقول في إدراك حقيقتها، ولكن وجودها غير مستحيل عقلًا، كما أن هناك مخلوقات لا ترى كالميكروبات والجراثيم الدقيقة لا ترى بالعين المجردة وثبت وجودها علميًا تحت المجهر (الميكروسكوب)، وكالهواء لا يرى ووجوده ثابت من آثاره حولنا، وكالكهرباء لا ترى وتدرك من آثارها...إلخ.

ولفظ التأويل في الشرع له عدة معانٍ:

١- التأويل الذي بمعنى التفسير والبيان وهو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كابن جرير الطبري وغيره.

٢- التأويل الذي بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام كما

قال تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣] وأمثلة هذا النوع كثيرة في القرآن ولا سيما ما يتعلق بأخبار المعاد.

٣- التأويل في اصطلاح المتأخرين وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى احتمال آخر مرجوح لدليل يقتضي ذلك.

فإن كان صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلًا وليس بدليل على الصحيح فهذا تأويل فاسد. ومن ذلك تأويل المتكلمين لآيات وأحاديث الأسماء والصفات بدعوى التنزيه لموافقة أدلتهم العقلية في قضية الأسماء والصفات. فهذا ليس بدليل تعارض به نصوص الكتاب والسنة. ودعوى التنزيه لا تعارض الإثبات الذي عليه أهل السنة إذ إنهم لا يكيفون صفة ولا يشبهون الخالق بالمخلوق، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنفى التشبيه تنزيهًا للخالق مع إثبات صفتي السميع والبصير. وبالجملة فليست أدلة المتكلمين العقلية المأخوذة من علم الكلام بأدلة تؤول أو تخصص أو تقيد بها الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة.

فإن كان صرف اللفظ عن ظاهره بدليل شرعي صحيح في

نفس الأمر فهذا تأويل صحيح مقبول[١].

على أن التأويل الصحيح في النصوص يتطلب كذلك:[٢]

١-أن يحتمل اللفظ لغة هذا المعنى المرجوح.

٢- ورود ما يفيد وجوب هذا التأويل لظاهر النصوص

---

(١) طبقًا لاصطلاح المتأخرين لما ذكرنا.

(٢) راجع في ذلك :

- «أضواء البيان في إيضاح القرآن» للشنقيطي تفسير سورة آل عمران جـ١/ ص٢٣٤، ٢٣٥

- كلام ابن تيمية عن التأويل في كتابه «نقض المنطق» ص ٥٦ – ٥٩.

- «رسالة الإكليل في المتشابه والتأويل» لابن تيمية. المطبعة السلفية.

- «الرسالة المدنية» لابن تيمية.

ومما يصح أن نمثل به لاستيفاء هذه الشروط الحديث القدسي في الصحيح «يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضت فَلَمْ تَعُدْنِي» وهذا من مجاز حذف المضاف تحتمله اللغة ودل عليه الدليل من نفس الحديث من قوله تعالى: «مَرِضَ عَبْدِي فُلَانٌ» وسلم هذا الدليل من معارض وهو من بيان الله ورسوله ﷺ وعلى هذا فليس من صفات الله المرض ولا الاستسقاء ولا الاستطعام تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(وكتبه ياسر برهامي).

الشرعية من النبي ﷺ إذ يمتنع اقتضاء صرف ظاهر نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها بدون بيان وتنبيه وإرشاد من النبي ﷺ.

٣- بيان النبي ﷺ لذلك وأن ظاهر النص غير مراد.

٤- سلامة دليل التأويل من معارض.

وقد أقر بصحة مذهب السلف في ترك تأويل أدلة الكتاب والسنة العديد من كبار علماء الكلام الأشاعرة في أواخر حياتهم وأظهروا الرجوع عما يخالف ذلك قبل موتهم.

فأبو الحسن الأشعري نفسه صرح برجوعه إلى مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها، ففي كتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» ذكر أقوال جميع أهل الأهواء والبدع والمؤولين والنافين لصفات الله أو بعضها، ثم قال: «جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئًا».

وقال أيضًا: «فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير» .اهـ.

والباقلاني في كتابه (التمهيد) تكلم في فساد التأويل ورد على الآخذين به في أسماء الله تعالى وصفاته.

وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني بعد أن انتصر للتأويل في كتابه (الإرشاد) رجع عنه في رسالته (العقيدة النظامية) وقال فيها: «والذي نرتضيه رأيًا وندين الله به عقدًا، اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة وهو مستند معظم الشريعة» اهـ.

وقال أيضًا: «فإذا انصرم عصرهم - أي الصحابة - وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعًا بأنه الوجه المتبع بحق، فعلى ذي الدين أن يعتقد تنزه الرب تعالى عن صفات المحدثات ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب». اهـ.

والإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام»: «اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين». ثم قال: «إن البرهان الكلي على أن الحق في مذهب السلف وحده ينكشف بتسلم أربعة أصول مُسَلَّمة عند كل عاقل» ثم بين أن:

الأصل الأول: من تلك الأصول أن النبي ﷺ هو أعرف

الخلق بصلاح أحوال العباد في دينهم ودنياهم.

الأصل الثاني: أنه بلغ كما أوحى إليه ولم يكتم منه شيئًا.

الأصل الثالث: أن أعرف الناس بمعاني كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسراره هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين لازموه وحضروا التنزيل.

الأصل الرابع: أن الصحابة ﷺ في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ودعوا إليه أولادهم وأهلهم.

ثم قال الغزالي: «وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه»[1]. اهـ.

قال الشنقيطي رحمه الله: «ولا شك أن استدلال الغزالي هذا بأن مذهب السلف هو الحق استدلال لا شك في صحته، ووضوح وجه الدليل فيه، وأن التأويل لو كان سائغًا أو لازمًا لبين

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ من أضواء البيان للشنقيطي وصون المنطق والكلام للحافظ السيوطي.

وانظر المنتظم لابن الجوزي جـ٩/ ص١٧٠ وطبقات الشافعية للسبكي جـ٦/ ص٢١٠

النبي ﷺ ذلك، ولقال به أصحابه وتابعوهم كما لا يخفى وذكر غير واحد عن الغزالي أنه رجع في آخر حياته إلى تلاوة ما في كتاب الله وسنة رسوله. وذكر بعضهم أنه مات وعلى صدره صحيح البخاري رحمه الله».

وعن أبي الحسن الأشعري أنه قال في مسجد بالبصرة: «والذي ندين به هو التمسك بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان عليه الإمام أحمد ابن حنبل آخذون». اهـ.

ب - رفض تحريف النصوص:

التحريف: هو التغيير والتبديل، مأخوذ من قولهم: حرفت الشيء عن وجهه حرفًا، من باب ضرب إذا أملته وغيرته، والتشديد للمبالغة، وتحريف الكلام: تفسيره بغير المعنى المتبادر منه.

والتحريف قسمان: تحريف للفظ وتحريف للمعنى. وكلاهما وقع من أهل الكتاب في كتبهم، فما في أيدي أهل الكتاب من كتب هي مما وقع فيه هذا التحريف بنص القرآن:

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ

وكقول الأشاعرة في قول الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] : وجاء أمر ربك. ونحو ذلك.

فهذا تحريف للفظ والمعنى. وتفسير بعض المبتدعة لصفة الغضب بإرادة الانتقام. وتفسيرهم الرحمة بإرادة الإنعام. وقولهم: إن المراد باليدين النعمة أو القدرة[1] وهذا تحريف للمعنى. وهذا كله من الباطل ومن التحريف المنهي عنه.

جـ- رفض التعطيل:

التعطيل مأخوذ من العطل وهو الخلو والفراغ والترك ومنه قوله تعالى: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥] أي: بئر أهملها أهلها وتركوها، والمراد بالتعطيل نفي الصفات الإلهية وإنكار قيامها بذاته تعالى.

والتعطيل للأسماء والصفات الإلهية مذهب الجهمية والمعتزلة.

والفرق بين التحريف والتعطيل:

---

(١) راجع (الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية) تأليف الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان. ط. دار الدعوة الإسكندرية ص٤٨.

- وانظر شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس. ط. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص١٦ ط. الرابعة.
- وانظر شرح معارج القبول جـ١/ ص٣٢١.

أن التعطيل: نفي للمعنى الحق الذي عليه الكتاب والسنة.

أما التحريف: فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها.

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق.

فإن التعطيل أعم مطلقًا من التحريف. بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس.

وبذلك يوجدان معًا فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق. كتفسير الأشاعرة: (استوى) باستولى، (والمجيء) بمجيء الأمر، (واليد) بالقدرة، (والرحمة) بإرادة الإنعام، ونحو ذلك من تأويلاتهم الباطلة.

ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة في الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر، وهو ما يسمونه بالتفويض.

والتفويض ليس من مذهب السلف، فإن السلف لم يكونوا يفوضون في علم المعنى، ولا كانوا يقرؤون كلامًا لا يفهمون معناه، بل كانوا يفهمون معاني النصوص من الكتاب والسنة، ويثبتونها لله ﷻ ثم يفوضون ما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على

العرش: (الاستواء معلوم والكيف مجهول)[١]

د - رفض التشبيه والتمثيل بين الخالق والمخلوق:

التمثيل كالتشبيه. وهو اعتقاد مشابهة الخالق بالمخلوق، وتمثيل صفاته بصفاتهم.

وهو ينقسم إلى قسمين:

الأول: تشبيه المخلوق بالخالق وذلك كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله، وكتشبيه اليهود عزيرًا بالله، وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

الثاني: كتشبيه الذين يشبهون الله بخلقه، فيقولون: له وجه كوجه المخلوق، ويد كيد المخلوق، وسمع كسمع المخلوق ونحو ذلك. تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

هـ - رفض تكييف الصفات:

التكييف تعيين الكنه. يقال: كيَّف الشيء: أي جعل له كيفية معلومة[٢]

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية تأليف محمد خليل هراس. ط. دار الدعوة السلفية ط -١٤١٢هـ-١٩٩٢م. الإسكندرية ص٢١، ٢٢.

(٢) تقريب التدمرية ص٥١

والفرق بين التكييف والتمثيل:

أن التكييف: أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا. أو يسأل عنها بكيف.

وأما التمثيل: فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

وليس المراد من نفي التكييف نفي الكيف مطلقًا، فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما، وصفات الله ﷻ لها كيفية، ولكن لا تصل إليها عقولنا كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ولكن المراد من نفي الكيف نفي علمنا بالكيف، إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته ﷻ إلا هو سبحانه(١)

تفسير قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

واختلف في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ والمراد من

---

(١) شرح الواسطية لهراس ص٢٢ ، فلا يجوز أن نقول: إننا نثبت الصفات بلا كيف، ولكن نثبتها بكيفية لا نعلمها، لذا نقول: نثبتها من غير تكييف؛ أي نؤمن أن لها كيفًا يليق بالله سبحانه وتعالى ولا نكيفها بعقولنا.

بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمماثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب، فبهذه الحجة والبرهان القوي يتحطم كثير من البدع ويرغم بها أنوف طوائف من القاصرين المتكلمين، والمتكلفين المتأولين، ولا سيما إذا ضم إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي: وهو سميع لما ينطق به خلقه على اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم. البصير: الذي أحاط بصره بجميع المبصرات، فيرى النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة، وسريان الماء في الأغصان[(١)]

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة:

١- الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه.

٢- الرد على المعطلة وهم الذين ينفون الصفات كالجهمية.

---

(١) راجع (الأسئلة والأجوبة الأصولية) للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ص٥٢ ، ٥٣.

٣- الرد على المعتزلة ونحوهم ممن يثبتون الأسماء دون الصفات ويقولون: سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر.

٤- الرد على الأشاعرة، لأنهم يثبتون بعض الصفات[1]، ويؤولون ويحرفون البعض وهم متناقضون. وقد ضل بضلالهم الكثيرون.

٥- فيها إثبات السمع والبصر لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

٦- تنزيه الله عن مشابهة خلقه وأن صفاته ليست كصفات خلقه، بل هي صفات لائقة بجلاله وعظمته.

٧- تقديم النفي على الإثبات؛ لأن الأول من باب التخلية والثاني من باب التحلية.

٨- فيها نفي مجمل وإثبات مفصل، وهذا هدي أهل السنة أخذا من هذه الآية وغيرها.

٩- الرد على من زعموا أن السمع والبصر بمعنى العلم.

١٠- فيها دلالة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله ﷻ وأنها لكثرتها وعظمتها لم يكن فيها مثل، وإلا فلو أريد نفي

---

(١) مما يثبتون سبع صفات: الحياة - الكلام - البصر - السمع - الإرادة - العلم - القدرة.

الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح، فهذه الآية تدل على إثبات الصفات.

١١- فيها دليل لمن يفضل السمع على البصر(١)

١٢- الحث على مقام الإحسان(٢)

❑ والمحصلة أن:

مذهب السلف الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ والتسليم بها، وإجراؤها على ظاهرها، والإيمان بما جاء فيها على الوجه اللائق بجلال الله وكماله، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية مبينًا مذهب السلف:

«فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى. فإنه

---

(١) لذكر السمع قبل البصر في الآية.

(٢) الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. راجع في ذلك الأسئلة والأجوبة الأصولية: ص٥٣ ، ٥٤.

٤ – التمسك بفهم الصحابة للكتاب والسنة وعملهم بهما

يقوم المذهب السلفي على فهم الكتاب والسنة والعمل بهما وفق فهم الصحابة ﷺ لهما، لذا يتمسك السلفيون بما ورد عن الصحابة ويقتدون بهم في ذلك، ويرون فهمهم للكتاب والسنة أولى مِنْ فهم مَنْ دونهم.

والتمسك بهدي الصحابة ﷺ وعملهم مما تكلم فيه علماء السلف وبينوا حدوده وأحواله.

ففي الجوانب العقائدية:

ذهب السلف الصالح إلى اعتقاد ما ورد عن الصحابة ﷺ وإجماعهم على اعتقاده لا يحيدون عنه، لذا ففهم الصحابة ﷺ ومن أخذ عنهم للآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بعقائد الإسلام مما لا يقبل الخروج عنه عند أهل السنة والجماعة، ويقوي ذلك أن الصحابة ﷺ لا يعرف عنهم الاختلاف في أمور العقيدة(١) بل كانوا في ذلك على إجماع

---

(١) لم يختلف الصحابة في مسألة اعتقادية ينبني عليها عمل قط، لكن وقع بعض الاختلاف في أمور نظرية لا ينبني عليها عمل، مثاله:
=

واضح، يندر الخلاف فيه عنهم، وإنما خالفهم أهل البدع والأهواء ممن جاؤوا بعدهم، وبدلوا وغيروا، وظهر جليًّا خروجهم عن معتقد الصحابة ﷺ وأصولهم الإيمانية.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية في تزكية معتقد الصحابة وأصولهم الإيمانية ظاهرة الدلالة على ذلك. قال تعالى في حقهم ﷺ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال ﷺ: «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(١)

وقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

=

ما ورد عن اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ لربه ﷻ في ليلة الإسراء والمعراج، والاختلاف في أيهما خُلق أولًا العرش أم القلم.

(١) متفق عليه.

الْـمَهْدِيِّينَ من بَعْدِي، عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ»[(١)]

وقال ﷺ: «وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»[(٢)]

وقال ﷺ في الفرقة الناجية إنها على ما هو عليه ﷺ وأصحابه ﷺ.

فما أجمع عليه الصحابة في الاعتقاد المبني على فهم فهموا به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا يسع أحد عند أهل السنة والجماعة أن يخرج عنه وإلا صار بذلك من أهل الأهواء والبدع. ولهذا يحتج أهل السنة على أصحاب المذاهب المبتدعة بكونهم مخالفين لفهم الصحابة ﷺ للكتاب والسنة في أمور الاعتقاد. فإذا كان الإجماع في الدين حجة فأولى الإجماع إجماع الصحابة ﷺ. قال ابن كثير ﷺ في تفسير قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

«وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة ﷺ: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي. وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم.

إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها»[(١)]. اهـ.

** وفي تفسير القرآن وفهم معانيه:

فإن الصحابة ﷺ أعلم الناس بكتاب الله تعالى، لم يفتهم من آياته علمًا وعملًا شيء، وبلغوا في ذلك شأنًا لا يدركهم فيه من جاء بعدهم. لذا كان مقررًا عند السلف الصالح ومن سار على دربهم تقديم فهم الصحابة للقرآن الكريم على من سواهم ممن خالفهم في ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]: يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤/ ص٦٥ ط. المكتبة التوفيقية القاهرة.

(٢) من الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط. دار التراث القاهرة ج٤/ ص١٧٥، ١٧٦

وراجع في ذلك مقدمة في التفسير لابن تيمية.

يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة. وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ في أعيننا[(١)] وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين[(٢)]، وذلك أن الله قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] ، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم!

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلًا جدًّا، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال والخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد» ا.هـ.

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ.

من الإتقان في علوم القرآن للسيوطي[١]

ويقول ابن تيمية أيضًا[٢] : «فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في الآية تفسير، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين صار مشاركًا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا، وفي الجملة: من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيراتهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك بل مبتدعًا؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله». اهـ. بتلخيص السيوطي.

---

(١) من الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط. دار التراث القاهرة جـ٤/ ص١٧٥، ١٧٦

وراجع في ذلك مقدمة في التفسير لابن تيمية.

(٢) المصدر السابق: ص١٨٠

والمعتمد عند علماء أهل السنة والجماعة أن تفسير القرآن على مراتب أولها تفسير القرآن بالقرآن، حيث إن من الآيات القرآنية ما تبين ما أغمض أو أجمل أو أبهم في بعض آيات القرآن. وبعد ذلك تفسير القرآن بالسنة ففيما ورد عن النبي ﷺ بيان شاف لآيات القرآن، يلي ذلك ما ورد عن الصحابة ﷺ في تفسير آيات القرآن، ثم من بعدهم ممن أخذ عنهم من كبار التابعين.

** وفي الجوانب العملية من الدين:

فإن ما ورد عن الصحابة ﷺ من الآراء الفقهية والأحكام الدينية والأقوال الاجتهادية لها مكانتها عند السلف الصالح ومن تابعهم من بعدهم.

وذلك على مراتب وأحوال:

فما أجمع عليه الصحابة من الأحكام الفقهية فهو حجة ملزمة، فالإجماع حجة، وأقوى الإجماع إجماع الصحابة، لذا فهناك إجماع على حجيته. فـ«لم يتفق الفقهاء على إجماع إلا إجماع الصحابة، فإن إجماعهم في الأحكام الشرعية ثبت بالتواتر، ولذلك لم يختلف في إجماعهم أحد، حتى الذين يستبعدون حدوث الإجماع سلموا بإجماع الصحابة»[1]

أما ما اختلفوا فيه من الأحكام الفقهية وتعددت الآراء المنقولة عنهم فيها فكان السلف يتتبعون أقوالهم فيأخذون قولًا منها يعملون به، حتى ذهب البعض إلى منع الخروج عن مجموع ما ورد عنهم من الأقوال، «فإذا كان قد أثر عن بعضهم رأي وأثر عن البعض الآخر رأي يخالفه، فالخروج عن مجموع

---

(١) أصول الفقه لمحمد أبي زهرة ط. دار الفكر العربي القاهرة ص: ١٦٧، ١٦٨

آرائهم خروج عن جمعهم»[١]

«هذا وإن المأثور عن الأئمة الأربعة أنهم كانوا يتبعون أقوال الصحابة ولا يخرجون عنها، فأبو حنيفة يقول: «إذا لم أجد في كتاب الله تعالى أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت، وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم». ولقد قاله الشافعي في الرسالة برواية الربيع وهي من كتابه الجديد[٢]: «ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحد منهم - أي الصحابة - مرة ويتركونه أخرى، ويتفرقون في بعض ما أخذوا منهم، قال: - أي مناظره - فإلى أي شيء صرت من هذا؟ قلت: اتباع قول واحدهم إذا لم أجد كتابًا ولا سنة ولا إجماعًا ولا شيئًا في معناه يحكم».

ويقول في كتابه «الأم» برواية الربيع أيضًا وهو كتابه الجديد[٣]: «إن لم يكن في الكتاب والسنة صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ، أو واحد منهم، ثم كان قول أبي بكر

---

(١) أصول الفقه لأبي زهرة ص: ١٦٩ نقلًا من المصدر السابق ص:١٧٠

(٢) أي مذهبه الجديد. وانظر الأم جـ٧/ ص٢٤٧

(٣) المصدر السابق.

وعمر[(١)] أو عثمان إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب إلينا، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة لنتبع القول الذي معه الدلالة».

وإن هذا يدل على أنه يأخذ بالكتاب والسنة، ثم ما يجمع عليه الصحابة ، وما يختلفون فيه يقدم من أقوالهم أقواها اتصالًا بالكتاب والسنة، فإن لم يستبن له أقواها اتصالًا بهما اتبع ما عمل به الأئمة الراشدون رضوان الله تبارك وتعالى عنهم؛ لأن قول الأئمة مشهور وتكون أقوالهم ممحصة عادة. وكذلك الإمام مالك ﷺ، فإن الموطأ كثير من أحكامه يعتمد على فتوى الصحابة، ومثله الإمام أحمد»[(٢)]

ولقد قال ابن القيم[(٣)] في بيان أن آراء الصحابة أقرب إلى الكتاب والسنة من آراء من جاؤوا بعدهم:

«إن الصحابي إذا قال قولًا، أو حكم بحكم، أو أفتى بفتيا فله مدارك ينفرد بها عنا، ومدارك نشاركه، فأما ما يختص به

---

(١) وفي الحديث : «اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر».

(٢) أصول الفقه لأبي زهرة: ص١٧٠ ، ١٧١

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم جـ١/٢٤٨ط. الشيخ منير الدمشقي.

فيجوز أن يكون سمعه من النبي ﷺ شفاهًا، أو من صحابي آخر عن رسول الله ﷺ، وإن ما انفردوا به عن العلم عنا أكثر من أن يحاط به، فلم يرو كُلٌّ منهم كُلَّ ما سمع. وأين ما سمعه الصديق والفاروق وغيرهما من كبار الصحابة إلى ما رووه؟ فلم يرو عن صديق الأمة مائة حديث، ولم يغب عن النبي ﷺ في شيء من مشاهده، بل صحبه من حيث بعث، بل قبل البعث إلى أن توفي، وكان أعلم الأمة به ﷺ وبقوله وبفعله، وهديه وسيرته، وكذلك أجلة الصحابة رواياتهم قليلة جدًّا بالنسبة إلى ما سمعوه من نبيهم وشاهدوه، ولو رووا كل ما سمعوه وشاهدوه لزادوا على رواية أبي هريرة أضعافًا مضعفة، فإنما صحبه نحو أربع سنين. وقد روى عنه الكثير، فقول القائل: لو كان عند الصحابي في هذه الواقعة شيء لذكره، قول من لم يعرف سيرة القوم وأحوالهم، فإنهم كانوا يهابون الرواية ويعظمونها ويقللون منها خوف الزيادة والنقص، ويحدثون بالشيء الذي سمعوه من النبي ﷺ مرارًا، ولا يصرحون بالسماع ولا يقولون: قال رسول الله ﷺ. فتلك الفتوى التي يفتى بها الصحابي لا تخرج عن ستة وجوه:

أحدها: أن يكون سمعها من النبي ﷺ.

الثاني: أن يكون سمعها ممن سمعها من النبي ﷺ.

الثالث: أن يكون فهمها من آية من كتاب الله فهمًا خفي علينا.

الرابع: أن يكون قد اتفق عليه ملؤهم ولم ينقل إلينا إلا قول المفتي وحده.

الخامس: أن يكون رأيه لكمال علمه باللغة دلالة اللفظ على الوجه الذي انفرد به عنا، أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب أو لمجموع أمور فهمها على طول الزمان من رؤية النبي ﷺ ومشاهدة أفعاله وأحواله، وسيرته وسماع كلامه والعلم بمقاصده وشهود تنزيل الوحي ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون فهم ما لم نفهمه نحن، وعلى هذه التقارير الخمسة تكون فتواه حجة علينا.

السادس: أن يكون فهم ما لم يروه عن النبي ﷺ، وأخطأ في فهمه، وعلى هذا التقرير لا يكون قوله حجة ومعلوم قطعًا أن وقوع احتمال من خمسة أغلب على الظن من وقوع احتمال واحد معين، هذا مما لا يشك فيه عاقل، ولذلك يفيد ظنًّا غالبًا قويًّا على الصواب في قوله ﷺ وليس المطلوب إلا الظن الغالب والعمل به متعين ويكفي العارف هذا الوجه»[١]

---

(١) أصول الفقه لأبي زهرة: ص١٦٩، ١٧٠

والصحابة على علمهم ليسوا بمعصومين كأفراد - وإن كان إجماعهم معصومًا- فإذا كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة فأولى الأمة بذلك جيل الصحابة. أما الواحد منهم فليس معصومًا من الخطأ في الاجتهاد، فيرد خطؤه إن تبين بطلانه، ويعذر في ذلك، ويبقى الاتباع للكتاب والسنة.

يقول شارح الطحاوية في بيان حال السلف تجاه ما ثبت خطؤه من أقوال أحد الصحابة: «ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له في تركه من عذر، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلكم المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان يخفى علينا».اهـ[1]

ويشهد لفضل الصحابة وتقدمهم على من سواهم:

١- أنهم أعلم الأمة بكتاب الله حفظًا وتلاوة وتفسيرًا إذ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٣٧ط.أحمد شاكر. وانظر (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

أخذوه من فم النبي ﷺ مباشرة، وبين لهم ﷺ معانيه وهم أعلم الأمة بلغة القرآن، وبأسباب ومناسبات نزول آياته لم يغب عنهم منه شيء.

٢- أنهم أعلم الأمة بسنة النبي ﷺ وهديه، فهم حفظة أقواله ومشاهدو أعماله، والأعلم بمواطن إقراره، ويعرفون مناسبة كل منها، والناسخ منها والمنسوخ، والعام منها والخاص، والمقيد منها والمطلق.

٣- أنهم من أشد الناس تمسكًا بما أخذوه عن النبي ﷺ من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لا يفرقون في العمل بهديه ﷺ بين صغيرة وكبيرة، وقد ضربوا في اتباعه ﷺ وشدة حبهم لهديه وسنته أمثالًا رائعة لا مثيل لها، ولا يعرف أحد أشد حبًّا وشغفًا بمتابعة شخص كحب ومتابعة الصحابة للنبي ﷺ.

٤- أنهم أهل اجتهاد ونظر، لما ملكوا من وسائل الاجتهاد الكثيرة كالعلم بالكتاب والسنة، والإحاطة باللغة العربية، ورجاحة العقل والفراسة والفطنة، ومعرفة أسباب النزول، وعلل الأحكام، والقدرة العالية على الاستنباط والاستدلال من النصوص.

٥- أنهم أهل اللغة العربية، أحاطوا بها إحاطة تامة، علموا مشهورها وغريبها، وجليلها ودقيقها، وأساليبها البلاغية،

ومفهومها ودلائلها، لم يعرفوا لحن اللسان، ولم تلحقهم شوائب العجم.

٦- أنهم أهل صلاح وتقوى، وزهد وورع، وفراسة وكياسة، حريصون على الآخرة، معرضون عن الدنيا، فسهل عليهم الانقياد للحق، وانفتحت لهم أبواب الهدى والعلم، ولهم في ذلك باع ونصيب لا يلحقهم فيه من بعدهم.

والله تعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ويقول ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

٧- ما لهم من أعمال عظيمة في نصرة هذا الدين والجهاد في سبيله، وفي نشر هذه الدعوة وتعليمها للخلق جميعًا، حتى خرجوا بها في أرجاء المعمورة وبلغوها تامة كما أخذوها وتلقوها.

٨- شهادة الله تعالى لهم بالإيمان والصدق ورضاه عنهم والتوبة عليهم وإخبار النبي ﷺ عن فضيلتهم ومنزلتهم وخيريتهم وعدالتهم.

٩-الأحاديث الكثيرة الواردة في فضائل ومناقب الكثيرين منهم كالخلفاء الراشدين الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة المبشرين بالجنة، وأهل بدر، وأصحاب بيعة

- **الآيات القرآنية الواردة في فضل الصحابة ﷺ:**

وردت في ذلك آيات كثيرة من ذلك:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١٠٠].

ففي الآية رضا الله ﷻ عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم على ما هم عليه بإحسان ووعد لهم بدخول الجنات والخلود فيها.

٢- قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾

[الفتح: ١٨، ١٩].

ففيها رضا الله تعالى عن الصحابة الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية وكانوا ما يقرب من ألف وأربعمائة صحابي وإخباره ﷻ بما في قلوبهم من الصدق وبشرى لهم بتعجيل الخير لهم في الدنيا بالفتح القريب والمغانم الكثيرة إلى جانب ثواب الآخرة.

٣- قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ

رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح:٢٩].

والآية إخبار بوصف أصحاب النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، وبيان ما هم عليه من السمت الحسن والهدى القويم وشدة عبادتهم لله وإخلاصهم لله رجاء ثوابه ونصرتهم لنبيه ﷺ ووعد الله لهم بالمغفرة والأجر.

٤- قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧].

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك وقد خرج الصحابة ﷺ مع النبي ﷺ في حر شديد وجدب وعسر من الزاد والماء فأصابهم جهد شديد، فأخبر تعالى بتوبته عليهم ورحمته بهم.

٥- قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد: ١٠].

والفتح: فتح مكة عند جمهور المفسرين[(١)]، وفي الآية وعد من الله تعالى للمنفقين قبل الفتح وبعده مع تفاوت في تفاضل الجزاء، وفيها بيان ما ينتظر الصحابة المنفقين والمقاتلين مع النبي ﷺ من الثواب العظيم.

٦- قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٢، ٣].

في الآية أن النبي ﷺ ابتعثه الله ﷻ إلى الأميين وهم العرب رسولًا فعلمهم كتاب ربهم وطهرهم بعد أن كانوا على الضلال وبتلك النعمة تحققت الغاية من البعثة والرسالة. ثم تعدى الخير عن طريقهم إلى أمم أخرى دخلوا بعد ذلك في هذا الدين.

٧- قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

---

(١) وأورد الطبري في تفسيره القول الآخر وهو يفيد أن المراد بالفتح صلح الحديبية وهو الراجح.

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:٨-١٠].

في الآية مدح عظيم وفضل كبير لصحابة النبي ﷺ. وفيها شهادة للمهاجرين أنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ بأعمالهم ونصرتهم لهذا الدين. ووصفهم بأنهم ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وفيها شهادة للأنصار بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم وأنهم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

ثم ثناء على كل من جاء بعدهم وقد استغفر ودعا لهؤلاء السابقين ونقى قلبه من الغل لهم.

٨- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

والآية فيها ثناء وتقديم للمهاجرين من صحابة النبي ﷺ والشهادة لهم بصدق الإيمان والإخلاص في الجهاد ونصرة الله ﷻ. ووعد لهم بالمغفرة للذنوب والرزق الكريم في الآخرة.

٩- قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨].

في الآية أمر من الله لنبيه ﷺ أن يخبر الناس أنه ومن اتبعه من صحابته إنما يدعون إلى الله وحده على علم ويقين بما يدعون به وأنهم ينزهون الله تعالى عن الند والشريك والبراءة من الشرك والمشركين.

والصحابة ﷺ هم أول من خاطبهم الله تعالى ووجه الثناء إليهم من هذه الأمة، فوصفهم أنهم الأحق بكلمة التقوى وهم أهلها، وناداهم بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾، وجعلهم ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾وأخبر أنه لا يخزيهم يوم القيامة بل يجعل لهم نورًا، وأثبت لهم الخيرية على سائر الأمم، وأثبت عدالتهم والآيات في ذلك كثيرة جدًّا منها:

١- قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

والصحابة أول الداخلين في هذه الآية وهي عامة في كل المؤمنين.

٢- وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠] وفيها إثبات الخيرية لهذه الأمة على سائر الأمم، وأحق الأمة بهذا الوصف هم صحابة النبي ﷺ وهم أول من

خوطب بها.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾[التحريم: ٨].

٣- فتضمنت تأمين الله تعالى لصحابة النبي ﷺ من خزي يوم القيامة.

٤- قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة: ١٣٤]. وفيها عدالة هذه الأمة وشهادتها على سائر الناس، وأحق الأمة بها هم صحابة النبي ﷺ.

٥- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾[الجمعة: ٩].

وأول من خوطب بهذه الآية ووصف بالإيمان والاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ هم صحابة النبي ﷺ.

٦- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[البقرة: ١٨٣].

والصحابة هم المنادون بهذا النداء الإيماني.

- **الأحاديث النبوية في فضل الصحابة ﷺ:**

والأحاديث في ذلك أيضًا كثيرة منها:

١- روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سُئِلَ

رسول الله ﷺ: أَيُّ الناس خَيْرٌ؟ قال «**قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يجيء قَوْمٌ تَبْدُرُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَتَبْدُرُ يَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»(١)

٢- وفي الصحيحين عن عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». قَالَ عِمْرَانُ: فَلاَ أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً(٢)

٣- وعند مسلم عن عائشة ﷺ قالت: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثُ**»(٣)

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لَا تَسُبُّوا**

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم.

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم.

(٣) ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم.

أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ »(رواه مسلم)[١]

٥- وفي الصحيحين عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ، أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »[٢]

٦- وعند مسلم مرفوعًا[٣] « لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ».

٧- وفي حديث العرباض بن سارية ﷺ أن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[٤]

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سبِّ الصحابة ﷺ.

(٢) رواه البخاري في المغازي، باب غزوة الفتح، وفي التفسير، وفي الأدب وفي الجهاد. ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان.

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح. ورواه ابن ماجه، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

٨- وعن أبي بردة عن أبيه ﷺ قال: صَلَّيْنَا الْـمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ، فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ « مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا ؟ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ الله صَلَّيْنَا مَعَكَ الْـمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: « أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ ». قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ - وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ - فَقَالَ «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ » (رواه مسلم)[١]

الأمنة: الأمن والأمان.

وفيه أن ذهاب الصحابة ﷺ وانقضاء جيلهم يعقبه ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن، وقد كان، وهذه كلها من دلائل صدق نبوته ﷺ .

٩- وفي الصحيحين عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يَأْتِي زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِن النَّاسِ، فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه.

ﷺ ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَـهُم، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ صَاحِبَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فَيُقَالُ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ لَـهُم» (١)

١٠- وعند مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» (٢)

١١- وعن واثلة رضي الله عنه مرفوعًا: «لاَ تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَآنِي وَصَاحَبَنِي، وَاللهِ لاَ تَزَالُونَ بِخَيْرٍ ، مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ وفي الجهاد، وفي الأنبياء. ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

١٥- عن أنس بن مالك ﷺ قال: أُنزِلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]. مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الأَرْضِ» ثُمَّ قَرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: هَنِيئًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ الله، قَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ مَاذَا يُفْعَلُ بِكَ، فَمَاذَا يُفْعَلُ بِنَا؟ فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ ﷺ: ﴿ لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٥][1]

- **من أقوال السلف في فضل الصحابة ﷺ:**

١- عن ابن مسعود ﷺ قال: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ

=

عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» مروية عن أنس عند الطبراني في الصغير وفي سندها مقال، وعن ابن عمرو عند الترمذي وفيها ضعف، ورويت عن أبي أمامة وأبي الدرداء وواثلة بن الأسقع وهي زيادة حسنة.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (غزوة الحديبية) وانظر تفسير ابن كثير لسورة الفتح جـ٣ ص ١٨٣ ط. المكتبة التوفيقية.

فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند الله سيئ»(١)

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة- يعني مع النبي ﷺ - خير من عمل أحدكم عمره»(٢)

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة - يعني مع النبي ﷺ - خير من عمل أربعين سنة». وفي رواية: «خير من عبادة أحدكم عمره»(٣)

٤- وعن ابن عباس أيضًا: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فإن الله قد أمر بالاستغفار لهم، وقد علم أنهم سيقتتلون»(٣)

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أُمروا بالاستغفار لأصحاب

---

(١) رواه أحمد والطيالسي في مسنده وابن الأعرابي في معجمه. وهو صحيح موقوفًا. وانظر السلسلة الضعيفة والموضوعة رقم (٥٣٣) للألباني.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه وابن ماجه وابن أبي عاصم في السنة.

(٣) رواه أحمد.

محمد ﷺ فسبُّوهم»(١).

٦- وقيل لها: إن أناسًا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر. فقالت رضي الله عنها: وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر.

٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة قلوبًا، وأعمقهم علمًا، وأقلهم تكلفًا، اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ونقل دينه».

٨- وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: «والله لمشهد رجل منهم -يعني الصحابة- مع رسول الله ﷺ يغبر منه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عَمَّرَ عُمْرَ نوح». ثم قال - يتوعد من يبغضهم أو يسبهم: «لا جرم لما انقطعت أعمارهم أراد الله أن لا ينقطع الأجر عنهم إلى يوم القيامة، والشقي من أبغضهم والسعيد من أحبهم»(٢).

- **رأي المتكلمين في صحابة النبي ﷺ:**

ذهب المتكلمون إلى تقديم منهجهم وطريقتهم على منهج

---

(١) رواه مسلم، وابن أبي عاصم في السنة، وابن أبي شيبة، والهيثمي في مجمع الزوائد من رواية الطبراني.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود.

وطريقة الصحابة ورأوا أن الصحابة لم يحيطوا بأمهات أصول الدين[١]، وزعموا أن الصحابة انشغلوا بالجهاد في سبيل الله

---

(١) ليس تقسيم الدين إلى فروع وأصول تقسيمًا شرعيًّا، ويراد بالفروع الأحكام الفقهية، وبالأصول مسائل العقائد والتوحيد، فهذا تقسيم محدث، دأب عليه المتكلمون، ومن ثم جعلوا الكتاب والسنة للأحكام الفرعية الفقهية، والأدلة العقلية الكلامية لمسائل الأصول. ومن ثم قيل بالعذر بالجهل في الأحكام الفرعية وعدم العذر في بمسائل الأصول ومنع التقليد فيها. والشرع لا يعرف التقسيم الاصطلاحي عند المتكلمين وغيرهم، ولكن جرى به العمل بين العلماء من المتأخرين.

ولا بد أن ننتبه إلى أن التقسيم نوعان:

أ- تقسيم شرعي وهو الذي تبنى عليه أحكام كما قسم القرآن الذنوب إلى شرك وما دون ذلك في قوله تعالى. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقسم النبي ﷺ الشرك إلى أصغر وأكبر بقوله: «**أَخْوَف مَا أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكُ الأَصْغَر**» - الرياء فإنكار هذا التقسيم ضلال، والتسوية بين أحكامه هو من فعل أهل البدع.

ب- تقسيم اصطلاحي وهو الذي استحدثه العلماء والمتأخرون كتقسيم العلوم إلى فقه وتوحيد وتفسير، ولا شك أنه حادث لكن إن لم يبن عليه حكم وكان غرضه البيان لم يضر، إذ لا مشاحة في

=

وإرساء قواعد هذا الدين وحمايته عن تعلم هذه المسائل الأصولية ودراستها.

يقول د. مصطفى حلمي: «لقد بحث المتكلمون ونقبوا في تاريخ الصحابة وأيامهم فلم يجدوا آثارًا تدل على خوض الصحابة فيها بنفس طريقتهم وتبويباتهم، فاستنتجوا أنهم لم يعرفوها كما تمادى المتكلمون بالطعن في الصحابة فزعموا أنهم كانوا مشغولين بالجهاد عن تناول أمهات أصول الدين !! وهذا خطأ جسيم وتفسير مقلوب إذ لا يمكن تفسير الانتصارات المذهلة للصحابة إلا في ضوء استجابتهم لعقيدة الإسلام وفهمها حق الفهم وتطبيقها عمليًّا[1]، فاجتذبوا

=

الاصطلاح. أما إذا بني على التقسيم حكم - كأن يقال: يعذر بالجهل في الفروع ولا يعذر في الأصول - أو يجب التقليد في العمل ويحرم في الاعتقاد ونحو ذلك فهذا هو البدعة المحدثة (وكتبه ياسر برهامي).

(١) وهذا هو الظن اللائق بهم، وعليه السنن الكونية فلا تمكين إلا لأهل الحق والإيمان بعد الصبر على البلاء والأخذ بالأسباب في نصرة الدين. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ
=

غيرهم من الشعوب ذات الحضارة العريقة، فكان الصحابة في وضع الطلائع والصفوة الممتازة». اهـ[(١)] [(٢)]

يقول د. مصطفى حلمي: «فإن الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد كما يذكر بعض المتكلمين يحمل في طياته ذم الصحابة. ومؤداه أيضًا أن الرسول ﷺ بلغ قرآنًا لا يفهم معناه، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها، وأن جبريل كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك. وهذا الموقف كما يذكر ابن تيمية ضلال عظيم» .اهـ[(٣)]

وقد ذكر د. مصطفى حلمي بعض الأمثلة المروية عن

=

أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

(١) قواعد المنهج السلفي للدكتور مصطفى حلمي حفظه الله بتصرف: ص٣ . ومنهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين له ص٣٣.

(٢) الذي عليه أهل الحق أن الدين قد كمل قبل وفاته ﷺ وأن الصحابة أخذوه منه تامًّا، وطبقوه كاملًا، وبلغوه لمن بعدهم وافيًا أما أهل البدع من المتكلمين فيرون أن الدين كمل وتم على أيديهم فهم الذين هدوا الناس إلى الصواب في مسائل أصول الدين!!!

(٣) قواعد المنهج السلفي: ص١٨١ وانظر شرح ابن تيمية لحديث النزول، وتفسيره لسورة الإخلاص، ومقدمة الفتوى الحموية الكبرى.

الصحابة تدل على عمق فهمهم وإحاطتهم بأصول هذا الدين وعقائده[١]، وإن لم يتكلموا فيها بطريقة واصطلاحات الفلاسفة والمتكلمين؛ لأن هذه الاصطلاحات الكلامية لم تعرف في عهدهم ولم تثر كما أثيرت بعد ذلك على أيدي أهل البدع والأهواء من المتكلمين.

فمن أمثلة ذلك:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان مرة في جنازة، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: «اللهم رب القرآن اغفر له». فوثب ابن عباس إليه فقال: «القرآن منه»، وفي رواية: «القرآن كلام الله وليس بمربوب منه خرج وإليه يعود».

٢- وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان يقول: «أقول برأيي فإن كان صوابًا فمن الله وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان».

٣- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أُتي برجل قد سرق فسئل

---

(١) قواعد المنهج السلفي: ص٤٢-٤٥.

ولا شك أن النبي ﷺ وضح لأصحابه حقائق الدين ولم يترك شيئًا إلا وبينه لهم سواء من الأمور الماضية كبدء الخلق، أو الأمور الغيبية كالملائكة وأحوال الآخرة، وما كان الصحابة ليتأخروا عن تعلم أمور دينهم خاصة العقائدية.

عن فعلته فاحتج بالقضاء والقدر على معصيته، فقال: «قضى الله عليَّ». فأمر عمر بقطع يده وضربه أسواطًا. وقال: «القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله».

٤- وعن عثمان بن عفان ﷺ أنه لما حاصره الثوار في بيته رموه قائلين: «الله يرميك»، فقال: «كذبتم لو رماني ما أخطأني».

٥- وعندما اعترض الخوارج على علي بن أبي طالب؛ لأنه حكم الحكمين بعد موقعة صفين: قالوا له: «حكمت رجلين؟» قال: ما حكمت مخلوقًا إنما حكمت القرآن[1] وفي إجابته أنه ما حكم إلا القرآن ونفى أنه مخلوق.

٦- وعن ابن مسعود أنه قال: «من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين» وفيه أن القرآن ليس بمخلوق، لذا جعل كفارة اليمين عن كل آية فيه. ولا يجوز الحلف بالمخلوق.

٧- وسئل ابن عمر عن مرتكبي معاصٍ يزعمون أن ذلك

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين: د. مصطفى حلمي ط. دار الدعوة ص١٨ نقلًا عن فتاوى ابن تيمية تحقيق حسنين محمد مخلوف جـ٥ / ص٥٦.

بعلم الله تعالى فغضب وقال: «سبحان الله العظيم قد كان ذلك في علمه أنهم يفعلونها ولم يحملهم علم الله على فعلها»[(١)]

❊ ❊ ❊

(١) المرجع السابق: ص١٩ نقلًا عن (فرق وطبقات المعتزلة) للقاضي عبد الجبار ص ٢٦ ط. دار المطبوعات الإسكندرية. تحقيق د. النشار وعصام الدين محمد علي.

علم الكلام

عرف ابن خلدون علم الكلام بأنه: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[(١)]

وينسب تنظيم علم الكلام وتبويبه وتفريعه إلى المعتزلة؛ لأنهم أول من فعل ذلك، ففي زمن (عمرو بن عبيد) تكلموا في الوعد وإنكار القدر. ثم جاء بعده (العلّاف) و (النظّام) وأشباههم من أهل الكلام فنفوا الصفات الإلهية[(٢)]

واختلف في سبب تسميته (علم الكلام): فقيل: إما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست راجعة إلى عمل، أو لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي وتمييزًا له عن الفقه؛ لأن الفقه عمل[(٣)]

---

(١) قواعد المنهج السلفي: ص٧٢، ومنهج علماء الحديث والسنة: ص٧٣ – ٨٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٧٢.

ابن خلدون: توفي عام ٨٠٨هـ الموافق ١٤٠٥م.

أهم موضوعات علم الكلام:

١- الرد على الدهرية القائلين بقدم العالم: وذلك بالبرهنة على أن لهذا العالم خالقًا هو الله تعالى[(١)]

٢- تنزيه الله تعالى: بالرد على النصارى القائلين بالتثليث[(٢)]، والرد على اليهود في تشبيه صفات الخالق بالمخلوقين، والرد

=

عمرو بن عبيد: توفي عام ١١٤هـ الموافق ٧٦١م.

(١) وهذا هو توحيد الربوبية وهو الغاية الكبرى عند علماء الكلام والفلسفة وتوحيد الربوبية وحده لا يكفى في الإسلام حتى يكون معه توحيد الألوهية - بإفراد الله بالعبادة - وتوحيد الأسماء والصفات بإفراد الله تعالى في أسمائه وصفاته ووصفه بما وصف به نفسه في كتابه وسنة نبيه ﷺ بلا تشبيه أو تمثيل أو تأويل أو تعطيل أو نفي.

(٢) يقول ابن تيمية: «وكثير من المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون أنه يعلم بالعقل من تثليث النصارى ومثل تكذيب محمد ﷺ ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين، وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريق القرآن، فإن الله يبين في القرآن ما خالفوا به الأنبياء، ويذمهم على ذلك، والقرآن مملوء من ذلك، إذ كان الكفر والإيمان يتعلق بالرسالة والنبوة، فإذا تبين ما خالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم». ا.هـ. معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ...ص٢٣

على المجوس القائلين بإله للنور وإله للظلام.

٣- إثبات الصفات الواجبة لله: القادر، العالم، الحي، القيوم، الواحد. والرد على نفاتها.

٤- الكلام في رؤية الله ﷻ في الجنة.

٥- الكلام في كلام الله مخلوق أو غير مخلوق.

٦- الكلام في أفعال العباد: مخلوقة أم غير مخلوقة، وهل الاستطاعة قبل الفعل أم معه.

٧- الكلام في حكم مرتكب الكبيرة هل يكفر بها أم لا

٨- الكلام في إثبات النبوات عامة (للرد على نفاتها من البراهمة)، وإثبات نبوة محمد ﷺ خاصة.

٩- الكلام عن الإمامة العظمى: من يصلح لها، وهل تتم بأهل الحل والعقد أم أنها تتم بالنص.

▢ حجج المتكلمين في الدفاع عن منهجهم العقلي:

من حجج المتكلمين في الدفاع عن منهجهم العقلي:

١- أن علم الكلام ظهر في زمن تابعي التابعين، ودُوِّن في الكتب، واشتهر بلا نكير، مما يفهم منه استحسانهم له، فهو إذا من البدع الحسنة، ولم لا؟ فبه الرد على الشبهات، وتقوية وتثبيت أقدام الموحدين.

٢- أن الأدلة العقلية لازمة لبيان صحة الحقائق الدينية ولا بد من البراهين العقلية ليكون التعريف بالحق صحيحًا.

٣- أن القرآن الكريم ذم التقليد والمقلدين في آيات كثيرة، وحث على النظر والاستدلال، ولا يكون ترك التقليد ولا يكون النظر والاستدلال إلا باستعمال العقل.

٤- أن أهل الحديث لما انصرفوا عن الاستدلال بالعقل صاروا عاجزين عن مجاراة أعداء الدين من المتكلمين والسبب قلة بضاعتهم في علم الكلام.

٥- أن الأمر بمجادلة أعداء الدين جاء في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] والخطاب لكل الأمة كما هو للنبي ﷺ، ولا يأتي الجدل إلا بدراسة علم الكلام واستخدامه.

٦- أن تعلم علم الكلام ودراسته أقل أحواله أنه فرض كفاية على الأمة ليكون فيها من يقدر على دفع شبه أعداء الدين والمبتدعين من أهل الكلام بمنهجهم وطريقتهم. قال الإمام الغزالي في الإحياء:

«فاعلم أن الحق: أنه لابد في كل بلد من قائم بهذا العلم[1]

---

(١) أي علم الكلام.

مستقل، يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا من الدواء، والفقه من الغذاء، وضرر الغذاء لا يحذر، وضرر الدواء محذور». اهـ[١]

وقد أجيب على تلك الادعاءات بأجوبة ملخصها[٢]:

١- أن السلف الصالح لم يمارسوا علم الكلام بل تركوا دراسته، والآثار عن الأئمة التي تشهد بذلك كثيرة. وإنما شجع الناس على ترجمة كتب الفلسفة وعلم الكلام عن اليونانية الخلفاء والحكام الذين استمالتهم مذاهب أهل البدع، أما العلماء والأئمة فأعرضوا عن ذلك كله، وليس في

(١) من رسالة (فصل الكلام في ذم علم الكلام) إعداد يحيى مختار غزاوي ط. المدينة للتوزيع مؤسسة الريان بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ص٢٣ ، ٢٤. نقلًا عن الغزالي في الإحياء. وانظر مفاتيح الغيب للرازي ط. دار الغد العربي المجلد الأول ص٤٧٧ - ٤٧٩ حيث استدل على الفرضية بورود ذم التقليد والأمر بالنظر العقلي والمجادلة بالتي هي أحسن وإن هذا لا يتأتى إلا بعلم الكلام فوجب على الأمة بذلك وانظر مقدمة المستصفى في الأصول للغزالي.

(٢) راجع في ذلك قواعد المنهج السلفي: ص٦٨ - ٨٦.

الدين بدعة حسنة وما لم يكن في عهد النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من الدين فلا يكون من بعدهم دينًا، وقد أكمل الله لنا الدين قبل أن تعرف الأمة علم الكلام. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣].

٢- أن عقل الإنسان ليس له أن يوجب شيئًا أو يحرمه، وليس له حق التشريع من دون الله تعالى، وإنما مرد التحليل والتحريم إلى الشرع، وعلى ذلك الحجة والحساب. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فلو كانت الحجة تلزم بالعقل فقط لم يكن بعث الرسل شرطا لاستحقاق العقوبة الأخروية.

٣- أن منهج السلف مبني على الاتباع لا التقليد، وشتان ما بين الحالين:

فالتقليد: أخذ قول الغير بلا حجة.

والاتباع: السير على منهاج الرسول ﷺ ومتابعته بعد قيام الأدلة اليقينية على صدق نبوته، وهو المبلغ عن الله، والموحى إليه منه.

أما أهل الكلام فمعلوم عنهم أنهم لا يجتمعون على رأي واحد في مسألة، فهم دائمو الاختلاف، ينقض بعضهم أقوال بعض، ويطعن بعضهم في أقوال بعض، حتى أنه قد صرح أذكياؤهم أنهم لم يحصلوا غايتهم من علم الكلام بعد طول بحث وتنقيب.

٤- أما العيب على أهل الحديث بعدم القدرة على مجاراة المتكلمين ومجادلتهم، فلا يخفى أن القدرة على الحجاج والمجادلة والمماراة ليست من الأمور الممدوحة، خاصة أمام نصوص الكتاب والسنة، التي بينت لنا كل ما نحتاج إليه من أصول الدين وفروعه. وقد جاء الشرع بذم الجدل والمماراة.

ولو أراد الصحابة - ومن بعدهم أهل الحديث - الخوض في علم الكلام والجدل والمماراة لطلبوه وخاضوا فيه واشتغلوا به، ولكنهم قد استغنوا بما عندهم من الحق عنه.

وحوارات الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مع أقوامهم كما أوردها القرآن الكريم بعيدة كل البعد عن الجدل الفلسفي وأساليب علماء الكلام، وكذلك سنة النبي ﷺ، ومعلوم من أخبار رسل النبي ﷺ إلى هرقل والمقوقس وكسرى وغيرهم من الملوك والحكام كانت تقتصر على الدعوة إلى دين الله دون جدل فلسفي أو خوض فيه، فعلم بذلك أن

الجدل والخوض فيه لا خير من ورائه.

٥- أما الأمر القرآني بمجادلة أعداء الإسلام بالتي هي أحسن فليس المراد به المجادلة بعلم الكلام وطرق المتكلمين وأقوال الفلاسفة، وهذا الأمر القرآني أمر مجمل ، وضحته وبينته سنة النبي ﷺ وسيرته في حواراته مع المشركين من العرب واليهود من أهل الكتاب والنصارى كوفد نجران ومراسلاته ﷺ للملوك والحكام، وكلها - كما هو معلوم - خالية من المجادلات الفلسفية والمناظرات الكلامية وإنما اقتصرت على بيان حقائق هذا الدين والدعوة إليه.

٦- أما ادعاء وجوبه وأنه فرض كفاية فهو باطل من وجوه[١]:

* منها: أن الكتاب والسنة فيهما الغنى عن علم الكلام والفلسفة فلا لوم على من تمسك بهما وأعرض عما سواهما. فكيف يقال فيه: إنه تارك لواجب.

وغاية ما يحصله المتكلمون موافقتهم للشرع في مواضع

---

(١)يراجع في ذلك: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: ص٢٨، ٢٩، الرد على المنطقيين لابن تيمية: ص١٤، ١٥، ص١٧٩، نقض المنطق: ص١٥٧

وصلوا إلى الحق فيها بطرقهم الكلامية وفي المقابل يخطئون في مواضع، ويختلفون في مواضع، وتتعدد أقوالهم، وتفترق عقائدهم، كما هو معلوم عنهم، فكيف يعد من تمسك بهدى القرآن والسنة مقصرًا، ومن خاض في مناهج المتكلمين موفقًا، وقد عرض نفسه للزلل.

* أن الأنبياء والرسل - وهم أكمل الخلق وصفوته - لم يكونوا من حكماء الفلاسفة أو حذاق المتكلمين، ولا يعرف هذا من سيرتهم، ولم يدعو إليه. فكيف يقال عندئذ بوجوبه؟

قد علمت أن الشرع ذم الجدل والمماراة، وأن السلف الصالح عابوا على المتكلمين وطعنوا فيهم(١)، فكيف يكون ذلك مع وجوبه على الأمة.

يقول ابن الصلاح رحمه الله: «المنطق مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدى به». اهـ(٢)

---

(١) وسنذكر طرفًا من ذلك بعد قليل إن شاء الله.

(٢) مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: ص٢٩ نقلا عن فتاوى ابن الصلاح ط. القاهرة ص٤٣، ١٣٤٨هـ، مناهج البحث عند مفكري =

ولذلك اشتهر بين المتأخرين قولهم: «من تمنطق فقد تزندق».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (نقض المنطق): «أما المنطق فمن قال: إنه فرض كفاية، وأن من ليس له به خبرة فليس له ثقة بشيء من علومه: فهذا القول غاية في الفساد»[(١)]

«بل الواقع قديمًا وحديثًا: أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه ويناظر به إلا وهو فاسد النظر والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق علم وبيانه»[(٢)]

«فأحسن ما يحمل عليه كلام المتكلم على هذا: أن يكون قد كان هو وأمثاله في غاية الجهل والضلالة، وقد فقدوا أسباب الهدى كلها، فلم يجدوا ما يردهم عن تلك الجهالات إلا بعض ما في المنطق من الأمور التي هي صحيحة، فإنه بسبب بعض ذلك رجع كثير من هؤلاء عن بعض باطلهم، وإن لم يحصل

=

الإسلام للدكتور علي النشار ص١٤٢ ط. دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٧م.

(١،٢) نقض المنطق لابن تيمية: ص١٥٥، ١٥٦

لهم حق ينفعهم، وإن وقعوا في باطل آخر.

ومع هذا فلا يصح نسبة وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه، إذ أن من هذه حاله فإنما أتي من نفسه بترك ما أمر الله به من الحق، حتى احتاج إلى الباطل. ومن المعلوم أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه. ونفس الحذاق منهم لا يلتزمون قوانينه في كل علومهم، بل يعرضون عنها إما لطولها وإما لعدم فائدتها وإما لفسادها، وإما لعدم تميزها وما فيها من الإجمال والاشتباه. فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل.

ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه ويذمون أهله وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله. حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا: أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا[1] مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر تبحرا في العلوم الكلامية والفلسفية

(١) كانت عكا وقتها في أيدي الإفرنج الصليبيين.

منه، وكان من أحسنهم إسلاما وأمثلهم اعتقادًا»[(١)]

«ومن المعلوم أن الأمور الدقيقة سواءً كانت حقًّا أو باطلًا، إيمانًا أو كفرًا، لا تعلم إلا بذكاء وفطنة. فكذلك أهله - أي أهل المنطق - قد يستجهلون من لم يشركهم في علمهم وإن كان إيمانه أحسن من إيمانهم إذا كان فيه قصور في الذكاء والبيان». ا.هـ. بتصرف[(٢)]

ويقول أيضًا رحمه الله[(٣)]: «وأيضا فالقرآن ليس فيه أنه قال: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة والجدل، بل قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥].

وذلك أن الإنسان له ثلاثة أحوال إما أن يعرف الحق ويعمل به. وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده. فصاحب الحال الأول هو الذي يدعى بالحكمة، فإن الحكمة

---

(١) مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: ص٣٦ - ٣٨ نقلًا عن ابن تيمية في الرد على المنطقيين: ص٤٦٧ - ٤٦٩، و ص٤٤٤ - ٤٤٧.

(٢) نقض المنطق لابن تيمية: ص١٥٥، ١٥٦

(٣) مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: ص٣٦ - ٣٨ نقلًا عن ابن تيمية في الرد على المنطقيين: ص٤٦٧ - ٤٦٩، و ص٤٤٤ - ٤٤٧.

هي العلم بالحق والعمل به، وليست الحكمة مما يقولون من حكمة نظرية وعملية هي بعينها الفلسفة. والنوع الثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه، فهذا يوعظ الموعظة الحسنة، فهاتان هما الطريقتان: الحكمة والموعظة الحسنة. وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا، فإن النفس لها أهواء تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته، فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وهذا.

وأما الجدل فلا يدعى به، بل هو من باب دفع الصائل، فإن عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن. وقال تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ولم يقل: بالحسنة، كما قال في الموعظة؛ لأن الجدال فيه موافقة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن، حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة. والمجادلة بعلم، كما أن الحكمة بعلم، وقد ذم الله من يجادل بغير علم في غير موضع في كتابه. والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلم بها الخصم إن لم تكن علمًا، فلو قدر أنه قال باطلًا لم يأمر الله تعالى أن يحتج عليهم بالباطل، والقرآن مقصوده بيان الحق ودعوة العباد إليه، وليس المقصود ذكر ما تناقضوا فيه من أقوالهم لتسجيل الخطأ عليهم» .اهـ.

□ أمثلة لاستفسار الصحابة ﭬ للنبي ﷺ في مسائل أصول الدين والأمور الغيبية ليتعلموها:

١- روى البخاري في كتاب (بدء الخلق) من صحيحه: (أن أناسًا من أهل اليمن من الصحابة سألوه ﷺ قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟ قال ﷺ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْـمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**».

٢- وروى البخاري أيضًا عن عائشة ﭭ: (أن الحارث ابن هشام ﭬ سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟...) الحديث.

٣- وفي كتاب الأنبياء من صحيح البخاري عن أنس ﭬ قال: (بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله...) الحديث.

٤- وفي كتاب (التوحيد) من صحيحه روى البخاري عن أبي هريرة ﭬ: (أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ...**» الحديث.

وروى فيه أيضًا عن عمران ﷺ أنه سأل النبي ﷺ: فيما يعمل العاملون ؟ فقال: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

والأحاديث في ذلك كثيرة، تدل على حرص الصحابة ﷺ على تعلم مسائل أصول الدين من النبي ﷺ، وتدل على أن النبي ﷺ لم ينههم عن ذلك أو يمنعهم منه، بل كان يجيبهم ويعلمهم ما يحتاجون إليه في دينهم من ذلك.

☐ بين أهل الحديث والمتكلمين:

في كتابه (نقض المنطق) بين شيخ الإسلام ابن تيمية بعضًا مما يميز أهل الحديث ويقدمهم في العلم والفضل على علماء المتكلمين: **فمن ذلك:**

١- يقول ابن تيمية رحمه الله: «من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم. فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقًا أخرى، مثل: المعقول والقياس والرأي، والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة، والمكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك.

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها، فهم أكمل الناس عقلًا، وأعدلهم قياسًا، وأصوبهم رأيًا، وأسدهم كلامًا، وأصحهم نظرًا، وأهداهم استدلالًا وأقومهم جدلًا،

وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهامًا، وأحدهم بصرًا ومكاشفة، وأصوبهم سمعًا ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجدًا وذوقًا. وهذا للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل». اهـ[(١)]

«وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوى الإدراك ويصححه. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ٦٦ - ٦٨). اهـ[(٢)]

ولهذا كان الذم لأهل البدع أكثر كلما زاد بعدهم ومخالفتهم للكتاب والسنة وأهل الحديث. وكلما قويت متابعتهم للكتاب والسنة قل ذمهم.

ولهذا كان أهل الحديث معظمين عند جميع طوائف الأمة، «وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوى كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى. وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع

---

(١) نقض المنطق لشيخ الإسلام ابن تيمية ط. مكتبة السنة المحمدية، القاهرة بتصحيح الشيخ محمد حامد الفقي: ص٧، ٨.

(٢) نقض المنطق: ص٨.

بحسب ذلك. مثل دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان» [(١)]، «وكان في أيام المتوكل قد أعز الإسلام حتى ألزم أهل الذمة بالشروط العمرية وألزموا الصغار، فعزت السنة والجماعة، وقمعت الجهمية والرافضة ونحوهم، وكذلك في أيام المعتضد والمهدي والقادر وغيرهم من الخلفاء الذين كانوا أحمد سيرة وأحسن طريقة من غيرهم، وكان الإسلام في زمانهم أعز، وكانت السنة بحسب ذلك» [(٢)]

«وفي دولة أبي العباس المأمون ظهر الخرمية ونحوهم من المنافقين، وعُرِّب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين، وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة» [(٣)]، «وكان من أثر ذلك ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة وغيرهم من أهل

---

(١) نقض المنطق: ص١١٨

(٢) نقض المنطق: ص١٢٠ والشروط العمرية: الشروط التي أخذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أهل الذمة عند فتح المسلمين للقدس.

(٣) المصدر السابق: ص١٩ والخرمية: أتباع بابك الخرمي الذي عاث في الأرض فسادًا بخراسان وغيرها. وقتل على يد المعتصم سنة ٢٢٣ هـ. انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ / ص٨٥.

الضلال وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة»، «حتى امتحنت الأمة بنفي الصفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته، وجرى من محنة الإمام أحمد وغيره ما جرى مما يطول وصفه»[١]

٢- قد يعاب على أهل الحديث بأنهم يحتجون أحيانًا بأحاديث ضعيفة أو موضوعة أو بآثار لا تصلح للاحتجاج أو أنهم لا يفهمون معنى الأحاديث الصحيحة. «والأمر راجع إلى شيئين: إما زيادة أقوال غير مفيدة تظن أنها مفيدة كالأحاديث الموضوعة وإما أقوال مفيدة لكنهم لا يفهمونها»[٢] «ولا ريب أن هذا موجود في بعضهم يحتجون بأحاديث موضوعة في مسائل الأصول والفروع وبآثار مفتعلة وحكايات غير صحيحة، ويذكرون من القرآن والحديث ما لا يفهمون معناه»[٣]

وهذا يقع إما على طريق الخطأ المغفور، أو منكرًا من القول وزورًا، وهذا على قلته فيهم، فهو في مخالفيهم أكثر بكثير

---

(١) نقض المنطق: ص١٩ ، ٢٠.

(٢) المصدر السابق: ص٢٢.

(٣) المصدر السابق: ص٢٢

(وبيان ذلك أن ما ذكر من فضول الكلام الذي لا يفيد - مع اعتقاد أنه طريق إلى التصور والتصديق - هو في أهل الكلام والمنطق أضعاف أضعاف أضعاف ما هو في أهل الحديث، فبإزاء احتجاج أولئك بالحديث الضعيف احتجاج هؤلاء بالحدود والأقيسة الكثيرة العقيمة التي لا تفيد معرفة، بل تفيد جهلًا وضلالًا، وبإزاء تكلم أولئك بأحاديث لا يفهمون معناها تكلف هؤلاء من القول بغير علم ما هو أعظم من ذلك وأكثر، وما أحسن قول الإمام أحمد: «ضعيف الحديث خير من رأي فلان»[١]. ا.هـ.

(ثم لأهل الحديث من المزية: أن ما يقولونه من الكلام الذي لا يفهمه بعضهم هو كلام في نفسه حق[٢]، وقد آمنوا بذلك، وأما المتكلمة فيتكلفون من القول ما لا يفهمونه ولا يعلمون أنه حق، وأهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف في نقض أصل عظيم من أصول الشريعة بل إما في تأييده، وإما في فرع من الفروع، وأولئك يحتجون بالحدود والمقاييس

---

(١) نقض المنطق: ص٢٣.

(٢) لأنه من كتاب الله وسنة النبي ﷺ.

الفاسدة في نقض الأصول الحقة الثابتة». ا هـ[١]

٣- «وإذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباع المرسلين، فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك: هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة في كل زمان ومكان»[٢]

وهم «يشاركون سائر الأمة فيما عندهم من أمور الرسالة، ويمتازون عنهم بما اختصوا به من العلم الموروث عن الرسول مما يجهله غيرهم أو يكذب به. لكن المعلوم من حيث الجملة: أن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بني آدم حشوًا وقولًا للباطل وتكذيبًا للحق في مسائلهم ودلائلهم، لا يكاد - والله أعلم - تخلو لهم مسألة واحدة عن ذلك»[٣]

٤- «أنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالًا من قول إلى قول، وجزمًا بالقول في موضع وجزمًا بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين»[٤]

---

(١) نقض المنطق: ص٢٣

(٢) نقض المنطق: ص٢٤

(٣) المصدر السابق: ص٢٤

(٤) المصدر السابق: ص٢٤

«وأما أهل السنة فما يعلم أحد من علمائهم، ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبرًا على ذلك وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذا حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة والصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة»(١)

«وبالجملة: فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة»(٢)، «والمقصود: أن ما عند عوام المؤمنين وعلمائهم أهل السنة والجماعة من المعرفة واليقين والطمأنينة، والجزم الحق والقول الثابت، والقطع بما هم عليه: أمر لا ينازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين»(٣)

٥- (وأيضًا تجد أهل الفلسفة والكلام، أعظم الناس افتراقًا واختلافًا، مع دعوى كل منهم أن الذي يقوله حق مقطوع به، قام عليه البرهان، وأهل السنة والحديث أعظم الناس اتفاقًا

---

(١) نقض المنطق: ص٢٤

(٢) المصدر السابق: ص٤٣

(٣) المصدر السابق: ص٤١

وائتلافًا)[١]

«ولست تجد اتفاقًا وائتلافًا إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث، وما يتبع ذلك، ولا تجد اختراقًا واختلافًا إلا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه»[٢]

«ولهذا لما كانت الفلاسفة أبعد عن اتباع الأنبياء كانوا أعظم اختلافًا، والخوارج والمعتزلة والروافض لما كانوا أبعد عن السنة والحديث كانوا أعظم افتراقًا في هذه، لا سيما الرافضة، فإنه يقال: إنهم أعظم الطوائف اختلافًا، وذلك لأنهم أبعد الطوائف عن السنة والجماعة بخلاف المعتزلة فإنهم أقرب إلى ذلك منهم، وكذلك الخوارج أقرب إلى ذلك منهم»[٣]

٦- «وأيضًا المخالفون لأهل الحديث: هم مظنة فساد الأعمال، إما عن سوء عقيدة ونفاق، وإما عن مرض في القلب وضعف إيمان ففيهم من ترك الواجبات واعتداء الحدود والاستخفاف بالحقوق وقسوة القلب ما هو ظاهر لكل أحد، وعامة شيوخهم يرمون بالعظائم، وإن كان فيهم من هو

---

(١) نقض المنطق: ص٤٣

(٢) نقض المنطق: ص٤٦

(٣) المصدر السابق: ص٤٦.

من عوام أهل الصناعة [١]، فضلًا عن خواصها، ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخاري ومسلمًا وأحاديثهما إلا بالسماع كما يذكر ذلك العامة، ولا يميزون بين الحديث الصحيح المتواتر عند أهل العلم بالحديث، وبين الحديث المفترى المكذوب، وكتبهم أصدق شاهد بذلك ففيها عجائب. وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعترف بذلك إما عند الموت وإما قبل الموت والحكايات في هذا كثيرة معروفة» [٢]

وأشهر مثال لذلك الإمام أبو الحسن الأشعري الذي عاش على الاعتزال أربعين عامًا ثم رجع عن ذلك إلى مذهب أهل الحديث وصنف كتابه (الإبانة)، وكذلك أبو حامد الغزالي المتبحر في الكلام والفلسفة والتصوف رجع إلى مذهب

---

(١) يقول الإمام الذهبي عن حجة الإسلام الغزالي (في سير أعلام النبلاء): ولم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية العاصية على العقل. والغزالي نفسه يقول في كتابه رسالة قانون التأويل: وبضاعتي في علم الحديث مزجاة أي قليلة. وانظر مقارنة بين الغزالي وابن تيمية للدكتور محمد رشاد سالم من (سلسلة زاد المسافرين وتنبيه الغافلين) هامش ص٨ .

(٢) نقض المنطق: ص٦٠

أهل الحديث وألف (إلجام العوام عن علم الكلام).

وكذلك عبارات الرازي في كتابه (أقسام اللذات) وفيها رجوعه عن الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية وقد ظهر له أنها لا تجدي.

«ثم إن من عجيب الأمر: أن هؤلاء المتكلمين المدَّعين لحقائق الأمور العلمية والدينية، والمخالفين للسنة والجماعة يحتج كل منهم بما يقع له من حديث موضوع، أو مجمل لا يفهم معناه، وكلما وجد أثرًا فيه إجمال نزله على رأيه»[1]

وبالجملة فـ (هم أبعد عن معرفة الحديث، وأبعد عن اتباعه من هؤلاء، هذا أمر محسوس، بل إذا كشفت أحوالهم وجدتهم من أجهل الناس بأقواله ﷺ وأحواله وبواطن أموره وظواهرها، حتى لتجد كثيرًا من العامة أعلم بذلك منهم، كذلك تجدهم لا يميزون بين ما قاله الرسول وما لم يقله بل لا يفرقون بين حديث متواتر عنه، وحديث مكذوب موضوع عليه، وإنما يعتمدون في موافقته على ما يوافق قولهم سواء كان موضوعا أو غير موضوع، فيعدلون إلى أحاديث يعلم خاصة الرسول بالضرورة اليقينية أنها مكذوبة عليه عن

(١) نقض المنطق: ص٦٩

أحاديث يعلم خاصته بالضرورة اليقينية أنها قوله، وهم لا يعلمون مراده»[(١)]

- **أسباب معارضة السلف للمتكلمين:**

يمكن تلخيصها في الآتي[(٢)]:

١- أن في الكتاب والسنة غنى عن أي وسائل أخرى لمعرفة عقائد الدين الإسلامي وقد كمل الدين بختام بعثة النبي ﷺ وقد بين ﷺ للأمة كل ما تحتاج إليه أتم البيان.

٢- خشية الفتنة في الدين بسبب استخدام مصطلحات المتكلمين التي لم ترد في الكتاب والسنة خاصة، وقد تسببت بالفعل في منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق على مدلولاتها وتراكيبها.

٣- عدم قدرة كل فرد على النظر في هذه العلوم والاجتهاد فيها، بينما يمكن لكل أحد الاقتداء بتشريعات الدين وأحكامه والرجوع إلى علماء الدين وفقهائه في الحوادث المتجددة للاستفصال عن حكم الدين فيها بأدلتها الشرعية.

---

(١) نقض المنطق: ص٨١، ٨٢.

(٢) لمزيد من البيان راجع (السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية) د. مصطفى حلمي ص٦٩ – ٧٤.

٤- علم الكلام لا يفيد الاشتغال به شيئًا جديدًا، فكل ما عدا الكتاب والسنة من فضول الكلام المضيع للوقت والجهد. ولو عكف المتكلمون على دراسة الكتاب والسنة لأدركوا ذلك وعرفوه(١).

٥- أن قضايا المتكلمين ومجادلاتهم ومسائلهم لا تظهر للأفهام كما أن قضايا الغيب المختص بشرحها وبيانها هم الأنبياء والرسل ويجب قبول ما جاؤوا به والتسليم به، ولا يصح جعل العقل بديلًا عن الرسل والأنبياء في تعريف هذه العقائد والغيبيات.

• طريقة السلف أسلم وأحوط وأعلم وأحكم:

ومن ميل المتكلمين ونصرتهم لمذهبهم تقديمهم لطريقتهم على طريقة السلف، فيقولون: طريقة السلف أسلم وأحوط، وطريقة المتكلمين أعلم وأحكم، فيجعلون المتأخرين من المتكلمين أحذق وأعلم من السلف، ويجعلون الفضل والعلم

---

(١) وصف ابن تيمية ﷺ من عاصره من المتكلمين بقوله: «وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا».

وقال أيضًا فيهم: (يسفسطون في المعقولات ويقرمطون في السمعيات). وانظر شرح حديث النزول ومجموع الفتاوى جـ٥ / ص٣٣، ص٤٤.

مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم». وقال غيره: «عليكم بآثار من سلف فإنهم جاؤوا بما يكفي وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه». ا هـ.

وقال: «وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته: هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا».ا هـ.

*** وبطلان ما ادعاه المتكلمون ظاهر من وجوه منها [(١)]:**

١- أن السلف هم الأعلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية حفظًا ودراية وفهمًا، والأكثر تمسكًا بما فيهما، لا يعرضون عن الكتاب أو السنة، ولا يرون الهدى إلا فيهما، ولا شك أن هداية القرآن والسنة فوق كل هداية لمن نالها وعمل بها.

٢- أن الرسول ﷺ أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق، وأقومهم قولًا وحالًا، ويلزم من ذلك بالقياس العقلي الصحيح عند كل سليم الفطرة أن يكون أعلم الناس بهديه واقتداءً به أن

(١) لمزيد من البيان، راجع: فتاوى ابن تيمية جـ١١ / ٣٦٦ - ٣٧٣.

يكون أفضل الخلق.

فإن قيل: في المنتسبين إلى السنة من به تفريط وعدوان. فالجواب: إن ذلك في غيرهم أكثر.

وهذه المخالفات سببها قلة المعرفة بالحديث والسنة، وقلة اتباع ذلك بالإضافة لـما مع المخالفين من نوع تحقيق لبعض العلم وإحسان لبعض العمل. وبالجملة فهم أرجح من غيرهم وإن وجد بعض التقصير.

٣- أن زعم أن الخلف أدركوا من حقائق الأمر الباطنة الغيبية في أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر، والأخلاق التي تزكو بها النفوس وتصلح، دون السلف الصالح هو جهل، فإن السلف أدركوا من ذلك كله النصيب الوافر. والنبي ﷺ بين لهم ذلك كله أتم بيان، محبة لإفادة ذلك، ولقدرته على البيان، وتبليغًا للرسالة، ولحرصه على هدايتهم. فيمتنع أن يكون عند غير علماء الحديث ما ليس عندهم من علم هذا كله.

وإذا لم يكن في الطوائف من هو أعلم بالحقائق وأبين لها منه، وجب أن يكون كل ما يُذَمُّونَ به من جهل بعضهم هو في طائفة الخلف الذام لهم أكثر.

٤- أن ادعاء انشغال الصحابة عن تعلم أصول دينهم بالجهاد والدعوة من لوازمه ذم الصحابة، وزعم أنهم لم يحيطوا علمًا بأصول دينهم، ونقلوا ما لم يفهموه فهمًا كاملًا، وأن النبي ﷺ بلغهم الكتاب ولم يبين لهم ما يحتاجون إليه في فهمه، ويلزم منه كذلك: أنهم نقلوا للتابعين علمًا لم يتقنوه، وأخذ عنهم التابعون علمًا غير كامل، ولم يستوعبوه، حتى خرج علماء الكلام فأظهروا ما كان خافيًا، وأكملوا ما كان ناقصًا، وأحاطوا بما كان غامضًا، وبينوا ما كان مستورًا، وكشفوا ما كان منسيًا، وهذا باطل قطعًا وإلا: كيف اجتمعت الأمة في عهد قرون الخيرية ولم تفترق، ثم ظهرت فيها الاختلافات في أصول الدين وعقائده بظهور المتكلمين، وكيف انتصر المسلمون الأوائل وتوسعوا في فتوحاتهم، وقصر من بعدهم عن تحصيل ما حصلوا من الفتوحات والانتصارات؟

«ولهذا فإن التاريخ يسجل الصلة العكسية بين ظهور الحضارة الإسلامية واتساع نفوذها وأثر إشعاعها وفتوحاتها وبين ظهور الفرق وانقسام صفوف المسلمين بين نحل

ومذاهب تتطاحن وتتناحر»[١]

٥- أن هذا يعني تفضيل القرون المفضولة على قرون الخيرية في العلم والمعرفة والبيان والاعتقاد.

❊❊❊

(١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين: ص٣٥.

بين العلمانية والسلفية

العلوم التي تُكَوِّنُ عقل الإنسان قسمان:

١- علوم بديهية (أو فطرية أو غريزية): وهي علوم تتميز بالصحة المطلقة، وهي عامة لدى كل الناس وإن تفاوتت في وضوحها بينهم.

٢- علوم مكتسبة: تتضمن المعارف المختلفة والقوانين الناتجة من الاستقراء.

وهذه العلوم يختلف الناس في اكتسابها والتيقن منها اختلافًا كبيرًا، لذا فهي معارف جزئية، وهي نسبية، تحقق البعض منها، فصارت عنده يقينًا خاصًا به، ولم ير غيرهم ثبوت تيقنها.

ومن الملاحظ هنا:

أن العلوم المكتسبة مأخوذة ومبنية على العلوم البديهية، وعليه فهي علوم مبنية على أسس ثابتة صحيحة [1] ولكن

---

(١) وبناءً على ذلك يرى أصحاب المذاهب العقلانية أن العقل بعلومه الفطرية والمكتسبة قادر على إيجاد منهج عقلي يوحد بين الناس جميعًا.

الواقع على خلاف ذلك، فهي تختلف وتتفاوت، فمنها ما يراه البعض صحيحًا ويرده آخرون، ويأخذ به البعض ويرفضه آخرون، وبالتالي لا تجتمع على العلوم المكتسبة كل عقول الناس[١].

ويعني هذا أنه ليس في العقل شيء ثابت، بل هو قابل للتغير وفق أنساق فكرية جديدة، فالعقل ليس قائمة متحجرة من المبادئ والتصورات تم إعطاؤها من قبل وبصفة نهائية كاملة، بل هو ظاهرة كباقي الظواهر الأخرى يصيبه ما يصيبها من تبدل وتحول وينطبق عليه ما ينطبق عليها من تاريخية وجدل[٢].

إن تقسيم المعقولات إلى ضرورية وكسبية يمكن ضبطه نظريًّا، ولكن في المجال العملي التطبيقي تتداخل هذه المعقولات فيما بينها، فتستولي فكرة معينة على عقل شخص وتترسخ عنده، فيعدها من المبادئ العقلية الأولية الضرورية،

(١) ولهذا لم ينجح المنهج العقلي في جمع شمل الناس جميعًا، بل اختلف أصحاب المنهج العقلي إلى فرق متعددة ومذاهب متضاربة يعادي بعضها بعضًا ويسفه بعضها بعضًا.

(٢) السلفية وقضايا العصر: ص١٦٥ نقلًا عن العقلانية المعاصرة لسالم يقوت ص٦٩

بل ويتصور منكرها لمبدأ أولي!! فالعقل مجموعة أفكار يحملها شخص ويتعامل على ضوئها.

والعقلانية ممارسة فكرية ليست ذات قيمة مطلقة واحدة ولكنها متنوعة متغيرة. «ولا ريب أن للعقل مبادئ كلية مشتركة بين جميع الناس لكن العقلانية – كما أسلفنا – ليست تحاكمًا إلى تلك المبادئ بقدر ما هي تحاكم إلى الأفكار المكتسبة التي يرى أصحابها أنها أقرب الأفكار إلى تلك المبادئ العقلية الصادقة، هذه الأفكار مكتسبة من ثقافة معينة»(١)

إن الفكر العقلاني ينبني إلى حد كبير على مفاهيم وقيم ومعارف مستمدة من الظروف الاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان ويتأثر بها، فليست العقلانية نمطًا للتفكير المجرد الذي يمكن تداوله بين مختلف الثقافات كما أن العلم التجريبي في تطور متواصل، ومن ثم اتساع في رؤيته للأشياء، فإن العقلانية المرتكزة عليه تفقد قيمتها وذلك أن ما تبنيه هذه العقلانية في مجال الفكر أو المناهج أو التصور للوجود والحياة في حالة تغير دائم وراء العلم المتجدد، وهذه التعددات والتغيرات تصبح مصدر تشكك وشقاء لا تبقى معه قيم أو

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص١٧١

منظورات أو اتجاهات يقينية[١].

العقلية التغريبية في مواجهة الدين:

يعمد المتأثرون بالتغريب، والآخذون بالعلمانية، إلى الدعوة إلى تحرير الرؤية العقلية من أي وصاية دينية، بزعم أن قيام العقلانية مرهون بتحطيم المرجعية الدينية والنص الديني، وهذه النظرية مبناها على محاولة إعادة تطبيق ما وقع في أوروبا مع مواجهة النصرانية المحرفة وإقصاء هيمنتها والقضاء على دورها في تسيير دفة الحياة والإسهام في صياغة أحداثها.

إن العقلانية الأوروبية قد انتهت إلى إحلال العقل محل الدين، وهذا دأب أوروبا في أكثر تاريخها الطويل. فالعقلانية اليونانية القديمة من قرون ما قبل الميلاد لم تكن تعرف الإيمان بدين، ولم تخضع لوحي سماوي، إنما عرفت الخضوع للعقل، والعقل وحده. ولما اعتنقت أوروبا الديانة النصرانية وحرفت نصوصها، عانت في تطورها العلمي الحديث من صراع مع الدين، وحسمت أمرها بإحلال العقل محل الدين ورفض النظرة التقديسية للنصوص القائمة على إيمان يقيني بأنها وحي من عند الله.

---

(١) راجع (السلفية وقضايا العصر): ص١٦٧ - ١٧٤

لقد عانى الفكر الغربي في سبيل زحزحة النظرة التقديسية للنص الديني والتحرر من قبضة تعاليم النصرانية، وقد ساعدت عوامل عديدة هذا الفكر العلماني في التخلص من سيطرة الكنيسة، منها: الاضطهاد الشديد الذي مارسته الكنيسة ضد العلم والعلماء، ومنها: ما أثير كثيرًا حول صحة إلهية الكتب النصرانية المقدسة، خاصة مع مخالفة المعارف الدينية المأخوذة عن الكنيسة عن الكون والإنسان لما كشفه العلم التجريبي الحديث. وكان لابد أن تتنحى الكنيسة المحرفة للدين، ولكن في غياب اهتداء أوروبا إلى الوحي الصحيح والدين الإسلامي القويم، صارت للعقل المكانة البارزة في قيادة الحضارة الأوروبية الحديثة.

وعندما سعى المتأثرون بالتغريب والمنادون بالعلمانية[١]. إلى جعل العقل الأصل الذي يرجع إليه دون سواه في إعادة بناء الأمة، كان لزامًا التصدي لقضية الدين ومواجهة جمهور المسلمين بضرورة إغفال قضية الانقياد للدين، ممثلا في الوحي

---

(١) العلمانية: هي ترجمة Secularism وتعني اللادينية أو الدنيوية. وهي دعوة إلى إقامة الحياة على غير الدين وتعني في جانبها السياسي اللادينية في الحكم. راجع في ذلك: جذور العلمانية للدكتور السيد أحمد فرج.

المنزل، من الكتاب والسنة.

وقد سلك هؤلاء في سبيل إقصاء الدين وتهميش دوره في إعادة بناء الأمة مسالك متنوعة:

فمنهم من شكك في صحة الدين كله، كتابًا وسنة!!! باعتباره أساطير لا حقائق، وتراثًا من عصور متخلفة!!! وجعلوا في مقدمة أسلحتهم محاولة زعم أن القرآن والسنة فيهما معتقدات تتعارض مع العلم التجريبي المعاصر، ومن ثم إبطال منهج الإيمان بالنصوص الإسلامية وعصمتها في مقابل تقوية التسليم للمنهج العلمي دون سواه.

ومنهم من آثر ألا يصطدم صراحة بالنصوص الشرعية وإن كان يضمر رفضها، وجعل طريقته لتحقيق ذلك عدم النظر للنصوص ومضامينها على أنها نصوص مقدسة يجب الخضوع لها، بل تدرس كتراث يخضع للمنهج العقلاني وأدوات النقد الأدبية، مع التحرر من منهج علماء المسلمين وأصولهم في دراسة النصوص الشرعية.

ومنهم من عمد إلى نقد التاريخ الواقعي للمسلمين، والتعرض لتشويه الجوانب الإيجابية للتاريخ الإسلامي باسم النقد والدراسة، ومن ثم تحطيم صورة المجتمعات الإسلامية قديمًا وحديثًا، واستغلال تلك الصورة في الطعن في الدين ونصوصه.

الموقف السلفي من العقلانية [1] :

تقدم السلفية هدى الرسول ﷺ وهدى الصحابة ﷺ علمًا وعملًا على ما سواهما، ولا يعني ذلك رفض العقل أو إلغاء دوره. ولقد ذكرنا أن العلوم العقلية على ضربين: علوم ضرورية أو بديهية هي الأصل. وعلوم مكتسبة مبنية - أو هكذا يجب أن تكون - على العلوم الضرورية. وذكرنا أن العلوم الضرورية لا اختلاف بين الناس فيها وإن اختلف الناس في درجة وضوح هذه العلوم بينهم.

وذكرنا أن العلوم المكتسبة قد يختلف الناس فيها بحسب قدراتهم العقلية ومعارفهم ومستوياتهم العلمية، ومن ثم تقع بينهم المخاصمات والمنازعات في إثبات أشياء من هذه العلوم. وعند النزاع يحاول كل فريق إثبات صحة قوله ببيان موافقة

---

(١) العقلانية: وصف منسوب إلى العقل، فأصل الكلمة: العقل مع إضافة الألف والنون للمبالغة، ثم ياء النسب، فتاء التأنيث. أي أن: العقلانية = العقل + ألف ونون (للمبالغة) + ياء النسب + تاء التأنيث. والعقل لغة: المنع والحجر والتقييد. فيقال: عقل البعير بالعقال، إذا ربطه ليمنعه من التفلت، فلا يغادر المكان الذي جعله له صاحبه. وعقل الإنسان الذي يتلقى به المعارف، يمنعه كذلك من الوقوع فيما يهلكه أو يفسده أو يشينه.

تلك النظرة أو هذا الرأي الذي يتبناه للعلوم الضرورية الأساسية، أو إثبات بطلان نظرة أو رأي المخالفين له للعلوم البديهية.

وهذا كله مبني على تحكيم العقل ومعاييره الأولية. فما هو موقف السلفية من ذلك؟

السلفية كمنهج لا ترفض ذلك، إذ لا مخالفة في ذلك الفهم للشرع، ووظيفة العقل في القرآن.

ولكن كما بينا: أن هذا التحكيم للعقل لم يحُل بين البشرية وبين النزاعات والخلافات والمخاصمات، بل وتقلب العلوم المكتسبة وتغيرها في إطار التقدم العلمي والتطور الحضاري.

وفوق ذلك فهناك أمور لا يقدر العقل بمقاييسه المحدودة أن يحيط بها علمًا في الكون والحياة، وهذا ما يؤكده التطور العلمي عصرًا بعد عصر.

وأهم من ذلك الأمور الاعتقادية والغيبية التي هي فوق مستوى العقل وإدراكه فيما يتعلق بالحياة البشرية فيما مضى، وما سيكون إليه مآلها فيما يستقبل في الآخرة وهي علوم لا طمأنينة للنفس وسكينة إلا بالتصور المرضي لها.

وهذا هو دور الوحي المتمثل في الكتاب والسنة. وهذا هو الإيمان بالرسل والأنبياء والكتب المنزلة ودورها في هداية

البشرية وإرشادها، وتعليمها العلم الذي لا غنى لها عنه.

وحينما يؤمن المرء بالوحي والنبوة، ويتلقى منهما، يصبح لديه مصدران للعلم:

العقل الذي جعله الله أداة للمعرفة والاستنباط.

والوحي المنزل الذي جعله الله نورًا للهداية والمعرفة.

وكلاهما من عند الله، يأخذان الإنسان إلى غاية واحدة وهدف واحد، لا يتصور - ولا ينبغي - أن يكون هناك تعارض بينهما ولا يجوز أن يختلف نص ثابت من الكتاب أو السنة مع قياس عقلي صحيح.

ولا يجوز أن يخالف دليل نقلي صحيح أي دليل عقلي صحيح.

«لم تكن مشكلة العقل والنقل - أو الوحي والمعرفة الإنسانية - موجودة لدى السلف الأولين. ذلك أن العقل المؤمن كان حاسمًا في موقفه المنهجي المبني على منطق العقل السليم: الوحي من علم الله الذي يمثل الحق المطلق في كل ما قدمه من قضايا، ومن ثم: فإن أي تشكيك في قضية من قضاياه ينقض ذلك الإيمان، أي أن هذا التشكيك يعني موقفًا غير عقلي.

العقل مصدر للمعرفة، وهو الوسيلة التي كلفنا الله على

أساسها وأمرنا أن ننظر في أمر الرسالة، ومن ثم الوحي من خلالها: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، لكن هذا العقل جزء من الإنسان المخلوق المحدود، ومن ثم فإن المعرفة الناتجة عنه تبقى دون العلم الذي يقدمه الوحي. إنه علم الإنسان أمام علم الله. وهي معادلة واضحة وعقلية.

لكن ذلك لم يكن يعني لدى أولئك السلف، أنه ينبغي أن يضمر العقل وأن تبطل وظيفته الإبداعية ما دام الوحي موجودًا، لم ينظروا إلى إيمانهم بالوحي وحقائقه المطلقة على أنه استغناء عن العقل، ومن ثم عزل له. كلا إن العكس هو الصحيح، إن انطلاق العقل - لدى هؤلاء - وإبداعه وفتوحاته في المجالات السياسية والاجتماعية والعلمية، وتنوع نشاطاته، كان نتيجة ذلك الإيمان بالوحي»[(١)]

«والمقصود أنه لدى السلف - الأولين - من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسان، كان وجود الوحي - مع توفر العقل - السبيل إلى قيام حياة إنسانية تتحلى في كل جوانبها بالكمال - الممكن بشريا - آمنوا بهذا في وعيهم،

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص١٩٧، ١٩٨

وتحققوه في حياتهم. فلم يكن وجودهما معًا مشكلة، بل إن المشكلة في فقدهما أو فقد أحدهما:

حيث إن فقدان الوحي يحرم العقل من الهادي الذي يدفعه في مجالات العلم، ويحدد له غايات حركته ويرسم له الضوابط التي يحقق بالتزامه بها إنتاجًا مثمرًا.

كما أن فقدان العقل أو فساده: يعني أن لا يتحقق لتعاليم الوحي وجودها الواقعي في حياة الناس. فتبقى هذه الحياة دون مستواها الإنساني المأمول»(١)

فإن قيل: كثيرون يظنون أن التعارض يقع أحيانًا بين العقل والشرع، ويتشككون عندئذ في القول بضرورة موافقة العقل للشرع والشرع للعقل؟

والجواب:

أن الدليل الثابت شرعًا إما أن يكون قطعيًّا في دلالته وإما أن يكون ظنيًّا.

والأمر الثابت عقلًا إما أن يكون قطعيًّا لا اختلاف بين الناس فيه، وإما أن يكون ظنيًّا محل اختلاف واجتهاد في الأخذ به أو تركه. وعلى هذا:

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص١٩٩

فيستحيل أن يتناقض قطعيان أيًا كان مصدرهما، العقل أو الشرع؛ لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة.

لكن يمكن أن يتعارض قطعي وظني وهنا يقدم القطعي أيا كان مصدره على الظني أيا كان مصدره.

كما يمكن أن يتعارض ظنيان، وهنا يجب إعمال الجهد في المفاضلة بينهما بطرق الترجيح المعتبرة.

والغالب أن ما يظنه البعض أو يتصوره تعارضًا بين العقل والشرع هو في الحقيقة تصور في الذهن البشري القاصر نتيجة أفكار إما بسبب فهم خاطئ للنصوص أو بسبب علم مكتسب غير قطعي، يتصوره صاحبه من الحقائق العلمية اليقينية وليس الأمر كذلك[١]

والإيمان المبني على التسليم للوحي جعل الموقف السلفي يقوم على أساس دخول العقل تحت الوحي، بمعنى أن الوحي هو الموجه وله السيادة والعقل تابع يمارس عمله ووظيفته في ظل توجيهات الوحي وإرشاداته وبهذه التبعية من العقل

---

(١) راجع بيان منهج ابن تيمية في ذلك: السلفية وقضايا العصر ص١٩٩ – ٢٠٣.

للوحي يستقيم الأمر، بل ويوصف إنتاج العقل بأنه شرعي أو موافق للشرع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ثم الشرعي قد يكون سمعيًّا وقد يكون عقليًّا، فإن كون الدليل شرعيًّا يراد به كون الشرع أثبته ودل عليه، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه، فإن أريد بالشرعي ما أثبته الشرع، فإما أن يكون معلومًا بالعقل أيضًا، ويكون الشرع نبه عليه ودل عليه فيكون شرعيًّا وعقليًّا – كأدلة التوحيد والمعاد ونحوها. وإما أن يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلا بمجرد خبر الصادق فإنه إذا أخبر بها لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعيًّا سمعيًّا. وأما إذا أريد بالشرعي ما أباحه الشرع وأذن فيه، فيدخل في ذلك ما أخبر به الصادق، وما دل عليه القرآن وما دلت عليه وشهدت به الموجودات»[1] «درء تعارض العقل والنقل جـ١/ ١٩٠».

وبالجملة:

فإن التعارض بين الوحي والعقل افتراض خاطئ؛ لأن الإيمان بأن العقل البشري خاضع للوحي وتابع له ينفي هذا

(١) السلفية وقضايا العصر ص٢٠٦ نقلًا عن ابن تيمية في كتابه: درء تعارض العقل والنقل.

الافتراض، ورفض العمل بالوحي والخضوع له لا يسمى عقلًا أو منهجًا عقليًّا، ولكنه في مسمى الشرع هوى وضلال.

إن الوحي يخاطب العقل ويبين له المنهج الصحيح للنظر في شؤون الحياة كلها، وهو في بيانه وإرشاده وتوجيهه للعقل لا يكبت العقل، بل على العكس من ذلك ، يفتح له آفاقًا واسعة ومجالات رحبة للإحاطة والإدراك قد يعجز العقل بمفرده عن الإلمام بها كاملة في كل عصر وزمان.

والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق إنما يتحرك في مجال واسع جدًّا، يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضًا، كما يحتوي أغوار النفس ومجالات الأحداث ومجالات الحياة جميعًا(١)

فإن قيل: إن أوروبا لم تعرف التقدم العلمي الحاضر إلا بعد أن أقصت الدين وتعاليمه عن الحياة، فتخلصت من جمود النصرانية وسيطرة الكنيسة، وجعلت العلم وحده قائدها إلى

---

(١) السلفية وقضايا العصر: ص٢٠٦ ، ٢٠٧ نقلًا عن سيد قطب في ظلال القرآن جـ٢/ ١٠٩٩

المدنية المعاصرة. وعليه فواجبنا أن نقصي الدين الإسلامي بتعاليمه وأحكامه، ونطلق العنان للعلم - والعلم وحده - ليقودنا إلى الحضارة المتقدمة التي نتطلع إليها.

والجواب:

أن هذا التصور للتقدم الأوروبي ينطوي على خطأ يحتاج لتوضيح، فشتان بين ما كان في أوروبا وبين ما ينبغي أن تكون عليه، كما ينبغي أن نصحح أيضًا نظرتنا إلى الحضارة الأوروبية الحديثة لنميز بين جوانبها الإيجابية التي يجب أن نسعى لمثلها وجوانبها السلبية التي يجب أن نتجنبها.

فأوروبا عندما ثارت على الدين، فإنما ثارت على الكنيسة التي حرفت وبدلت وغيرت، حتى صارت تعاليم النصرانية المحرفة عائقًا أمام العلم والعلماء، وكما ذكرنا فإن العلم الصحيح لا يعارض الوحي، ولكن إن وقع التحريف والتبديل والتغيير للوحي وقع التعارض مع العلم، وهذا ما كان في أوروبا.

إن مصادمة النصرانية المحرفة - متمثلة في رجال الدين

النصراني – للعلم الدنيوي وعلمائه [1]، لهو دليل واضح على صدق ما أخبر به القرآن الكريم من وقوع التحريف في الدين النصراني، ومن ثم انحراف الكنيسة ورجالها ثم اضطهادهم للعلماء الدنيويين ومصادرتهم لاكتشافاتهم العلمية الجديدة.

وهذا التحريف ثابت في القرآن الكريم باستفاضة:

فمنه تحريف بالكتابة:

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة: ٧٩].

---

(١) قلت: جرت عادة الكثير بإطلاق لفظ العلم والعلماء على المكتشفين والمخترعين في مجالات الطب والفلك والكيمياء والفيزياء ونحوها من علوم الدنيا، والذي أرشدنا إليه القرآن أن كل من لم يؤمن بالله فليس بعالم بل هو جاهل لا يعلم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ولذا فيجب أن يقيد إطلاق هذه الكلمة العظيمة كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾. وكتبه (ياسر برهامي).

ومنه تحريف باللسان:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ومنه تحريف للمعاني:

قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: ٤١].

والديانة النصرانية مبناها على تقليد رجال الدين والكنيسة واتباعهم فيما يحرمون ويحللون: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣١] وفي ظل تحريف الكتب المقدسة ومعانيها وضع الأحبار والرهبان لأتباعهم النصارى ضلالات وجهالات إما أخذًا من نص محرف أو الاجتهاد المبني على نص محرف، وبالتالي نسبوا للنصرانية الحقة ما ليس منها، وعادوا به بعد ذلك العلم والعلماء حتى صارت النصرانية المحرفة في جهة والعلم التجريبي الثابت في جهة، لذا لم تجد أوروبا بدًّا من رفض الدين بالكلية أو تحجيمه داخل جدران الكنيسة لا يتعداها في ظل مفهوم جديد عن الدين ودوره في الحياة.

أما في الإسلام: فالتحريف منتفٍ، إذ تكفل ﷻ بحفظ

هذا الدين بحفظ كتابه الكريم من التحريف والتبديل، كما أنه ﷻ هيأ لهذه الأمة من حفظ لها سنة نبيها ﷺ عبر القرون الطويلة، فصارت أهم مصادر هذا الدين باقية نقية دون تحريف. ومن هنا يمتنع أن يتعارض العلم الصحيح مع الوحي الثابت متمثلًا في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

وهذا يفسر لنا لماذا لم يعرف العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل هذا الصراع بين العلم والدين.

* إن أوروبا عندما أقصت النصرانية المحرفة كدين عن الحياة، وأخذت بالعلم طريقها إلى التحضر، فقدت نور الوحي وهداه، ومن ثم كونت حضارة مادية بحتة، آلت بها إلى تسخير العلم في الشر كما تسخره في الخير، إلى جانب فقد التمسك بالقيم الأخلاقية والإنسانية في التعاملات العالمية، حتى صارت الدول الأوروبية المتحضرة تستعمر الشعوب الضعيفة، وتذيقها ألوان القهر والإذلال وتستغل خيراتها وتنهب ثرواتها، وتستعبد رجالها وتستبيح أعراضها، فإن أجبرت على الخروج من تلك البلاد إجبارًا سعت بشتى الوسائل إلى ربط اقتصاد هذه الدول باقتصادها، واستغلال حاجاتها إلى تقدمها العلمي في غزوها فكريًّا وثقافيًّا؛ ليسهل السيطرة عليها بعد ذلك. كما هو معلوم مشاهد.

* إن الأخذ بأسباب العلم والتقدم العلمي بالصورة التي نراها الآن في العالم الغربي هو جانب إيجابي ينبغي الاقتداء بأوروبا فيه، أما افتقاد تعاليم السماء ونور الوحي وهدى الدين فجانب سلبي يهدد بتدمير هذه الحضارة بيد أبنائها وينبغي أن نتجنب اتباع أوروبا فيه.

فإن قيل: وهل يظل الدين الإسلامي واجب الاتباع في كل عصر وزمان وهو رسالة قد مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرنًا تغيرت فيها جوانب الحياة وتطورت البشرية فيها تطورًا كبيرًا في ظل تقدم علمي مبهر يلزم معه تطور البشرية في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية؟

والجواب:

الإسلام رسالة عالمية لكل البشر بلا استثناء، ومحمد ﷺ رسول لكل الناس من زمان البعثة وحتى قيام الساعة فهو خاتم المرسلين، ولا نبي ولا رسول بعده، ولا وحي منزل بعده، وهذا يعني وجوب اتباع شريعة الإسلام والالتزام بها في كل عصر ومصر، وحتى نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان وقيام الساعة.

وهذا مما قررته النصوص الشرعية العديدة:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]. والمراد: إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين.

قال محمد بن كعب: يعنى إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله ﷻ.

وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وفي الحديث المرفوع قوله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَل الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ خُتِمَ بِيَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»(١).

---

(١) رواه البخاري و مسلم وغيرهما.

وعن أنس مرفوعًا: (إن الرسالة والنبوة انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي) [١]

وعن أنس مرفوعًا: « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ » [٢]

وفي الصحيحين مرفوعًا: « إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِى يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِى يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ». والأحاديث في هذا كثيرة.

ولهذا كله تكفل الله ﷻ بحفظ هذا الدين بحفظ وحيه المنزل وإبعاده عن يد التحريف والتبديل والتغيير.

ومما هو مقرر عن علماء الأمة صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، لما امتازت به شريعته من عموم وخصوص وشمولية وواقعية، لا يتسع المقام لبيانه ويؤيده تاريخيًا مقدرة الإسلام على القيام بمهام الحضارة العالمية لقرون طويلة ضمت خلالها

---

(١) رواه الترمذي وقال: صحيح غريب.

(٢) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي.

قوميات مختلفة، وبلدانًا مترامية الأطراف، وشعوبًا لها رصيد من حضارات قديمة متنوعة، صهرتها جميعا في بوتقة واحدة، خرجت للعالم حضارة زاهية متفردة لها قيمها ومبادؤها وأخلاقياتها إلى جانب التقدم العلمي والحضاري المادي.

فعموم الشريعة الإسلامية في قواعدها وأحكامها ومبادئها، التي تحقق مصالح الناس في كل عصر ومكان، وتفي بحاجاتهم مهما بلغ المجتمع البشري مما يؤهلها للبقاء والاستمرار.

والمتأمل لأحكام الشريعة يرى حرص الشريعة على مصالح الناس الحقيقية ودرء المفاسد عنهم لتحقيق المنافع العاجلة والآجلة الدنيوية والأخروية.

ومن مميزات الشريعة كذلك تشريع الرخص عند وجود المشقات في تطبيق الأحكام كإباحة المحرمات عند الضرورة بقدرها، وإباحة الفطر في رمضان للمسافر والمريض...إلخ.

ولا شك أن هذه الرخص ضرب من ضروب رعاية المصالح ودرء المفسدة عن الناس.

وباستقراء أحكام الشريعة وجد أنها تراعي مصالح العباد التي تتعلق بأمور ضرورية وحاجية وتحسينية. فالضرورية هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها وإن فاتت يختل نظام الحياة

وهذه الضرورات هي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

والحاجيات هي التي يحتاجها الناس لتحقيق اليسر والسعة في عيشهم فإذا فاتتهم وقع الناس في الضيق والحرج.

أما التحسينيات فهي التي ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق، فإن فاتت فقدت حياة الناس النهج القويم السليم والعادات الكريمة.

كل هذه المصالح قامت أحكام الشريعة على تحصيلها وتحقيقها في المجتمع.

كما تمتاز الشريعة بمبادئها العامة غير التفصيلية التي صيغت بكيفية تيسر تطبيقها من زمان إلى زمان، كمبدأ الشورى، والمساواة والعدالة. إلى جانب الأحكام التفصيلية فيما يجب ألا يتغير من زمان إلى زمان، كأحكام العقيدة وتفاصيل العبادات كالصلاة والصيام والحج وعلاقات الأفراد داخل المجتمع كتنظيم الأسرة وكيفية الزواج والحضانة والميراث والطلاق والنفقة.

والشريعة فوق ذلك تمتاز بالاعتدال بعيدًا عن الإفراط

والتفريط [١].

ولا يخفى أن نسخ شريعة لا يكون إلا بشريعة أخرى في قوة المنسوخ سواء كان النسخ كليًّا أو جزئيًّا، وهذا منتفٍ بالنسبة للشريعة الإسلامية إذ أن الإسلام قد ختم الشرائع السابقة كلها ونسخها، وأن الشرائع الإلهية قد انقطعت فلا وحي إلهي منزل بعد وفاة النبي ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، فتبين بذلك كله أن الإسلام هو الشريعة الباقية الأخيرة إلى قيام الساعة، لا يسع أحد الخروج عنها أو التغيير فيها. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].



(١) راجع في ذلك: «أصول الدعوة» لعبد الكريم زيدان ص٥٤-٦٥، ص٦٨-٧٣.

ثانيًا: ملامح عملية للسلفية في وقتنا الحاضر

وتتضمن قضايا عملية وسمات خاصة تميزت بها الدعوة السلفية في وقتنا الحاضر. منها:

١- الاهتمام بقضايا التوحيد.

٢-الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية المثمرة.

٣- الشمولية في الدعوة.

٤- مفهوم التقدم الحضاري عند السلفيين.

٥- تيسير فهم الإسلام.

٦- سلفية المنهج سلفية المواجهة. (بين الأصالة والمعاصرة).

١- الاهتمام بقضايا التوحيد

☐ التوحيد أولا لو كانوا يعلمون:

التوحيد حق الله على العبيد، كما قال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه «حَقّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»(١)

ومن حقق التوحيد غفرت له ذنوبه وإن كانت كتراب الأرض. ففي الحديث القدسي: (أن من لقي الله لا يشرك به شيئًا غفر الله عز وجل له ذنوبه وإن كانت كعدد تراب الأرض).

ومن استكمل التوحيد دخل الجنة بغير حساب: ففي الحديث في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب «أنهم لاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». وهذا كمال التوحيد.

ومن وقع في الشرك – والعياذ بالله – فقد حبط عمله كائنًا من كان، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

والأنبياء معصومون من الكبائر والذنوب فضلًا عن الشرك والكفر، فالخطاب لبيان شناعة الشرك وأنه لو وقع من نبي أو

---

(١) متفق عليه.

رسول كائنًا من كان لحبط عمله وكان من الخاسرين، فما بال من هم دونهم بكثير من آحاد العباد، فهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لكل الناس، ليجتنبوا الشرك ويبتعدوا عنه غاية البعد. فهو خطاب لكل الناس في شخص الأنبياء والمرسلين.

والشرك من دون سائر الذنوب لا يغفر لصاحبه كائنًا من كان، وما عداه من الذنوب فهو في مشيئة الله إن شاء غفره وإن شاء حاسبه عليه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

والمشرك خالد في النار لا يخرج منها أبدًا.

والدعوة إلى التوحيد هي أول ما يبدأ به الداعي، فلا يُقَدَّم على التوحيد من واجبات الدين شيئًا، فالتوحيد هو الذي بعث الله به الرسل والأنبياء، والتوحيد أول ما بدأت به الرسل والأنبياء مع أقوامهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فدعوة التوحيد أمر الله بها أول رسله - نوحًا عليه السلام - وكل

رسله إلى محمد ﷺ.

ولما أرسل الرسول ﷺ رسله وقواد جيوشه كان يأمرهم أن يبدؤوا أولًا بالدعوة إلى التوحيد. فلما بعث عليًّا ﷺ إلى خيبر أمره أن يدعوهم أولًا إلى توحيد الله.

ولما بعث معاذًا ﷺ إلى اليمن أمره أن يدعوهم أولًا إلى توحيد الله. ففي الصحيح عن ابن عباس ﷺ أنه ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الله**». وفي رواية: «**فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله**»[1]

ولم يُرْسَل نبي ولا رسول -صلوات الله وسلامه عليهم- إلا بالإسلام أي: أن دين الأنبياء والرسل واحد وإن اختلفت الشرائع.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد. وانظر: صحيح الجامع جـ١/ ٤٥٥، ٤٥٦ حديث رقم ٢٢٩٦ – ٢٢٩٨

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[هود: ٢٥، ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[المؤمنون: ٢٣]. وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢].

وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[هود: ٥٠].

وقال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[هود: ٦١].

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[هود: ٨٤].

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٢].

وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٣].

وقال تعالى عن بيت لوط عليه السلام: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الذاريات:٣٥،٣٦].

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال في دعائه: ﴿ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾
[يوسف: ١٠١].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس:٨٤].

وعن السحرة لما غلبهم موسى عليه السلام فأعلنوا إسلامهم فلما توعدهم فرعون بالعذاب صبروا على إيمانهم وقالوا داعين الله: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٢٦].

وعن سليمان عليه السلام أنه كتب لقوم سبأ: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[النمل: ٣١].

ولما آمنت بلقيس أعلنت إسلامها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال تعالى عن حواريي عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ٥٢].

وقال تعالى عن مؤمني الجن إنهم من المسلمين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾

[الجن: ١٤].

فالتوحيد دين الله، وهو دعوة كل رسول، والإسلام هو دين الله.

فإن قيل: إن الناس كانوا في الماضي مشركين فلزم أن تكون الدعوة إلى التوحيد حينئذ أول ما ينبغي أن يدعوا إليه. ولكن اليوم الناس على الإسلام يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فما الداعي إذًا لدعوة الناس إلى التوحيد من جديد والمناداة فيهم بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ؟

والجواب:

أن هذه مقالة خاطئة بعيدة عن معرفة حال الناس اليوم ومعرفة ما هو التوحيد الذي جاءت به الرسل. فالناس اليوم

أبعد ما يكونون – إلا من رحم ربك وهم قليل- عن تحقيق العبودية لله تبارك وتعالى.

فالعالم الإسلامي يبلغ تعداده أكثر من ألف مليون نسمة من إجمالي قرابة ستة آلاف مليون نسمة أي نسبة المسلمين لا تتعدى خمس مجموع العالم.

فكل ستة أشخاص بينهم خمسة من الكفار وواحد من المسلمين.

وهؤلاء الخمسة آلاف مليون كافر ما بين نصراني وهندوسي وبوذي ووثني وملحد. يحتاجون إلى دعوتهم إلى التوحيد وتصحيح عقائدهم أكثر من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنفسونه والطعام والشراب الذي يتناولونه. وإلا فوراء حياتهم الدنيا عذاب أليم وسوء المصير في الآخرة.

أما الألف مليون مسلم ففيهم من المآسي والانحرافات ما يصعب حصره، فكثير من البدع والضلالات والخرافات والخزعبلات والمعتقدات الباطلة تنتشر بينهم، وكثير من أعمال الشرك الظاهر والخفي، الأكبر والأصغر، يرتكبونها بألسنتهم وجوارحهم، وتستولي على قلوبهم وعقولهم، فأين هم من إفراد الله تعالى بالعبادة وتوحيد الله تعالى؟

كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة:

إن كثيرًا ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم يرددون الشهادتين وينطقون بكلمة التوحيد ولكن:

منهم من يؤمن بأن له حرية اختيار المناهج والنظم والقوانين الوضعية بلا قيود وأن شريعة الإسلام ونظمه لا تلزمه، فربما أدى العبادات الدينية ولكنه يعزل الدين عن حياته وينادي بإبعاده عن شؤون الحكم والسياسة والاقتصاد وأمور المجتمع، وهذا فهم خاطئ لعبوديته لربه ولعمله بالإسلام.

ومنهم من ينساق بشدة إلى ارتكاب المعاصي والمنكرات، فيترك الصلاة ولا يؤدي الزكاة، ويتفنن في أكل المال بالباطل بالرشوة تارة وبالربا تارة أخرى وبالمعاملات المخالفة للشرع أخرى، يأكل المحرمات ويشرب الخمور ويمارس الزنا، وقد استمرأت نفسه كل ذلك واعتادته بل لا تتصور الحياة بدونه، ولسان حاله الإعراض عن الدين وتعلم أحكامه.

ومنهم من يقع في الشرك الصريح، فيصرف العبادات لغير الله، فينذر ويذبح للموتى من الصالحين، ويطوف بأضرحتهم وقبورهم، يعظمها ببناء القباب عليهم، وتشييد المساجد فوقها، ثم يدعوها من دون الله، يستغيث بها، ويتعلق قلبه بها حبًّا وخوفًا ورجاءً.

ومنهم من يعتنق معتقدات الفرق الضالة كالمعتزلة والرافضة، أو يؤمن بالحلول والاتحاد ومقالات زنادقة الصوفية وضلال الفلاسفة فضلا عن عقائد الفرق المخالفة لأهل السنة كالأشعرية والماتريدية التي يعتنقها جمهور المسلمين بل علماؤهم ويصفونها بأنها عقائد أهل السنة والجماعة وينسبونها للسلف !!

وغير ذلك كثير وما ذكرناه بعض من كل، وجزء يسير من ضلال كبير يكتنف أكثرية المسلمين في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقياتهم وسلوكياتهم في هذا الزمان.

وهذه المظاهر كلها دليل واضح على جهل المسلمين اليوم، بحقيقة دينهم، وأصل التوحيد، وغياب الفهم الصحيح عن عقولهم وحاجتهم الماسة إلى تحقيق التوحيد.

وبعيدًا عن ذلك فإن هناك حقيقة مهمة يجب ألا تغيب عن بالنا أبدًا وهي:

«إن قضية التوحيد لا يدعى إليها الكفار وحدهم لكي يؤمنوا بها ويصححوا اعتقادهم من خلالها بخلع رداء الكفر أو الشرك والدخول فيها، ولكن يدعى إلى قضية التوحيد أيضًا المؤمنون بها والمعتنقون لها والمستمسكون بها لكي تظل حية في قلوبهم راسخة في ضمائرهم عاملة في واقع حياتهم لا

يفترون عنها أبدًا ولا يغفلون عن مقتضياتها. وأن أعظم دليل على ذلك قول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. هكذا يدعى أهل الإيمان إلى الإيمان[١]

ولقد علم أعداؤنا جيدًا أن الجذور الحقيقية التي تضمن البقاء والسيادة والعزة لهذه الأمة في الأرض هي العقيدة فراحوا - بخبث ودهاء - يضعون الحواجز والسدود بين المسلمين وبين عقيدتهم الصافية الخالصة - من ناحية - ويشوشون عليها لتعكير صفائها من ناحية أخرى، فوقع المسلمون قرونًا ماضية في هذا الخلط العجيب وهذا الانفصام النكد وبخاصة في هذه الأيام التي تذبح فيها العقيدة على أيدي أبنائها الذين أُبْعِدُوا كثيرًا عن حقيقتها ومقتضياتها حتى رأينا من يردد كلمة التوحيد وهو لا يفهم لها معنى ولا يعرف لها

---

(١) لقد ظل القرآن يربي الصحابة على العقيدة الإسلامية لا في مكة وحدها بل في المدينة كذلك فقضية العقيدة لا تذكر لفترة من الزمن ثم تترك للحديث عن قضايا أخرى.

مضمونًا ولا يقف لها على مقتضى»[1]. اهـ.

فإذا عرفت أهمية التوحيد، عرفت أهمية تعليم الناس أمور التوحيد وبيان قضاياه لهم، وإذا عرفت خطورة الشرك وعظم وزره عرفت أهمية تحذير الناس من مظاهر الشرك الظاهرة والباطنة، وتوضيح صوره للناس ليتجنبوها[2].

وإذا عرفت هذا عرفت لماذا يهتم السلفيون بالدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، فهذه هي السمة الأولى المميزة للدعوة السلفية في ساحات الدعوة أنها: (دعوة التوحيد) ودعوة (التحذير من الشرك).

وإذا عرفت هذا عرفت خطأ من لا يعطي هذا التوحيد حقه في البيان والتوضيح من أصحاب جماعات الدعوة الأخرى،

---

(١) خواطر على طريق الدعوة جراح وأفراح للشيخ محمد حسان ط. دار الخلفاء، المنصورة، ط الأولى ١٤١٤هـ ص ٤٩ ، ٥٠ بتصرف يسير.

(٢) والعجب كل العجب تسمية هذه الشركيات بشذوذات عقائدية لا تستدعي تكفير صاحبها! ترى ماذا يريدون؟ أتهوين خطرها على دين العباد؟ أم تبرئة ساحة معتنقيها تزلفًا؟ أم الغاية جمع الأمة على دين من عقائد شتى منها ما هو من الإسلام ومنها ما هو مخالف للإسلام موغل في الشرك والوثنية؟

بل قد ينطوي تحت دعوتها الكثيرون ممن يجهلون قضايا الشرك وصوره، وقد يتساهلون في التعامل مع بعض الصور الخفية أو الظاهرة للشرك الأصغر أو الأكبر.

وإذا عرفت هذا عرفت خطأ الذين يصرفون العبادات لغير الله، من دعاء غير الله والاستغاثة به، وتعلق القلب بالأموات ممن يظن فيه الصلاح، والتوكل عليهم والتمسح بهم والتبرك بقبورهم وأضرحتهم والنذر لهم والتوسل بهم... إلخ.

ومما يزيد حاجة الناس إلى فهم التوحيد بأدلته من الكتاب والسنة وعلى ما كان عليه السلف الصالح، ما ألحقه علماء الكلام وأتباع الفلاسفة من استعمال اصطلاحات المتكلمين وطريقتهم في الاستدلال، مما أبعد الناس عن الكتاب والسنة في أخطر قضايا الدين، وأذهب عن العقول والقلوب تفاعلها مع وحي الله المنزل، وتأثرها به، مما يزيد إيمانها ويثبت عقيدتها. وما زال الناس جيلًا بعد جيل نتيجة تأثرهم بمنهج المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم يتصورون التوحيد أدلة عقلية ومصطلحات فلسفية واستدلالات كلامية لا يقدرون عليها فينصرفون عنها وعن التوحيد ومسائله.

□ تفويض الأسماء والصفات ليس من توحيد السلف:

يظن البعض ويزعم أن مذهب السلف تفويض معاني الأسماء والصفات أي إثبات ألفاظها كحروف من كلام أعجمي لا يفهم لها معنى، وهذا الادعاء باطل من وجوه منها:

١ - أن إثبات الصفات وهو عقيدة السلف ينافي تمامًا القول بتفويضها، إذ إن مضمون الإثبات إثبات ما فيها من معانٍ معروفة من اللغة العربية، على الوجه اللائق بجلال الله وكماله، ومعنى تفويض المعنى الجهل به وعدم معرفته، وعدم الأخذ بمعنى اللفظ كما يفهم من اللغة، فالإثبات ينافي تفويض المعنى[1].

٢- أن الأقوال الكثيرة والآثار العديدة المنقولة عن السلف الصالح في إثبات الصفات تتضمن إثباتهم لمعانيها، وليس فيها تفويض معناها، مع التأكيد أنها ليست كصفات المخلوقين ولكنها على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله.

---

(١) راجع: تحفة الإخوان في صفات الرحمن. إعداد: محمد بن عبد العليم. مراجعة رئاسة إدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد بالسعودية.

يفهم كلامهم ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهذا باطل، فإن المراد بالتأويل المنفي هنا هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته». اهـ.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: «المتأخرون من أهل النظر قالوا مقالة مولدة ما علمت أحدًا سبقهم بها، قالوا: هذه الصفات تمر كما جاءت ولا تؤول مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد. فتفرع من هذا أن الظاهر يعنى به أمران:

أحدهما: أنه لا تأويل لها غير دلالة الخطاب كما قال السلف الصالح: الاستواء معلوم، وكما قال سفيان وغيره: قراءتها تفسيرها. يعني أنها بينة واضحة في اللغة لا يبتغي بها مضايق التأويل والتحريف. وهذا هو مذهب السلف مع اتفاقهم أيضًا أنها لا تشبه صفات المخلوقين بوجه.

الثاني: أن ظاهرها هو الذي يتشكل في الخيال من الصفة كما يتشكل في الذهن من وصف البشر، فهذا غير مراد، فإن الله تعالى فرد صمد ليس له نظير وإن تعددت صفاته فإنها حق. ولكن ما لها مثل ولا نظير». اهـ[١]

---

(١) معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي الجزء الأول ط. دار الفتح الإسلامي بالإسكندرية نقلًا عن الذهبي: ص٣٣١، ٣٣٢.

قال صاحب المعارج: «هذا التصور الفاسد هو الذي يحمل جهلة النفاة على ما صنعوا من النفي حين لم يفهموا من ظاهرها إلا ما يقوم بالمخلوق ولم يتدبروا من هو الموصوف فأساؤوا الظن بالوحي ثم قاسوا وشبهوا بعد أن فكروا وقدروا ثم نفوا وعطلوا»[(١)]

حرمة عبادة غير الله باسم التوسل والتبرك والشفاعة:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾[الأحقاف: ٥،٦].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

[فاطر:١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ

---

(١) المصدر السابق: ص٣٣٢. ومن الخطأ الشنيع تحكيم العقل في أمور الإلهيات والغيبيات، فإن هذا الاجتهاد لا يقبل في العقيدة ولا يدندن به حولها، إن مثل هذا الاجتهاد في العقيدة يسوق أصحابه كما هو مشاهد وواقع إلى الكفر الصراح والشطح البعيد.

هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾

[البقرة: ٢٥٥].

والآيات في ذلك كثيرة[(١)]

---

(١) يراجع في ذلك فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، معارج القبول جـ١/ ٤٧٦ – ٥٠٥. كتاب (الزيارة) لابن تيمية ، و(الجواب الباهر في زوار المقابر) له أيضًا. (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد) للألباني رحمه الله ، وكتاب (التوسل) له أيضًا. ومعلوم أن مظاهر الشرك الصريحة تنشب في الأمة بسبب هذه المحرمات من صور التوسل غير المشروع وعبادة غير الله باسم التبرك والشفاعة

=

وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ الله نِدًّا دَخَلَ النَّارَ». رواه البخاري.

وفي حديث ذات أنواط لما قال بعض الصحابة ممن أسلموا حديثًا بعد فتح مكة للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال لهم ﷺ: « سُبْحَانَ الله، هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]» . رواه الترمذي وصححه.

☐ حرمة اتخاذ القبور مساجد والغلو في الصالحين:

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». متفق عليه.

وقال ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» .متفق عليه.

وقال ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ ». رواه مسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً، لَعَنَ اللهُ قَوْماً اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». رواه أحمد بسند

=

والغلو في الصالحين وتصريف العبادات لهم.

صحيح.

وعن ابن مسعود مرفوعًا: « إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ». رواه أحمد وغيره. وهو حديث صحيح.

وعن عائشة ﵂ قالت: لما كان مرض النبي ﷺ تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية – وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة – فذكرتا من حسنها وتصاويرها قالت: فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِم الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». متفق عليه.

والدعوة السلفية تجعل كل هذا نصب عينها فتدعو الناس أولًا إلى هذه القضية الكلية (توحيد الله) ثم تبدأ بعد ذلك في تفصيل فرعياتها وجزئياتها، فلا يزال الفرد الذي يسير في الطريق السلفي يرقى كل يوم درجة من درجات سلم التوحيد ويضيف كل يوم مسألة من مسائله، فلا يمر عليه وقت يسير حتى يكون - بحول الله وتوفيقه وحمده – موحدًا خالصًا كل يوم في زيادة من دينه.

وبهذا تفترق الدعوة السلفية عن كل ما عداها من دعوات الإصلاح الجزئية التي تنسب إلى الإسلام، وذلك أن هذه

الدعوات تبدأ من جزئيات الدين، وترى أن الوصول إلى تحقيق هذه الجزئية لا يكون إلا بتجميع الناس وعدم تنفيرهم حتى يساعدهم الناس في الوصول إلى الحكم، ويرون أن تجميع الناس لا يأتي لهم إلا بالسكوت عن أخطائهم العقائدية وبذلك يندس فيهم المشركون والذين يدعون غير الله، ويندس فيهم أيضًا أهل الأهواء من طلاب الرياسات والزعامات؛ لأنهم يرون أن طريقهم موصل لذلك، ويسكتون عن كثير من البدع العقائدية والخرافات حتى لا ينفروا الناس من دعوتهم في زعمهم، ويخترعون لهذا ما يسمونه (بمصلحة الدعوة) فيحلون كثيرًا من المحرمات، ويحرمون كثيرًا من الطاعات، وقد يكون هذا في مصلحتهم كحزب يسعى إلى الحكم والرياسة، فتصحيح الحكم والسياسة من الدين ولكنه ليس أصل الدين ومنطلقه، ولذلك نص الذين ينتهجون هذا النهج في الدعوة (إصلاح الحكم والسياسة أولًا).

وشتان أن يكون هدف الدعوة هو التوحيد، وأن يكون هدف الدعوة هو الرياسة والزعامة فليس هذا بلباس الإسلام، والدعوة السلفية تسعى فيما تسعى إليه إلى إصلاح السياسة والحكم، ولكنها تنزل ذلك منزلته من أوامر الدين من حيث الأهمية والأولوية، وتسعى إليه بالقدر السليم الصحيح الذي

يتناسب مع القائمين بالدعوة وجهودهم.

وكذلك الشأن في كل دعوة اتخذت جزئية من جزئيات الإسلام مرادًا ومنطلقًا وغاية لها كالدعوات إلى الإصلاح الاجتماعي من محاربة شرب الخمر والاختلاط وأندية الفسوق والفجور ونحو ذلك، وكذلك دعوات البر والإحسان والعطف على الفقراء واليتامى، هذه الجمعيات والدعوات مشكلتها أنها تتوقف عند جزئية من جزئيات الدين فلا تصل إلا إلى أقل القليل من النتائج، وقد يبقى أفرادها في دوائر ضيقة من العلم والعمل، ثم يتفرقون ويتمزقون، بل قد يجتمع معهم أهل النيات الفاسدة ومحبي الظهور والمدح، وهذه الأمور من جزئيات الإسلام وإن كانت مطلوبة مرادة، إلا أنها يجب أن تبقى في الإطار العام من دعوة الإسلام الشاملة العامة، وأن تكون أجزاء في هيكل التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه وتعالى.

ولذلك كان المنطلق السلفي في إخلاص الدين لله أولًا وتحقيق التوحيد، ثم إنزال جميع تكاليف الإسلام منازلها بعد ذلك من إصلاح الحكم والسياسة والقضاء وإقامة الحدود وتطهير المجتمعات من الفساد، وتربية الرجال والنساء على

الدين الحق من عبادات ومعاملات وأخلاق أقول: هذا المنطلق السلفي هو المنطلق الصحيح السليم، وهي دعوة الرسل، وعلى رأسهم محمد بن عبد الله ﷺ الذي دعا إلى التوحيد أولًا وأخيرًا، ثم أنزل الأعمال منازلها حيث مناسباتها[1].

على أننا نرى أن الدين قد كمل بعد حياة الرسول ﷺ، ولا يجوز تعطيل فريضة من فرضياته، ولكن يقوم أهل الدعوة والجهاد من أوامر الدين بما يستطيعون وما يطيقون تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]. ويجب أن يكون ذلك على نهج النبي ﷺ ووفق سنته، فيحقق التوحيد في أفراد الدعوة ثم يدعون إلى العمل الصالح والقيام بالدين كله

---

(١) فلسنا ندعو إلى توقف الدعوة إلى الخير والطاعة أو تحقير أي منها، ولسنا نؤجل الفروض الشرعية من صلاة وزكاة وصوم وحج والتزام بالحلال وترك للحرام ودعوة وجهاد في سبيل الله وإقامة ما يقدر عليه من عبودية الفرد وعبودية الأمة، بل كل ما أمكن إقامته وجب إقامته فورًا وبدون توان، ولكن في نفس الوقت لا نهمل الأصل والأساس وهو الإيمان والتوحيد. وكتبه (ياسر برهامي).

في جميع شؤونهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية، وكل هذا في إطار التوحيد الذي هو غاية العمل الإسلامي ومراده.



٢- الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية المثمرة

☐ الأخوة الإيمانية ومعالجة أسباب الفرقة:

جعل الإسلام بين المسلمين رابطة قوية من الأخوة الإيمانية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١)

والحق أن الإسلام لم ينتشر إلا بهذه الأخوة العجيبة التي ربطت بين الصحابة ﭫ في صدر الإسلام فلولا إيواء الأنصار لإخوانهم المهاجرين، وحب المهاجرين وعفتهم مع إخوانهم الأنصار لما كانت هذه الفتوح العظيمة وهذا الانتشار السريع للإسلام شرقًا وغربًا، ولذلك كان من أعظم البلاء على أمة الإسلام ما وقع بينهم من فرقة وخلاف وشقاق جعل السيف بينهم بعد أن كان على أعدائهم.

ومن أهم أسباب التنازع والفرقة بين المسلمين: الاختلاف في العقائد ومسائل الإيمان. وقد بدأ الخلاف يسيرًا في مسائل قليلة كالحكم على مرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب منها أكافر هو أم مسلم؟ وهل يجب قتاله أم لا؟ وفي سبيل ذلك

نشأت بدعة الخوارج ثم المعتزلة، ثم بدأ الخلاف حول صفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه، ثم توسع الخلاف العقائدي ليشمل مسائل كثيرة ويمزق المسلمين إلى نحل وعقائد شتى.

واختلاف العقائد بالطبع يؤدي إلى اختلاف القلوب والأعمال.

والدعاة السلفيون من الصدر الأول دعوا الناس إلى التمسك في أمور العقائد بالكتاب والسنة، وترك التأويل بالباطل والهوى والتعصب، وكان لدعوتهم من البركة أن بقى جمهور المسلمين وعامتهم على سنن الحق متمسكين في عقائدهم بالكتاب والسنة، والدعاة السلفيون في هذا العصر السائرون على منهج السلف الأول في دعوتهم وجهادهم يدعون الأمة كذلك إلى أخذ عقائدها من الكتاب والسنة فقط، ونبذ جميع البدع العقائدية والاجتهادات والتصورات الغيبية التي جاء بها المشعوذون والدجالون والمتكلمون على الله بلا علم. وذلك لجمع شمل الأمة على كلمة سواء فيكون إيمانهم واحدًا، وبذلك تكون قلوبهم واحدة.

ولما كان الاجتماع على رأي واحد في كل المسائل الفرعية العلمية متعذرًا فإن الله سبحانه وتعالى أمر برد الاختلاف إلى

كتابه وسنة رسوله، وقد أمر أيضًا بأن يعذر بعضنا بعضًا فيما لم نستطع التوصل فيه إلى رأي واحد، وكان هذا هو منهج الصدر الأول من سلف هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم يختلفون أحيانًا، ولكن يعذر بعضهم بعضًا ولا يتعصبون لأقوالهم، ويردون ما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله. وكان هذا أيضًا شأن أئمة الإسلام الأعلام وفقهاء الإسلام في جميع الأقطار، ومن هؤلاء الأئمة الأربعة وغيرهم، يفتون ولا يتعصبون، ويدعون تلاميذهم إلى نبذ التعصب لأقوالهم وأخذ الحديث والحجة أينما وجد وترك آرائهم وأقوالهم إذا خالفت الدليل. ولذلك استمرت وحدة الأمة التشريعية الفقهية زمانًا طويلًا.

ولكن نشأ في المسلمين من حرم الاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة [١]، وحرم استخدام الدليل زعمًا أن فهم الدليل والحجة قد ولى، وحرم على الناس العمل إلا بأقوال الأئمة الأربعة. انتشرت هذه البدعة المقيتة في زمان ضعف الأمة [٢]

وإلى اليوم ورغم التنادي من كل مكان بوجوب تنظيم

---

(١) نودي من بعد القرن الرابع الهجري بقفل باب الاجتهاد في الدين.

(٢) نودي بإلزام كل مسلم نفسه باتباع مذهب من المذاهب الأربعة لا يخرج عنه في كل أحكام الدين.

معاملاتنا وفق الكتاب والسنة، فإن هناك من لا يزال يعيش بعقلية التقليد والجمود، ويأبى إلا أن يظل المسلمون في فوضى تشريعية، ويزعم أن كل قول في الدين يجوز الأخذ به، ومن يزعم أن الاجتهاد باطل، وأن الدين محصور فيما دوَّنه الأئمة الأربعة فقط[1]. ومن يتهم الدعاة السلفيين بمعاداة الأئمة، بل ومن يوجب على المسلمين أن يتبع كل منهم إمامًا من الأئمة الأربعة، وأن من أخذ بالدليل ورجع إلى الكتاب والسنة فهو مبطل مبتدع. أقول: ما زال في المسلمين من يعتقد هذا ويدعو الناس إلى ذلك.

ومعلوم يقينًا أن لكل إمام الرأي والرأيين في المسألة الواحد، كما نقول: قال الشافعي في القديم وقال في الجديد، بل والثلاثة والأربعة، إن كثيراً من المسائل الفقهية العملية فيها اختلاف واضح، وإذا كان هناك اختلاف بين الفقهاء في هذه المسائل فكيف يكون العمل إن قلنا نختار قول إمام واحد كان

---

(١) ولد الإمام أبو حنيفة عام ٨٠هـ، وتوفي عام ١٥٠هـ (٦٦٩م – ٧٦٧م)، وولد الإمام مالك عام ٩٣هـ، وتوفي عام ١٧٩هـ (٧١٢م – ٧٩٥م)، وولد الإمام الشافعي عام ١٥٠هـ، وتوفي ٢٠٤هـ (٧٦٧م – ٨٢٠م)، وولد الإمام أحمد عام ١٦٤هـ، وتوفي عام ٢٤١هـ (٧٨٠م – ٨٥٥م).

هذا التعصب، وليس هذا الإمام الواحد معصومًا حتى نأخذ جميع أقواله في جميع معاملاتنا.

وإن قلنا بجميع الأقوال كان هذا تناقضًا واختلافًا. فكيف يحكم القاضي فيمن تزوجت دون إذن وليها؟ فبعض المذاهب يجيز ذلك، ويرى العقد مع هذا صحيحًا، وآخرون يرون العقد مع عدم إذن الولي باطلًا يجب فسخ الزواج سواء قبل الدخول أو بعده... فما العمل؟

وإن قلنا: نرجح بين الأقوال فكيف نرجح، إن كان بالهوى والتحكم فليس الهوى من الدين؟ وإن كان الترجيح بالدليل والحجة فهذه هي السلفية.

وهو الحق: الترجيح بين أقوال الأئمة المتعارضة، وأخذ أقربها إلى الحق في نظرنا، والبحث عن الدليل دائمًا، وهذا هو الميزان الضابط لوحدة الأمة في أمورها التشريعية.

وهذا جانب من جوانب الدعوة السلفية. الدعوة إلى وحدة الأمة التشريعية في أمورها العملية، وذلك بحب الأئمة الأربعة وغيرهم جميعًا، والنظر إليهم نظرة سواء، وأخذ الأقوال المؤيدة بالدليل، والتي نرى أنها الحق، وعدم التعصب لواحد منهم دون الآخر، مع الاعتراف بفضلهم وعلمهم وجهادهم والتتلمذ على كتبهم، ودراسة مناهجهم في الفقه، وأخذ أقوالهم

والعمل بها ما لم تخالف الدليل من كتاب أو سنة. وبهذا أمرونا هم ودعونا إلى ذلك.

وهذا هو المخرج الحقيقي من تمزق الأمة التشريعي وفرقتها العملية، ومعنى ذلك أنه لابد أن ينشأ في الأمة العلماء المجتهدون العاملون الذين يستوعبون مرحلتهم الراهنة، ويفقهون أوضاع المسلمين الحاضرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والخلقية، ويوضحون للمسلمين في هذه الأحوال ما وافق الكتاب والسنة، مسترشدين بعلم الأئمة الأعلام والفقهاء الكرام غير متعصبين لأحد منهم دون الآخر، وإنما يكون ولاؤهم للحق وتمسكهم بالدليل، فهم مع الحق لا مع الرجال، يعرفون الحق بدليله، ولا يعرفون الحق بقائله وهذا أبرز جوانب الدعوة السلفية وأكثرها وضوحًا ولمعانًا. أنهم طلاب حق يطلبونه بالدليل. ومع تقديرهم واحترامهم لأهل الفضل والعلم، فإنهم مع ذلك لا يقبلون أقوالهم إذا تحقق لديهم أنها تخالف الدليل.

ولما كان الحق واحدًا لا يتعدد، وكان السلفيون طلاب حقٍّ لا عُبَّاد رجال لذلك حافظوا على وحدة الأمة، فالرجال المتبعون كثيرون، ولو كان كل رجل سيتبعه من الأمة جماعة، لتعددت الجماعات، وإذا كان الرجال يختلفون فمعنى هذا أن

والمشاركة في إزالة العوائق التي تحول بين هذه المجتمعات والتطبيق السليم للإسلام من خلال أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

❐ جماعات الدعوة هل هي من الفرق النارية؟

يتوهم البعض أن الدعوات المعاصرة الموجودة على الساحة من جملة الفرق النارية الضالة، وأن قول النبي ﷺ: « **إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ** » رواه أبو داود وصححه الألباني. وفي رواية الترمذي: قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**» ينطبق على هذه الدعوات، وهذا خطأ، فالدعوات المعاصرة متفاوتة فيما بينها قربًا وبعدًا من مثل ما كان عليه رسول الله وصحابته الكرام ولذلك فلا يجوز التعميم.

وقد بين الشاطبي رحمه الله في (الاعتصام) ضابط الحكم على تجمع معين أنه من الفرق الضالة فقال: «وذلك أن هذه الفرق إنما تعد فرقًا بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين، وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات، إذ الجزئي والفرعي الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق

شيعًا، وإنما ينشأ التفرق عند وقع المخالفة في الأمور الكلية».
إلى قوله: «ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة»[١] الاعتصام جـ٢/ ٢٠٠

وعلى ذلك: فمن جماعات الدعوة والعمل في الحقل الإسلامي من هم من أهل البدع والضلالة لكونهم على بدعة مخالفة للسنة ويدعون إليها، ومنهم من يجمع بين السنة والبدعة، ومنهم من ينتسب إلى أهل السنة والجماعة بحسب تمسكه بما عليه أهل السنة والجماعة.

هناك فارق بين أهل السنة وأهل القبلة، فليس كل من انتسب للقبلة يكون من أهل السنة، بل قد يكون من أهل البدع والأهواء كحالة الخوارج الذين لم يكفرهم علي ﷺ ولا جمهور الصحابة.

وفي شرح الطحاوية ص٢٨٦: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين

(١) نقلًا عن «الضوابط الشرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية والوحدة الإسلامية» للشيخ سعيد عبد العظيم حفظه الله. ط. دار الإيمان الإسكندرية ص١٧

مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين».

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكُمُ الْـمُسْلِمُ، لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا**».

وقال أيضًا: «ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله».

فرد بذلك على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب، كما رد على المرجئة فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهؤلاء في طرف، والخوارج في طرف، وكلاهما على ضلالة خالفوا بها ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام(١).

وأهل السنة هم الطائفة الظاهرة المنصورة، وهم خير الناس للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحافظون على الجماعة ويلتزمون الطاعة في المعروف، ولاؤهم للحق وحده، يوالي بعضهم بعضًا ولاءً عامًّا، ويعذر بعضهم بعضًا، فالولاء والعداء عندهم على أساس الدين، ولا يمتحنون الناس بما

(١) المرجع السابق بتصرف: ص١٢٠، ١٢١

ليس من عند الله[١] وهم ملتزمون بما كان عليه صحا
النبي ﷺ من أمور الاعتقاد والعبادة والمعاملة والأخلا
والسلوكيات.

وسبب الضلال والخروج عن أهل السنة والجماعة إ
الجهل بالحق فيكون الحكم بالظن لا بالعلم، وإما الحكَ
بالهوى، فيكون الحكم بالظلم لا بالعدل.

وقد يدفع إلى الضلالة الغلو في الدين، أو التعصب لشخص
يحبه يوافق من وافقه ويعادي من يعاديه ويفرق بين جما
المسلمين بذلك.

والخلافات بين المسلمين اليوم ترجع إلى ثلاثة أنواع:

١- فمنها ما يرجع إلى اختلاف التنوع، وهذا يج
استثماره، والتعاون عليه، ولا يصح أن نسعى لإلغاء ه
الاختلاف؛ لأنه بالتكامل فيه يتم الواجب ويتحقق المقصود.

٢- ومنها ما يرجع إلى اختلاف التضاد السائغ، وهذا يج
احتماله وأن يسعنا كما وسع سلفنا الصالح، ولا يفسد ال
والمحبة بيننا. ولكن يلزم ضبطه جيدًا، والرجوع إلى أهل الع
عند الاختلاف.

---

(١) المرجع السابق: ص١٢٢

٣- ومنها ما يرجع إلى اختلاف التضاد غير السائغ، وهذا يجب علاجه بمحاربة ما خالف الكتاب والسنة من البدع والضلالات والأقوال الباطلة، والاجتماع على منهج أهل السنة والجماعة، والعمل على نشره بتفاصيله، وهذا يقتضي تحقيق هذا المنهج، وتحديده تحديدًا مفصلًا في قضايا العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق والدعوة ومناهج التغيير...إلخ. مع الالتزام في ذلك بطريقة السلف الصالح ومنهجهم.

وهذه هي الوسيلة المثلى لتقارب الصفوف واجتماع الكلمة [(١)]

وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير، مع التجرد والإخلاص والعمل المستمر.

وقد دلت الأحاديث المرفوعة والآثار عن الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان على أن السبل التي نهى الله عن اتباعها هي البدع والشبهات والشهوات المحرمة والمذاهب والنحل المنحرفة عن الحق وسائر الأديان الباطلة.

عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ خط خطًّا بيده ثم قال:

---

(١) راجع في ذلك (الضوابط الشرعية) للشيخ سعيد عبد العظيم حفظه الله ص١٩٥ ، ١٩٦

« هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلاَّ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ». ثـ
قرأ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣][١]

فالاعتصام بالكتاب والسنة هو سبيل النجاة، والعاصم من الخلاف والفرقة، وهو أيضًا سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]. والحق واحد، وهو أبلج وعليه نور. والباطل كثير متشعب وهو لجلج عليه ظلمة، فاعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه، وخذ الحق من كل من أتاك به، ورد الباطل على صاحبه كائنًا من كان، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين[٢]

❊ ❊ ❊

(١) رواه الإمام أحمد والنسائي بإسناد صحيح.

(٢) الضوابط الشرعية: ص١٤

٣- الشمولية في الدعوة

☐ رفض النظرة الجزئية للدين:

لقد أثرت النظرات الجزئية التي اصطنعها المسلمون في العصور المتأخرة في نقص الفهم الصحيح للإسلام وعدم كمال العمل به.

لقد عرف الأوائل النظرة الصحيحة الشاملة لكل جوانب الإسلام المتعددة وكونوا منها في صدر الإسلام وحدة متماسكة مترابطة لا تنفصل، ثم جاء المتأخرون فعزلوا بعض جوانب الدين عن بعض.

فالجانب الاعتقادي تولاه المتكلمون.

والمعاملات والعبادات تولاها الفقهاء.

والأخلاقيات والسلوكيات تولاها المتصوفون.

وغالت كل فئة في الجانب الذي تصورته، وانعزل كل فريق بالجانب الذي اعتنى بدراسته، فضاع العمل بالإسلام ككل، وضاع بذلك الارتباط الحيوي والتأثير المتبادل بين جوانب الإسلام المتعددة. مما أدى إلى تشتيت العقلية والنفسية المسلمة.

ومع جنوح كل طائفة إلى الغلو في منهجها في الجانب الذي تعاملت معه انحرفت بفهمها عن الفهم الصحيح للإسلام في

الشاملة. وشتان ما بين حال هؤلاء وحال السلف الأول من الصحابة ﷺ في فهمهم للإسلام والعمل به فقد كان فهمهم فهمًا عميقًا شاملًا.

ولهذا فالحاجة ملحة في هذا الزمان إلى عرض الإسلام والدعوة إليه والعمل به في صورة مبرأة من الشوائب والتشويه، صورة شاملة تستوعب جميع الجوانب والأجزاء، مع حفظها مترابطة، وحفظ نسبها ومواقعها إلى بعضها البعض، وهذه الصورة ليست جديدة ولا مبتدعة، ولكنها صورة قديمة، وردت في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧]. فعبادة الله فيها الركوع والسجود، والعبادة من فعل الخير، ولكن ورود الأمر بالعام بعد الأمر بالخاص فيه تنبيه على فعل كل خير، وإتيان كل عبادة، بجوار الركوع والسجود. أي العمل بكل أعمال الإسلام.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال ابن عباس وغيره: ﴿ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ يعني: الإسلام ﴿كَآفَّةً﴾ يعني: جميعًا. وقال مجاهد: أي: اعملوا بجميع

الأعمال ووجوه البر.

فهذا أمر من الله تعالى لأهل الإيمان بالعمل بالإسلام كله.

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين ب المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا مر ذلك». ا.هـ.

قال الآلوسي رحمه الله: «والمعنى: ادخلوا في الإسلام بكليتكم ولا تدعوا شيئًا من ظاهركم وباطنكم إلا والإسلام يستوعبه بحيث لا يبقى مكان لغيره».

وقال أيضًا: «وقيل: الخطاب للمسلمين الـخُلَّصُ، والمرا من ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾: شعب الإسلام، و﴿ كَآفَّةً ﴾: حال منه والمعنى: ادخلوا أيها المسلمون والمؤمنون بمحمد ﷺ فِ شعب الإيمان كلها، ولا تخلوا بشيء من أحكامه». ا.هـ.

قال المودودي رحمه الله في (تذكرة دعاة الإسلام) في تفسيـ الآية:

«أي بمجموع حياتكم، بحيث لا يشذ عن سلطانه شيء وا يند عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها، فلا يكن من شأنكم فـ ناحية من نواحي حياتكم أن تتجردوا من عبوديته الشاما فتحسبوا أنفسكم أحرارًا في شؤونكم تختارون من المناهـ

والأوضاع ما تريدون أو تتبعون من النظم والقوانين الوضعية المستحدثة ما تحبون». اهـ.

والشمولية ليست كلمة تقال، ولا ادعاء يزعم، ولكنها حقيقة واقعة عند التطبيق والأداء، فكم من جماعة تدعي الشمولية، وأعمالها تخالف هذا الادعاء، بما تقوم به من أعمال تنافي الشمولية في الإسلام.

ومما ينافي الشمولية في الإسلام:

- **تقسيم الدين إلى قشور ولباب:**

وهذا تقسيم محدث في فهم الكتاب والسنة، والعمل بهما لا يعرف عن سلفنا الصالح، لا قاله أحد، ولا عمل به أحد. وبمقتضى هذا التقسيم المبتدع تكون هناك أعمال من الدين هي من لبابه فينبغي الاعتناء بها والقيام بأدائها، وأعمال هي من القشور لا تعطى هذه الأهمية وهذا الاعتناء، فيفرق بين هذا وذاك، ويهتم بهذا دون ذاك.

أما المقياس في ذلك والذي به تقسم أعمال الدين بين قشور ولباب فهو مقياس متغير ليس بثابت، وإن شئت قلت: هو بالأهواء والميل، فقد تعد الواجبات الدينية لبابًا، وسنن

النبي ﷺ القولية والعملية هي القشور!![1] وقد يفرق بين الواجبات الدينية نفسها فيقدم بعضها على أنه اللباب ويقدم الآخر بصفته قشورًا.

بل وقد يمتد التقسيم إلى قضايا التوحيد فيهمل بعضه ويترك، فلا إلحاح في العمل به، ولا دعوة إليه، إذا لم يقبل عليه الناس اعتقادًا وعملًا، أو خالفوه عبادة وأفعالًا، فيصير التهاون في شأنه مطلوبًا لتأليف القلوب (مثلًا) ولمنع (صد مشاعرهم) بذلك الآن، ولمنع (التنافر) و(الاختلاف) بسببها فتجعل قشورًا، وجمع الناس على ما اعتادوه وأحبوه وألفوه لبابًا.

ومثل ذلك مع الكثير من البدع، فيهمل شأنها، تارة بأن الائتلاف في وجودها خير من الاختلاف في التحذير منها، أو أن هناك بدعًا إضافية وأخرى حقيقية وبدعًا جزئية وبدعًا كلية، فالأولى تعد قشورًا يمكن إهمالها والثانية لبابًا يمكن الخوض فيها على وجه النصح والإرشاد!!

---

(١) ومعلوم أن أداء المندوبات وترك المكروهات تشغل جزءًا كبيرًا من أحكام الدين، في العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوكيات ولا يكمل إيمان العبد إلا بامتثالها.

وكثير من الجهال يتمسحون بهذه البدعة (بدعة التقسيم) لترويج العمل بالمعاصي لدى المستهترين، فلا يهتمون ببعض أعمال الدين وبعض شرائعه الظاهرة التي يسمونها (شكليات) أو (قشورًا) ويدندنون فقط حول العمل والتمسك (باللباب)، ومن ثم إهمال الظاهر احتجاجًا بصلاح الباطن. ولسان حالهم أنهم (يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض).

ومن هذا القبيل: تقسيم الدين إلى أصول وفروع[١]، ثم التسامح في الفروع، بدعوى الاكتفاء بالاتفاق على الأصول، لذا يتساهلون في كل قضية يرونها (فرعية) بزعم الحرص على جمع الأمة ومنع وقوع التفرق فيها!!!

وفي ثنايا ذلك كله تجد الكثير منهم يتبعون الرخص دون تحر، ويأخذون بزلات العلماء وأقوالهم المرجوحة[٢]، بدعوى

---

(١) تقسيم الدين إلى أصول وفروع ليس من فعل السلف أيضًا، ولكن من قال بذلك من العلماء أرادوا التفريق النظري بين مسائل الأصول في العقيدة والتوحيد وبين مسائل الفروع في العبادات والمعاملات والأخلاقيات والسلوكيات. انظر التعليق السابق في التقسيم الشرعي والاصطلاحي.

(٢) وقد تسبب تقسيم الدين إلى قشور ولباب إلى ترك تحري الحق في مسائل الخلاف بين العلماء ومنها مسائل اختلفوا فيها هل هي =

(من قلد عالـمًا خرج سالـمًا).

وأخطر ما في التساهل أن ينسحب بلا قيد على كثير من أحكام الشريعة التي لا توافق الأهواء، بحيث لا يبقى بعد ذلك مجال للدعوة إلى اجتناب المحارم وتعظيم الشعائر، وتصبح الشريعة ألعوبة في يد المنحرفين عن أحكامها، يعظم أحدهم ما يهمله الآخر، بل أخطر من ذلك انتقال هذا التساهل إلى أصول الدين ومسائل العقيدة والتوحيد.

إن قسمة الدين إلى قشر ولُبٍّ تؤثر في قلوب العوام أسوأ تأثير، وتورثهم الاستخفاف بالأحكام الظاهرة، وينتج عنها الإخلال بهذه الأمور التي سميت قشورًا، فلا يلتفتون إليها، ولا يبالون بمخالفتها وترك العمل بها[(١)]

ولا يخفى أن الله - سبحانه - أنزل دينه على نبيه ﷺ ليبني

= حرام أم حلال. فجاء هؤلاء وتركوها بالكلية حفاظًا على الوقت والجهد أن يضيع في معرفة حكم الله!! وتيسيرًا على الناس!!! ولأنها أولًا وأخيرًا من القشور!!

(١) راجع في ذلك: «أدلة تحريم حلق اللحية» للشيخ محمد بن إسماعيل ص١٠٩ ، و«رسالة تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب» ط. دار الفرقان، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤٠٥هـ.

به الإنسان المسلم، فيكون به سعيدًا في الدنيا والآخرة، ولا يخفى على ذي عقل أن كل أمر ونهي من أوامر هذا الدين ونواهيه تسهم إسهامًا فعالًا في بناء هذا الإنسان، سواءً أكانت من المندوبات أم من الواجبات، وسواءً أكانت من المكروهات أم من المحرمات؛ لأن جميع هذه الأحكام هي شعب الإيمان التي قال فيها ﷺ: **«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَفْضَلُهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَوْضَعُهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»**[(١)] فأيما شعبة نقصت منها كانت نقصًا من الإيمان، وأيما شعبة التزمها المسلم كانت زيادة في إيمانه؛ لأن الإيمان يزيد وينقص بالقول والعمل، وهو مذهب السواد الأعظم من الأمة.

فإن قيل: واقعنا المعاصر والفتن والمصائب النازلة بالمسلمين، والمؤامرات والهجمات التي توجه إليهم، توجب علينا تقديم وحدة الصف المسلم، وجمع كلمة المسلمين على النظر في خلافات العلماء في مسائل الفروع، وشغل الناس بشكليات ومظاهر. فالواجب الآن التركيز على مسائل الدين المجمع عليها وأصوله المتفق عليها وترك ما سواها، خاصة

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

وأن مسائل الخلاف في الفرعيات قديمة، وأقوال العلماء فيها متضاربة، وترجيح أحدها ليس بالسهل ويستهلك أوقاتًا أولى أن تصرف الآن في حماية الإسلام من الزوال والمسلمين من الاستئصال، بل إن هذا الخلاف في الشريعة رحمة وتوسعة، فيأخذ كل إنسان منها ما يناسبه دون أن ينكر أحد على أحد، ولسنا جميعًا علماء، فلا عيب علينا ولا انتقاص إن اتبعنا أقوال غيرنا من أهل العلم وأئمة الدين. إن مشاكل المسلمين اليوم والخطر الذي يحدق بهم يفرض علينا أن تتجه هممنا إلى مواجهتها وإعطائها الأولوية، ولا ينبغي تضييع الوقت في الدعوة إلى شكليات وفرعيات.

والجواب:

يقول الشيخ محمد بن إسماعيل - حفظه الله:

إن ترك الواجب الشرعي مخافة الفتنة الظنية هو في حد ذاته فتنة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

ولا تكون الفتنة حادثة بسبب التناصح بين المؤمنين بالتي هي أحسن، وإنما تحدث من الجدل والعناد مع وضوح الحق وبيان الحجة.

إن ما ذكرتموه من اضطهاد المسلمين وضعفهم وتآمر

أعدائهم ...إلخ، كل هذا حق، ولكنكم أُتيتم من خلطكم الأمور، فكلامكم قد يكون حقًا إذا سلمنا لكم أن التمسك بالفرعيات يتعارض مع مواجهة تآمر الأعداء وجهادهم، والحق أنه لا يلزم التعارض بينهما، إذ إن بيان الحق في الأمور الفرعية لا يتعارض مع جهاد الأعداء إذ كان الهدف هو حقًا بيان الحق مع البعد عن الجدل العقيم.

وقد واجه الرعيل الأول أخطارًا تهدد كيانهم، ولم يحملهم ذلك على ترك الفرعيات وتقرير الحق فيها وإلزام أنفسهم باللازم منها[١]، ومع ذلك سادوا الأمم، وأسقطوا عروش الكفرة وأقاموا صرح الإيمان شامخًا. والذي يفت في عضد المسلمين هو من يجادل في الحق بعد ما تبين[٢]، ويصر على عدم

(١) واجه الرعيل الأول خطر المرتدين ومدعي النبوة، ثم قتال فارس والروم، ومع ذلك لم يتوانوا عن نشر العلم والسنة، ولم يتبرموا من النظر في المسائل العلمية وعرض الآراء والنصح والإرشاد في مسائل الخلاف المعتبر، والإنكار على المخالف في مسائل الخلاف غير المعتبر. فينبغي السير على ما كانوا عليه والتأسي بهم إذ إن ذلك فيه ظهور الإسلام، ولا يعارض – كما ترى – الجهاد في سبيل الله والتصدي لمؤامرات أعداء الإسلام.

(٢) بمخالفة ما ثبت دليله من الكتاب والسنة.

الانقياد له، ويثير الجدال بشبهات سقيمة، وليس من يدعوهم إلى التمسك بالكتاب والسنة، وإذا كان الكفار مخاطبين بفروع الشريعة على الأرجح[1]، فكيف بالمسلمين الذين قال تعالى في حقهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، دون تفريق بين فروع وأصول وبين ظاهر وباطن وبين قشر ولُبٍّ. وربنا جل وعلا قد أمر المؤمنين بالقيام بما شرعه من دينه - ولو كان من القضايا العلمية التي يسمونها فروعًا - في أشد أوقات الكفاح وهو وقت الالتحام المسلح مع

---

(١) من أدلة هذا الترجيح: قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٤]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٤]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ الآية [الفرقان:٦٨، ٦٩]؛ لأن الآية في مضاعفة العذاب في حق مَنْ جمع بين المحظورات المذكورة.

الأعداء، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢].

وما يتوهمه هؤلاء المخالفون ما هو إلا نتيجة لتخيلهم أن النسبة بين (مواجهة الأعداء والانتصار عليهم) وبين (تعلم المسائل الفرعية والتمسك بها وإن دقت) إنما هي تباين المقابلة، كتباين النقيضين: كالعدم والوجود، والنفي والإثبات، أو تباين الضدين: كالسواد والبياض، والحركة والسكون، أو تباين المتضائفين (كالأبوة والبنوة)، والفوق والتحت، أو العدم والملكة كالبصر والعمى.

فإن الوجود والعدم لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد من جهة واحدة، كذلك الحركة والسكون مثلًا، وكذلك الأبوة والبنوة، فكل ذات ثبت لها الأبوة لذات استحالت عليها البنوة لها، بحيث يكون شخص أبًا وابنًا لشخص واحد، كاستحالة اجتماع السواد والبياض في نقطة بسيطة أو الحركة والسكون في جِرْم، وكذلك البصر والعمى لا يجتمعان.

فتخيل هؤلاء أن مواجهة الأعداء والتمسك بالفروع متباينان تباين مقابلة بحيث يستحيل اجتماعهما، فكان من

نتائج ذلك هذه المعارضة المتهافتة. والتحقيق أن النسبة بين الأمرين بالنظر إلى العقل وحده، وقطع النظر عن النصوص النقلية إنما هي تباين المخالفة.

وضابط المتباينين تباين المخالفة أن تكون حقيقة كل منهما في حد ذاتها حقيقة الآخر ولكنهما يمكن اجتماعهما عقلًا في ذات أخرى: كالبياض والبرودة، والكلام والقعود، والسواد والحلاوة.

فحقيقة البياض في حد ذاتها تباين حقيقة البرودة، ولكن البياض والبرودة يمكن اجتماعهما في ذات واحدة كالثلج. وكذلك الكلام والقعود، فإن حقيقة الكلام تباين القعود، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعدًا متكلمًا في وقت واحد

وهكذا فالنسبة بين (جهاد الأعداء ومواجهة تآمرهم) وبين (الدعوة إلى الفروع والتمسك بها وتعليمها للناس) من هذا القبيل، فكما أن الجرم الأبيض يجوز أن يكون باردًا كالثلج والإنسان القاعد يجوز عقلًا أن يكون متكلمًا، والتمرة السود يجوز عقلًا أن يكون مذاقها حلوًا، فكذلك المتمسك بالفرو يجوز عقلًا أن يواجه أعداءه ويجاهدهم، إذًا لا مانع في حكم العقل من كون المحافظ على أوامر الله واجتناب مناهيه مشتغ

بجهاد أعدائه بكل ما في طاقته كما لا يخفى[(١)]، وكما عرفه التاريخ لنبينا ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أما بالنظر إلى أدلة الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج: ٤٠]، وقوله ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧] وغير ذلك من النصوص. فإن النسبة بين التمسك بالشعائر الإسلامية وبين تنزيل النصر من الله جل وعلا كالنسبة بين الملزوم ولازمه؛ لأن التمسك بالدين هو ملزوم النصرة، بمعنى أن يلزم عليه الانتصار كما صرحت الآيات وهؤلاء المخالفون أظهروا للناس أن الربط بين الملزوم ولازمه كالتنافي الذي بين النقيضين والضدين، وهؤلاء بدورهم أذعنوا لهم لسذاجتهم وجهلهم، وأنتج ذلك نفرة في قلوبهم بمجرد سماع من يتكلم في الفروع إيهامًا له بأنه يبطل بذلك الجهاد. هذا وإن من البديهي أن فاقد الشيء لا يعطيه ولا يستقيم الظل والعود أعوج.

والدولة المسلمة لن تقوم إلا على أكتاف أولى العزم الذين يلتزمون بكافة أحكام الشرع، ويوافقونها في ظاهرهم وباطنهم

---

(١) بل هذا أرجى - لما فيه من تقوى الله - لتأييد الله ونصره، وهزيمة الأعداء.

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

والدولة المسلمة ما هي إلا ثمرة لتمسك جنود الإسلام بكل شرائع دينهم، والدعوة الإسلامية الأمينة على الإسلام لا تساوم على شيء من أحكامه، ولكنها تحفظها كلها أداءً للأمانة وإعذارًا لنفسها أمام الله تبارك وتعالى.

ولا شك أن إنكار المنكرات المتعلقة بالنفس - مع فقدان المانع من تغييرها - من أيسر الأمور، فإذا تساهلنا في هذا مختارين فكيف ننكر على غيرنا؟ وقد أخبرنا الله ﷻ أن مصدر الخيرية لهذه الأمة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأخبر أن من أسباب ضعف المجتمع ترك التناهي عن المنكرات والأمر بالمعروف فقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. وتوعدنا رسول الله ﷺ أن يصيبنا ما أصابهم إذا فعلنا مثل فعلهم، وقد عاقب الله من ضيع حظًّا من شريعته في قوله تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا

ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: ١٤]. ودلنا رسول الله ﷺ على المخرج من فتنة الافتراق. بقوله: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُل ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ».

فالمسلمون إذا نزلت بهم مخمصة وشدة فإن من أسباب جلاء الغمة عنهم المزيد من التمسك بالسنن والبراءة من البدع وليس مهادنة أهل البدع وتثبيط الدعاة إلى السنن[1]

● قياس فاسد:

ومن أقيستهم العقلية التي يلبسون بها على العوام قولهم: إنما مثل من يتكلم في هذه الفرعيات والأعداء محدقون بنا كمثل رجل قائم على الشاطئ، وشخص يعالج الأمواج يوشك أن يغرق وقد لبس خاتمًا من ذهب، فيهتف الأول بالثاني منكرًا عليه لبس خاتم الذهب غير مبال بالخطر المحدق به والذي يودي بحياته.

---

(١) أدلة تحريم حلق اللحية: ص١٢٤ – ١٢٨ للشيخ محمد بن إسماعيل.

وجواب هذا أن يقال:

أنتم تقيسون فرعًا على أصل ليس بينهما أي تماثل، والأصل المقيس عليه حالة ضرورة، فلا شك يقدم دفع الضرر الأكبر الذي هو تلف النفس على المنكر الأصغر الذي هو لبس الرجل خاتمًا من ذهب، فكذا إذا دهمنا الأعداء نَنفر جميعًا لمواجهتهم دون التفات إلى خلافات فرعية انشغالًا بالمنكر الأكبر. أما الفرع المقيس وهو وضع مجتمعاتنا في هذا الزمان فلا شك أنه في بلادنا - على الأقل - دون حالة الضرورة التي فيها تتلف الأنفس والأديان ويهلك الحرث والنسل، وينفر المسلمون نفيرًا عامًّا بما فيهم الشيوخ والنساء.

«وقد يستنكر هذا الكلام لأول وهلة، أو يساء الظن بقائله، ولكني آتي بالدليل عليه من واقع حياة المعترضين أنفسهم فأقول: هل واقع حياتكم مثل واقع رجل يلقي بنفسه في المخاضة ولا يلوي على شيء لينقذ غريقًا يصارع الأمواج ويوشك على الغرق؟ وهل هو واقع قوم أتاهم النذير ونودي فيهم بالنفير العام؟ لماذا إذن تحيون حياة رتيبة تتمتعون فيها بالحاجيات بل الكماليات والتحسينيات، تطعمون الفواكه، وتتنعمون في الفرش، وتتنزهون في المتنزهات، وكل هذا لا ينكر عليكم ولا تستنكرونه من غيركم قائلين: «إن الإسلام

مهدد في وجوده، والمسلمون مضطهدون، وأنتم تأكلون الفواكه وتتنعمون بالفرش وتتنزهون في المتنزهات». فلماذا إذن تضعون العوائق في طريق السنة، وتضربون لها الأمثال، وترهقون عقولكم في استخراج أمثال هذه الأقيسة العقلية الفاسدة، أفكانت سنة رسول الله ﷺ أهون عليكم من هذه التفاهات الدنيوية؟

أفلا يردعكم عن هذا التثبيط قول أمير المؤمنين عمر ﷺ: «دعوا السنة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي». ولا قول سفيان: «استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء». ولماذا لا تصرفون جهدكم إلى محاربة المعاندين للسنة المجادلين بغير الحق عن البدع؟

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلًا هو أصدق من قياساتكم الفاسدة حين قال: **«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْـمُدْهِنِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْـمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ. فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا**

والشرط الثاني: موافقة العمل نفسه لشرع الله تبارك وتعالى. فيكون مطابقًا لهديه ﷺ وإلا كان ابتداعًا في الدين، وتقربا لله بما لم يتقرب به إليه النبي ﷺ

وفي الحديث قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

فالشرط الأول: إصلاح للباطن، بإصلاح النية وسلامة القلب.

والشرط الثاني: إصلاح للظاهر، بموافقة الشرع والسير على أحكامه.

وهذان الشرطان لازمان لصحة العمل وقبوله مهما كان هذا العمل.

فلا فرق بين عقيدة وعبادة، ومعاملة وسلوك، واجب ومندوب، أقوال أو أفعال.

وقد جمع الله تعالى ذكر هذين الشرطين في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال: أخلصه وأصوبه.

فالعمل إن كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل. وإذا كان موافقًا للشرع لا يقبل إلا أن يكون خالصًا لله. والإخلاص: إرادة الله وحده بالعمل.

والصواب من الأعمال: ما وافق هديه ﷺ وسنته.

بل إن القلب لا يكون صالحًا وسليمًا وممتلئًا بمحبة الله وخشيته إلا بالتزام ما يحبه الله ﷻ ويرضاه من الأعمال والأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ويظهر أثر ذلك على الجوارح واللسان، مع اجتناب المحرمات وتوقي الشبهات، والأخذ بالزهد والورع والإعراض عن اتباع الهوى وحب الدنيا.

ولا يتصور قلب صالح لعبد مؤمن صالح ومعه معاندة للشرع ومخالفة له وإعراض عن بعض أحكامه، وتفريق بين أوامره، وعدم الانقياد له انقيادًا (باطنيًّا) بالقلب وانقيادًا (ظاهريًّا) بالجوارح واللسان.

إذا عرفنا ذلك يتبين لنا بوضوح خطأ تقسيم الدين إلى قشور ولباب، وقطعنا الطريق على محبي المعصية والفساد في الأرض الذين يتحصنون بدعاوى حسن النية في ارتكاب المخالفات الشرعية.

فإن قيل: النبي ﷺ قال في الحديث: « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى

صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ». رواه مسلم. فلم يعلق الحديث قبول الله للعبد على ظاهره من حيث صورته وماله ولكن على صلاح قلبه وعمله.

فالجواب:

بيَّنا منذ قليل أهمية سلامة القلب وإخلاص العمل لله، وأن ذلك يعد شرطًا في صحة العمل. وبينا أن موافقة العمل للشرع شرط ثانٍ في صحة العمل.

وهذا الحديث لا يخالف ما بيناه فهو لم يقصر قبول الله ﷻ للعبد على قلبه فقط ولكن على عمله أيضًا، فقال ﷺ: «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » وهذا الشرط الأول لصحة العمل. ثم قال ﷺ: «وَأَعْمَالِكُمْ». وهذا هو الشرط الثاني الذي ذكرناه. فالحديث حجة على المخالف لا له.

فإن قيل: أليس من فقه الداعية أن يراعي أولويات الدعوة، وأن يقدم الأهم على المهم، والواجبات قبل المندوبات، وكبائر الذنوب على صغائرها. وذلك كله للمصلحة بتقديم أهم الأمرين، وتحقيق أعظم المعروفين، وتفويت أكبر الضررين. فهذا من جنس هذا. أي أن تقسيم الدين إلى قشور ولباب بحسب أحوال الناس من جنس هذا التقديم للأولويات والاعتناء بالأهم.

فالجواب:

أن تقديم شيء على شيء، لا يعني إهمال الدعوة للآخر، ولكنه بدء بالأهم، ليتمثل به، ثم يتبعه الأمر بالثاني. وهذا التقديم مراعاة للأولوية يرجع إلى فقه الداعية وحالة المدعو.

فالأمر بأداء الصلاة المتروكة مقدم على الأمر بصيام التطوع مثلًا.

والنهي عن شرب الخمر مقدم على النهي عن تأخير الصلاة لآخر وقتها مثلًا وهذا في حق الفرد الواحد.

ولكن مع الامتثال للأمر الأول فلا مانع من الانتقال إلى الدعوة إلى الأمر الثاني.

أما في حق المجتمع ككل والدعوة عامة، فتكون الدعوة شاملة لكل واجبات الدين ومندوباته ومتضمنة النهي عن كل محرمات الدين ومكروهاته، وبيان ذلك كله للأمة داخل في الدين لينقل إلى الناس كاملًا ويعمل به في الأمة تامًّا.

فتبليغ كل الدين مطلب شرعي وواجب كفائي.

وفي الحديث: « **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ** ».

وفي الحديث: «**رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا كَمَا**

سَمِعَهَا».

فتبين الفارق بين تقسيم الدين إلى قشور تترك ولباب يعتنى به، وبين التدرج في حق المدعو وتقديم الأهم على غيره في حثه على الامتثال بتعاليم دينه وإنكار ما هو عليه من منكرات.

ويدل على فساد تقسيم الدين إلى قشور ولباب اعتبارات عديدة منها:

١- قوله ﷺ: « **أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ**»(١)

وعموم الحديث لم يفرق بين أمر وأمر، فكل مخالف للشرع سواءً خالف في قشر أو لباب فوجب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقول الحق له.

فإن سكت خشية أن يتهمه الناس مثلًا بالتعصب، أو التزمت، أو الاهتمام بالسفاسف من الأشياء، أو مخالفة العرف السائد، أو الخروج على مألوف الناس، أو تساهلًا وإعراضًا، أو تجنبًا لنقد الناقدين، أو لئلا يقال: إنه لا يعرف حق العصر

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد بسند فيه ضعف، لكن له متابعات وطرق تقويه. وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني رحمه الله رقم (١٦٨).

أو غير ذلك من الأعذار التي لا تقبل عند الله سبحانه وتعالى، فهو آثم يستحق الذم والعقوبة.

٢- أن العلماء يعرفون الحكم الشرعي بأنه «خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل التخيير أو الطلب تركًا أو فعلًا» وما يسمونه قشورًا من أعمال الدين داخل في دائرة الأحكام الشرعية الخمسة. فكيف يسمى حكمًا من الأحكام الخمسة هو خطاب متعلق بأحكام المكلفين أنه من القشور، على سبيل التهوين منه، وكيف يفرق بين أحكام الشرع المختلفة بظن فاسد لا سند له ولا دليل عليه.

٣- أن كل مجتمع محتاج إلى العمل بالدين كله: آدابه ومعاملاته وعباداته وعقائده، والدعوة إلى ذلك كله من مهام الدعاة، وكل انتقاص لشيء من هذه الأشياء انتقاص من الدين والإيمان ويخشى مع ترك العمل به والدعوة إليه أن يظل مفقودًا في هذا المجتمع، وتتوارث ترك العمل به الأجيال اللاحقة.

وفي الحديث: « لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضاً

الْـحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلاَةُ»[(١)]

٤- أن التفريط في الأمر الصغير يؤدي إلى التفريط في الأمر الكبير؛ لأن استمرار هذا التفريط ينشئ في الإنسان عادة تنتهي به إلى التهاون فيما يفعل، والأمة كلها تعلم أن هناك كثيرًا من عرى الدين وأحكام الإسلام مُقصَاة عن واقعهم، ولا يستطاع الوصول إليها أو التحدث عنها، وبعض هذه العرى مما يترتب عليه إقامة حكم الله في الأرض، وحماية بيضة الإسلام، فهل من الحكمة والإيمان معًا أن يترك الداعية الدعوة إلى ما بقى من عرى الدين وأحكام الإسلام - وأغلبها مما يدخل في عداد القشور - بزعمهم - بعذر أنه لا يقدر على هذه أو تلك منها؟ إنه لقول عجاب، وأي الأمرين يكون أحسن، أن يدع القادر على البعض، هذا البعض المقدور على فعله، للبعض غير المقدور عليه؟ أو يدع غير المقدور عليه للمقدور عليه فيفعله؟

٥- أن هذا التفريق لم يعرف في سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، فقد كانوا أحرص الناس على الاستجابة لكل أمر فيفعلونه، وعلى كل نهي فيجتنبونه، تحقيقًا لقوله ﷺ: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة بسند صحيح.

فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

لقد نشأت هذه المقولة الحادثة من خضوع العقل المسلم للثقافات الغربية التي أخذت عليه أقطاره وسدت عليه طرائقه التي وصلت به من قبل إلى الهدى والحق، وخير الهدى ما استقر عليه الأمر في القرون المفضلة الأولى التي عاشت بالإسلام كله عقيدة وشريعة.



بها إلى الله تعالى مع بدعيتها.

إذ يندرج تحت هذا التفريق التغاضي عن عديد من البدع المنتشرة في البلاد، كصلاة الرغائب وصلاة ليلة النصف من شعبان وزيارة المقابر في أول خميس من رجب وصيام السابع والعشرين من رجب وقراءة القرآن بين الأذان والإقامة جهرًا في المسجد في صلاتي الفجر والعصر والقراءة قبل صلاة يوم الجمعة . . إلخ.

فأصل مادة (بدع): الاختراع على غير مثال سابق. ومنه قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧] أي مخترعهما من غير مثال سابق. ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد بل تقدمني كثير من الرسل؛ لأنهم كانوا يعجبون من إرساله إليهم وهو بشر مثلهم.

يقال: ابتدع فلان بدعة إذا ابتدأ طريقة لم يسبق إليها. وهذا أمر بديع: يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن.

فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لا دليل عليه من الشرع بدعة، وهو إطلاق أخص منه في اللغة والفاعل للبدعة هو المبتدع.

□ تعريف البدعة وبيانه:

البدعة: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه.

الطريقة: ما رسم للسلوك عليه .

الدين: ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله ... من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاقيات.

وقيدت الطريقة بالدين: احترازًا عما يخترع في الدنيا فإنه لا يسمى بدعة.

ومعنى مخترعة: أنها لم يكن لها أصل في الشريعة، وبهذا القيد انفصلت عن كل ما ظهر لبادئ الرأي أنه مخترع مما هو متعلق بالدين كالنحو وأصول الفقه وسائر العلوم الخادمة للشريعة فإنها وإن لم توجد في الزمان الأول، فلها أصل في الدين فلا تسمى بدعة.

تضاهي الشريعة: أي أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك كتخصيص يوم النصف من شعبان بصيام، أو ليلته بقيام، فإنه طريقة في الدين مخترعة تضاهي تخصيص الشرع أيامًا وليالي بأعيانها دون غيرها بصيام أو قيام كصوم يوم عاشوراء والأيام الأولى من ذي الحجة وكقيام ليلة القدر والعشر الأواخر من رمضان. فإن صاحب البدعة إنما

يخترعها ليضاهي بها السنة حتى يكون ملبسًا بها على غيره، أو تكون هي مما تلتبس عليه بالسنة. إذ إن الإنسان لا يقصد الاستتباع بأمر لا يشابه المشروع لأنه إذا كان كذلك لا يستجلب بابتداعه نفعًا ولا يدفع ضررًا ولا يجيبه غيره إليه. ولذا ترى المبتدع ينتصر لبدعته بأمور توهم موافقة التشريع ولو بدعوى الاقتداء بفلان المعروف مقامه في أهل الكمال.

فلا بد في حد البدعة من اعتبار مضاهاة الأمور المشروعة، وأن يكون إحداثها على أنه دين وشرع بحيث يكون المحدث لها مضاهيًا ونظيرًا للشرع في وضع التشريع.

يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى: هذا تمام معنى البدعة إذ هو المقصود بتشريعها، وذلك أن أصل الدخول فيها يحث على الانقطاع للعبادة والترغيب فيها، فكأن المبتدع رأى أن المقصود هذا المعنى ولم يتبين له أن ما وضعه الشرع كاف في التعبد فاخترع ما اخترع.

بهذا فالعادات لا تدخل في معنى البدعة، فكل ما اخترع من الطرق في الدين مما يضاهي المشروع، ولم يقصد به التعبد، فقد خرج عن هذه التسمية -كالضرائب على الأموال بنسب مخصوصة وقدر مخصوص مما يشبه فرض الزكاة ولم يكن إليها

ضرورة ملجئة - فإنها لا تسمى بدعة[(١)]

والمحصلة: أن البدعة شرعًا ما أحدث بعد النبي ﷺ على أنه دين وشرع بناء على تأويل أو شبهة غير معتد بها. فالمبتدع مشرع ومتبع لهواه، قد جعل نفسه نظيرًا للشارع. لذا فالبدعة لا تكون إلا مذمومة على هذا التعريف.

السنة لغة: الطريقة ولو غير مرضية.

وشرعًا: تطلق في مقابلة البدعة على الطريقة المسلوكة في الدين بأن سلكها الرسول ﷺ، أو السلف الصالح بعده، وهي شاملة بذلك للواجب والمندوب والمباح.

وتخصيص الفقهاء لها بما طلب طلبًا غير جازم اصطلاح طارئ، قصدوا به التمييز بينها وبين الفرض. وشاع بين المتأخرين اختصاص اسم السنة بالاعتقادات؛ لأنها أصل الدين والمخالف لها على خطر عظيم.

١- ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**».

«**أَحْدَثَ**»: أنشأ واخترع من قبل نفسه.

---

(١) أما إذا كان فاعلها يراها مشروعة ويتحرج شرعًا من مخالفتها فقد دخلت قطعًا في البدعة. (وكتبه ياسر برهامي).

والمراد من «أَمْرِنَا»: الدين، كما هو في رواية.

«رَدٌّ»: مردود على فاعله باطل لا يعتد به.

وعند مسلم بلفظ: « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ** ».

وفي هذه الرواية لمسلم رد على أمر قد يحتج به بعض الفاعلين للبدعة من أنه لم يخترع ولم يحدث شيئًا من قبل نفسه وإنما المخترع والمحدث من سبقه وتابعه هو عليه. ويحتج على ذلك بالرواية الأولى فيرد عليه برواية مسلم هذه في رد المحدثات المخالفة للدين الخارجة عما شرعه الله على لسان رسوله سواء أحدثها أو سبق في إحداثها.

٢- عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال في موعظة له لأصحابه: « **فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ** » (رواه أبو داود وقال: حديث حسن).

٣- وعن جابر ﷺ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلاَ صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: « صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ». وَيَقُولُ: « **بُعِثْتُ أَنَا**

وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ ». وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ »(رواه مسلم).

- **ويدل على ذم البدع وأهلها أمور:**

١ - أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة أو النقصان:

قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وفي الحديث: « قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، عضوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ »[1] ليلها كنهارها: أي واضحة لا يشتبه فيها أحد.

وقد بين النبي ﷺ لأمته كل ما تحتاج إليه من أمور الدين، جاء بها مفصلة، فما من شيء يقربنا إلى الجنة إلا وأمرنا به، وما من شيء يباعدنا عن النار إلا ونهانا عنه، وهدانا إلى أمور الدنيا

---

(١) رواية من حديث العرباض بن سارية السابق.

إجمالًا بالقواعد الكلية.

فإذا كان الأمر كذلك فكأن المبتدع الذي يزيد في الشريعة بأشياء يراها واجبة أو مستحبة يقول[١] : «إن الشريعة لم تتم» لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع بدعته.

لذا قال الإمام مالك ﵀: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣].

٢- أن المبتدع معاند للشرع مخالف له:

لأن الشرع عين الطرق التي يتعين على العبد إتيانها، فالشر كل الشر في تعديها إلى غيرها؛ لأن الله تعالى يعلم ونحن لا نعلم، والمبتدع يزعم أنه يعلم طرقًا أخرى، وأن ليس كل ما حصره الشرع بمحصور، وليس كل ما عينه الشرع بمتعين، كأن المبتدع يعلم كما أن الشارع يعلم، بل ربما يفهم من استدراكه على الشارع أنه يعلم أكثر مما يعلم الشارع!!

٣- أن الابتداع اتباع للهوى:

لأن العقل إن لم يكن متبعًا للشرع لم يبق له إلا اتباع الهوى والشهوة، واتباع الهوى ضلال مبين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ

(١) يقول ذلك بلسان حاله.

والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه» . ا.هـ.

لذا كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، والمعصية قد يتوب صاحبها، أما البدعة فنادرًا ما يتوب صاحبها منها إذ إنه يعتقد أنه على هدى وصواب حتى يهديه الله إلى معرفة ضلاله فيتوب. كما أن كل مبتدع عاص وليس كل عاص مبتدعًا.

- **من مفاسد إقرار البدع والسكوت عليها :**

١- السكوت على ما يترتب عليها من المفاسد في عبادة الله تعالى.

٢- اعتماد العوام عليها واعتقادهم صحتها.

٣- إضلال الناس بها وإعانة المبتدعين عليها.

٤- الكذب على رسول الله ﷺ إذ يتصورونها مما أمر به الشرع حتى يقول بعضهم: هذه سنة من السنن. وهذا يورط هؤلاء العامة في الوقوع تحت قوله ﷺ: « **مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** ».

٥- إقرار العلماء لها وسكوتهم عليها يوهم أنها من السنة، فيكون هذا كذبًا على رسول الله ﷺ بلسان الحال.

لذا تجد العوام من المبتدعين يحتجون على من يدعوهم إلى نبذ البدعة والتمسك بالسنة بأن هذه البدعة لو لم تكن من

السنة ما سكت عليها هؤلاء العلماء ولبينوا للناس فسادها.

● **من أقوال السلف في ذم البدعة:**

عن هشام بن عروة: لا تسألوا الناس اليوم عما أحدثوه فإنهم قد أعدوا له جوابًا. ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها.

وعن حذيفة: كل عبادة لم تفعلها الصحابة فلا تفعلوها.

وعن ابن عباس: أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع.

وعن سفيان الثوري: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها.

أي أن المبتدع لا يدخل في عداد من ترجى توبته؛ لأنه زين له سوء عمله فرآه حسنًا، فهو لا يتوب منه ما دام يراه حسنًا لأن أول التوبة أن يعلم أن ما يفعله بدعة ليتوب منه.

روى الدارمي بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود أنه سمع بقوم جلسوا حلقًا في المسجد يسبحون بحصى في أيديهم، في وسط كل حلقة رجل يقول لهم: سبحوا كذا وكبروا كذا، فذهب إليهم وقال لهم: «ما هذا الذي أراكم تصنعون؟

قالوا: يا أبا عبد الله حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح.

قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون. وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا: والله يا أبا عبد الله ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. وايم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم. يقول الراوي: رأيت عامة أولئك الخلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج».

أي كانوا يقاتلون في صف الخوارج ضد الصحابة ﷺ.

☐ أقسام البدعة:

تنقسم البدع إلى أنواع عديدة بحسب مخالفتها للشرع، من جهة كونها تتعلق بالعقائد أو بالأحكام، وبحسب ارتباطها بأزمنة معينة أو بحسب ما يتدرج تحتها من مخالفات للشرع.

- **بدع فعلية وبدع تَركيَّة:**

فقد تكون البدع بترك ما فعله النبي ﷺ بزعم التقرب به إلى الله تعالى: كترك كثير من المتصوفة تناول الطيبات من الرزق تنسكًا، وتعذيب النفس وحرمانها من الحلال تعبدًا لله.

قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ

وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[المائدة: ٨٧].

ففي الآية: نهى عن تحريم ما أحل الله، وإشعار بأن ذلك اعتداء لا يحبه الله.

وفي الحديث: أن بعض الصحابة أرادوا أن يحرموا على أنفسهم أنواعًا من الحلال، فحرم بعضهم على نفسه نوم الليل، وحرم الآخر الأكل بالنهار، وآخر أكل اللحم وآخر إتيان النساء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « **مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي** ». متفق عليه.

وقد تكون البدع بفعل ما لم يفعله النبي ﷺ، والتقرب إلى الله تعالى بما لم يتعبد به النبي ﷺ.

كتخصيص يوم من الأيام بصيام مع أن النبي ﷺ لم يخصصه بصيام.

وكتخصيص ليلة من الليالي بصلاة وقيام مع أن النبي ﷺ لم يخصصها بقيام وصلاة.

وكتخصيص زيارة المقابر في أيام معينة مع أن النبي ﷺ لم يخصصه بالزيارة.

وفي كل ذلك يزعم صاحبها التقرب بذلك إلى الله تعالى،

وجلب خير لنفسه أو للمسلمين.

- **بدع اعتقادية وبدع عملية:**

اعتقادية: باعتقاد خلاف ما جاء به الرسول ﷺ لا على وجه المعاندة للشرع، بل بنوع من شبهة كغلو الرافضة والمتصوفة في أهل البيت والمشايخ والأولياء.

وعملية: كالذكر أمام الجنائز وبدع زيارة المقابر.

- **بدع الأزمنة والأمكنة:**

وذلك باعتبار الأزمنة أو الأمكنة التي تقع فيها البدع:

كبدع المولد والأعياد والمواسم. وكبدع المساجد والمقابر.

وقد تكون البدع عامة لا تختص بزمان ولا بمكان كتقليد المتفرنجين للأوروبيين فيما هو مخالف للشرع، ومنها الاحتفال بأعيادهم كالاحتفال بعيد رأس السنة الميلادية.

- **بدع كلية وبدع جزئية:**

فالبدعة الكلية: ما ينشأ عنها خلل كلي في الشريعة يندرج تحته فروع عديدة من المخالفة للشرع.

كإنكار الأحاديث النبوية أو إنكار حجية أخبار الآحاد في العقائد، فيندرج تحتها ما لا حصر له من المخالفة لفروع من أحكام الشريعة.

والبدعة الجزئية: والتي لها ضرر جزئي في بعض فروع

الشريعة لا يتعداها. كبدعة التلحين والزيادة في الأذان، ونذر الصيام قائمًا لا يجلس، وكالامتناع عما أحله الله من الطيبات...إلخ.

- **بدع حقيقية وبدع إضافية:**

فالحقيقية: ما كان الابتداع فيها من جميع وجوهها، فهي بدعة محضة، ليست فيها جهة تندمج بها في السنة. ولذا سميت بدعة حقيقية، لذا فهي بعيدة عن الشرع خارجة عنه من كل وجه. وإن كان المبتدع قد يتمسك فيها بما يزعمه شبهة .

من أمثلتها:

الطواف بغير الكعبة، والوقوف بغير عرفة، ووضع الهياكل والشموع حول الأضرحة . إلخ.

فكل هذه الأعمال لم يقم دليل على اعتبارها من الشرع لا جملة ولا تفصيلًا.

والبدعة الإضافية: فهي ما لها من الأدلة متعلق، فلا تكون مخالفة للشرع من هذه الجهة، ولها كذلك جهة ليس لها متعلق من الشرع فهي به بدعة.

أي أنها: بالنسبة إلى إحدى الجهتين موافقة للشرع مستندة إلى دليل، وبالنسبة للجهة الأخرى بدعة؛ لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل أو غير مستندة إلى شيء.

والفرق بين البدعة الإضافية والبدعة الحقيقية من جهة المعنى: أن الدليل عليها من جهة الأصل قائم، ومن جهة الكيفيات أو الأحوال أو التفاصيل لم يقم عليها دليل، مع أنها محتاجة إليه؛ لأن العبادات توقيفية تحتاج لدليل شرعي.

من أمثلة ذلك:

١- صلاة الرغائب: وهي اثنتا عشرة ركعة عقب صلاة المغرب ليلة الجمعة الأولى من رجب يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة القدر ثلاث مرات، والإخلاص اثنتي عشرة مرة.

قال الإمام النووي في صلاة الرغائب: «ليس لأحد أن يستدل على شرعيتها لما روي عنه ﷺ أنه قال: «**الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ**» فإن ذلك يختص بصلاة لا تخالف الشرع بوجه من الوجوه وقد صح النهي عن الصلاة في الأوقات المكروهة». اهـ.

٢- صلاة ليلة النصف من شعبان: وهي مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة الإخلاص إحدى عشرة مرة.

٣- صلاة بر الوالدين.

٤- صلاة مؤنس القبر .

وهذه كلها بدع قبيحة.

ووجه مشابهة الشرع استحباب صلاة التطوع لقوله ﷺ: «الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ» رواه الطبراني في الأوسط. وهي بدعة من جهة التزام وقت مخصوص وكيفية مخصوصة ونية مخصوصة مخالفة للشرع لم تثبت.

٥- التلحين في الأذان والزيادة فيه:

بإخراج كلماته عن كيفيتها الشرعية بإيقاعها على ألحان بدعية وزيادة لفظ السيادة في (شهادة أن محمدًا رسول الله) والصلاة والسلام عليه ﷺ مع الأذان جهرًا وجعلها بمنزلة الأذان.

٦- التأذين للعيدين: فالأذان قربة وهنا بدعة.

٧- ختم الصلاة بصورة جماعية وبكيفية مخالفة في أذكارها لما كان يفعله النبي ﷺ وأصحابه.

٨- قراءة الصمدية مائة ألف مرة.

وهذه البدع الإضافية: تحتاج إلى حسن بيان وتعليم للناس عند بيان بدعيتها نظرًا لعدم دراية فاعليها بحقيقة ووجه مخالفة الشرع فيها.

وصاحب البدعة الإضافية يتقرب إلى الله تعالى بمشروع

وبغير مشروع، والتقرب إنما يكون بمحض المشروع، إذ لا يتقرب إلى الله إلا بما شرع، فكما يجب أن يكون العمل مشروعًا باعتبار ذاته يجب أن يكون مشروعًا باعتبار كيفيته. كما يفيده قوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**». رواه مسلم.

فالمبتدع بدعة إضافية قد خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهو يرى أن الكل صالح، فلا يدخل في عداد من يرجى توبته؛ لأنه لا يرى لنفسه ذنبًا حتى يتوب منه، بل يرى أن كل ما يعمله حسن، ولا توبة لمن لا يعرف لنفسه ذنبًا. إلا أن يهديه الله بأن ييسر له من يبين له الحق ويوفقه لترك البدعة [(١)]

والسلفيون لا يتبرمون من إيضاح سنة مهملة ولا بيان واجب متروك؛ لأن كل السنن والواجبات تلتقي مع بعضها البعض مكونة الصورة الكاملة النقية للإسلام، ووجودها في الواقع العملي يجعل شخصية المسلمين واضحة جلية مميزة تنتقل من جيل إلى جيل إلى قيام الساعة.

وأصحاب المناهج الأخرى يهتمون بقضايا بعينها من الدين

---

(١) يراجع في ذلك: الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ رحمه الله، والضوابط الشرعية: ص٦٨، ٦٩

ويهملون سائره، بل ويضيقون ببيانه لهم وحثهم عليه. وما هذا إلا لجهلهم بحقيقة الدين، وذلك أن ترك نصيب وحظ وقسم مما أمر الله به يورث العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤]. وهكذا عاب الله على اليهود إيمانهم ببعض آيات الكتاب وكفرهم ببعض[1]، وما كان كفرهم إلا تركهم العمل به. وهكذا يحل بالمسلمين إن هم نسوا بعض ما وعظهم الله به وذكرهم، وبعض ما أوجبه عليهم رسوله ﷺ.

ولذلك فالدعوة السلفية دعوة شمولية لأركان الإسلام ومناهجه جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فالعمل بجزء من الشريعة وترك جزء آخر من اتباع خطوات الشيطان، الذي يسوِّغ لبعض العاملين في الحقل الإسلامي ترك الواجبات، وفعل كثير من المحرمات بدواعي المصلحة المزعومة للدعوة.

---

(١) كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: ٨٥].

والخلاصة: أن إقامة الحجة تكون بالبيان الدائم لأصول الإسلام وفروعه. هذا الباب الذي لا يترك في الحق لبسًا حتى ينقطع العذر، ولا يكون لأحد العدول عن فعل الواجب وترك الحرام.



بهم يتطلب الارتفاع إلى مستواهم لا الرجوع إلى الزمن الذي عاصروه بوسائله وأدواته، فالاتباع إذن في القيم التي حققوها، وعاشوا من أجلها، لا في وسائل المعيشة التي استخدموها [١]

فليست السلفية زرعًا للماضي في أرض الحاضر، ولكن السلفية هي العمل بقيم الإسلام الصحيحة لإصلاح الدين والدنيا.

والحقيقة أن دعوة السلفيين كانت مصدرًا لمخاوف الاستعمار والتبشير، فأرادوا أن يقاوموا هذه الدعوة القليل عدد أصحابها والذين هم مع قلتهم يصارعون جمهورًا غالبًا من المبتدعة يؤيدهم إلف العامة - وهم الكثرة - لما عندهم من البدع المنكرة التي ينكرها السلفيون أشد الإنكار، فعمدوا إلى بث فكرة قريبة من النفوس سريعة إليها تؤيدها جميع الظواهر، وهي أن السلفيين قوم متشددون يريدون أن يرهقوا الناس بما لا طاقة لهم به من التكاليف. وهذه المهارة في إدراك الوسائل التي تقاوم بها الأفكار كانت معروفة في دوائر الاستعمار والتبشير، وإن كان كثير منا غافلًا عنها، غير قادر على إدراك

(١) قواعد المنهج السلفي: ص٣٩.

المحيط الذي تستعمل فيه هذه الوسائل[١] ومن ثم ظهرت كلمة السلفيين مقرونة بتبغيضها إلى العامة، وتصويرها منكرة تكرهها النفوس لأنها تشق عليها.

فصار لفظ السلفيين يستعمل «للدلالة على التأخر والتشدد والتخلف»[٢] وبعد قليل رأينا لفظ الرجعيين يحل محل السلفيين فجأة، «وهو لفظ سهل على لسان العامة وغير العامة، وإذ بنا نراه مستعملًا على ألسنة ضرب من الكتاب، وعلى ألسنة أصحاب الصحف، ثم لم نلبث إلا قليلًا حتى رأينا هذا اللفظ ينتقل للدلالة على الحياة الإسلامية كلها، واشتق له مصدر هو (الرجعية) يستعمله الكتاب إذا أرادوا التورية عن الإسلام تهربًا من أن تنالهم تهمة الطعن في دين الدولة. وبهذا التمويه القبيح يريد أمثال هؤلاء التالفين أن يشفوا غل صدورهم ببذاءة مغلفة في لفظ مبهم»[٣]

وينبغي أن نراعي أن للإسلام تفسيره لمعنى (التقدم) الذي يخالف المعنى الشائع للتقدم بين الناس الآن. فالإسلام يعامل

---

(١) أباطيل وأسمار للشيخ محمود محمد شاكر: ص٥٠٦ – ٥٠٨

(٢) المرجع السابق نفس الصفحات.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحات.

نهضتها الحالية[١].

ولكن العكس بالنسبة لأمتنا تمامًا. فإن تاريخنا يعبر عن تقدم حضاري في كل المجالات، ونحن إذا طالبنا (بالترقي) إلى مستوى السلف، فإننا نعنى بذلك اتخاذ المفهوم الشامل للعقيدة الإسلامية وتحكيم شريعتها، والأخذ بالتقدم العلمي أحد ألوان النشاط الإنساني، وقد حقق فيه المسلمون - فيما مضى - ألوانًا زاهية من الحضارة عندما اتخذوا من الإسلام عقيدة ومنهاجًا فالإسلام يحض على العلم ويرفع من شأن العلماء[٢].

وليس معنى ذلك وضع الأمة الإسلامية في متحف للتاريخ بإرجاعها إلى الأخذ بوسائل العصور السابقة في حياتها العلمية فمثل ذلك لا يقول به عاقل. ولكن المراد أن المفهوم الإسلامي للحضارة أرقى بكثير من التصور الغربي، فلا نحن نرضى بتخلف المسلمين الحالي وبعدهم عن تحقيق النموذج الإسلامي المطلوب، ولا نحن نرضى في الوقت نفسه بتقليد الغرب المادي الملحد في فلسفته ومضامينه الفكرية الشاملة.

ولا نكون مبالغين إن قلنا: إن هذا التقدم الذي يعيشه العالم

---

(١) قواعد المنهج السلفي.

(٢) المصدر السابق بتصرف ص ٢٦٩ - ٢٧١.

المتحضر الآن ما هو إلا جزء من التصور الحضاري للإسلام[١].

إن نبذ السلفية بحجة التسابق مع الزمن، واللحاق بكل ما هو جديد منهج خاطئ قائم على مفاهيم غربية متصلة بفلسفتها، فإن ما نراه جديدًا اليوم سيصبح غدًا وحتمًا قديمًا.

فليست الموازنة إذًا بين قديم وجديد موازنة صحيحة، ولكن ينبغي أن تتم بالمقارنة بين الحق والباطل أيًا كان العصر والزمن؛ لأن القيم لا تتغير ولا تتبدل[٢].

فإذا كان الذين يقلدون الغرب وينادون باتباع الحضارة الغربية والأخذ بها على علاتها وبما فيها من أزمات متعددة بدعوى التقدم والمدنية، ويقبلون هذه الحضارة المادية على أزماتها ومشاكلها - بدعوى أن هذه العلات نتيجة لطموحات هذه الحضارة، وأنها دائما تسعى للتحسين والرقي ولكن لا بد من شوائب وأخطاء - فإن السلفيين يرفضون هذا التقليد الأعمى للحضارة الغربية باسم التقدم والمدنية.

إن الارتباط بالعقيدة الإسلامية الصحيحة لا يعني نبذ

---

(١) قواعد المنهج السلفي.

(٢) المصدر السابق.

النموذج الحضاري الحالي للحضارة الغربية، ولا يعني ذلك نبذ التقدم العلمي للغرب، فإن هناك فارقًا بين الأخذ بالنتائج العلمية للحضارة الغربية وبين الأخذ بمقومات الحضارة الغربية وتصوراتها العقائدية ونظرياتها الفلسفية في الحياة، فإنه لا وطن للعلم، ولا جنسية للأبحاث والاكتشافات، وإنما هي نتاج جهود البشرية على اختلاف جنسياتها وأوطانها، ونحن المسلمين قد أسهمنا في التقدم العلمي للبشرية كلها في أيام سابقة بجهود عظيمة لا تنكر(١).

إن مشكلتنا مع الحضارة الغربية تكمن في «اختلافنا الأساسي معهم على قواعد جوهرية تتناول عقيدة التوحيد والإيمان بالله سبحانه وتعالى، وإفراده بالألوهية والربوبية، وماهية الإنسان، والغرض من خلقه، وبيان مآله في اليوم الآخر، وما هي وسائله لسلوك أحسن السبل الممكنة في الحياة والارتقاء بها»(٢).

فالأمة الإسلامية يجب أن تكون مميزة بخصائص تميزها عن غيرها من الأمم، وتجعل من التزامها بعقائدها وشريعتها أمة

---

(١) بتصرف من قواعد المنهج السلفي: ص ٢٧٢

(٢) المرجع السابق.

متقدمة في المقام الأول بالعقائد والقيم والسلوك قبل المنتجات المادية[1].

فاعتقاد أن السلفية (مرحلة زمنية مباركة) وقفت عند نهاية القرون الثلاثة الأولى، وانتهت إليها، وحطت رحلها أمامها، وانقطع بها، دعوى باطلة منكرة، لا دليل عليها ولا ينبغي التمسك بها، فنحن على يقين أن السلفية زمانها الزمان كله، ومكانها الأرض كلها، تجري بخيرها وعطائها ورجالها حتى تلقى ربانها ومبلغها رسول الله ﷺ على حوضه بأصليها الكتاب والسنة، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض.

إذًا فليس بضائرنا أن نعيش معها في كل زمان وفي كل مكان من الأرض، راغبين عن الطاعنين عليها، آخذين بهدى كتاب ربنا سبحانه: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ولسنا في ذلك إلا قائلين في ظل هدي رسول الله ﷺ الذي كان المثل المحتذى في صبره الجميل.

❁❁❁

(١) قواعد المنهج السلفى: ص٢٧٢، ٢٧٣

٥- تيسير فهم الإسلام

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق -حفظه الله:

(أنزل الله ﷻ الدين الإسلامي للناس كافة، وبعث نبيه محمدًا ﷺ للعالمين، وبما أن الناس متفاوتون في الذكاء وسرعة الإدراك والفهم، فإن الله جعل هذا الدين سهلًا ميسرًا ليس في العمل فقط، بل في الفهم والإدراك فحقائق الدين الأساسية سهلة ميسرة سواء كانت حقائق عقائدية إيمانية أو حقائق علمية تشريعية، فتوحيد الله ﷻ من الممكن أن يعلم بكلمات قليلة وبمجالسات يسيرة لأهل العلم الحقيقي المستند إلى الكتاب والسنة.

وكذلك فرائض الإسلام الخمس يستطيع الفرد الذي أوتي نصيبًا قليلًا من الفهم أن يلم بأحكامها في وقت يسير: فالوضوء والصلاة يمكن تعلم أصولهما في وقت لا يتعدى الساعة أو الساعتين، وكذلك الصوم، وصاحب المال يستطيع معرفة زكاة ماله في وقت يسير إذا بين له رجل من أهل العلم، وكذلك الحج أيضًا.

والخلاصة: أن الإسلام دين ميسر في الفهم والعلم، وكذلك هو دين ميسر في التطبيق والعمل، فلا مشقة فيه بوجه من

الوجوه. ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢]. وهذه الآية دليل واضح على أن القرآن - وهو أساس الإسلام الذي حوى جميع علومه - ميسر للذكر. والذكر يتضمن العلم والعمل.

وقال ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا**». وهذا دليل على يسر الإسلام في العمل والفهم أيضًا.

ولكن هذا الدين الميسر قد جاء مِنَ الناس مَنْ عقَّده، وضيق طريق الوصول إليه، وحجب الناس عن الاستفادة من الكتاب ومن السنة، وجعل الإسلام أشبه بالأحاجي والألغاز، وذلك بإكثار المصطلحات الخاصة في كل فرع من فروع العلوم الإسلامية، ونشأت علوم ومعارف ليست من الإسلام في شيء، وقد أسميناها علومًا ومعارف تجاوزًا، وحدث تغالٍ في علوم النحو والصرف وأصول الفقه إلى الحد الذي أعجز المتخصصين فيه عن أن يصلوا إلى غاية ذلك من فهم القرآن والحديث، بل من فهم الفروع الإسلامية الأخرى حتى إننا نجد العالم المتخصص في علوم العربية لا يفقه من الكتاب والسنة إلا قليلًا، وقد يكون عالمًا بأصول الفقه لا يحسن

التوحيد، بل لا يحسن الوضوء، ولا استنباط حكم صحيح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، بل الأدهى والأمر من ذلك أن تخرج الجامعات الإسلامية علماء يعتلون المنابر، ويخطبون في الناس وهم لا يميزون بين حديث صحيح ثابت عن الرسول ﷺ وبين الأقوال الموضوعة المرذولة المنسوبة إلى النبي ﷺ زورًا وبهتانًا.

وهكذا أسهم تعقيد الدراسة الإسلامية في نشأة أشباه العلماء، الذين يعرفون فرعًا من فروع الدين، ولا يملكون رؤية شمولية له، وكذلك أسهم هؤلاء في نشأة كهانة دينية جعلت الدين الذي أنزله الله للعالمين محجوبًا عن الناس بعلماء ادعوا أنهم الأوصياء عليه، وإذا جئت تناقش حجتهم في قول ما لتفهم وتعي عن الله وتتدبر قوله قالوا لك: لا تناقشنا، خذ قولنا ولا تسأل عن الدليل، وذلك ليغمضوا عينيك، وليحولوا الناس إلى سائمة[1]. يسيرون وراءهم وهم لا يدرون.

والدعوة السلفية تجعل همها الأول: تذليل فهم الإسلام للناس، فهي تفتح الطريق أمام الناس جميعًا لدراسة الكتاب

---

(١) السائمة: الإبل ترعى في المرعى.

والسنة دراسة علمية سهلة واضحة، وبذلك يكون العلم مشاعًا للجميع، ويرتبط الناس بالقرآن فيتدبرونه، وبالسنة فيفقهونها، ويصبح فهم الدين والعمل به ليس حكرًا على طائفة معينة تلبس لباسًا خاصًا وتتكلم بلهجة خاصة، إنما يصبح الإسلام للناس جميعًا، علمًا مشاعًا كالهواء الذي نتنفسه. وقد وجدنا أثر ذلك - بحمد الله - في إخواننا، فما أن درسوا الإسلام بالمنهج السلفي حتى كانوا علماء فيه في مدة يسيرة جدًّا[١]، هذا مع امتلاك الرؤية الواضحة لمجمل هذا الدين عقيدة وشريعة وسلوكًا. ومع الاستزادة اليومية من علومه استزادة لا تشغل الطبيب عن طِبِّه، ولا المهندس عن هندسته، ولا التاجر عن تجارته. وذلك لأن المنهج السلفي في فهم الإسلام يعطي الدارسين مفاتيح فهم الدين. فالطالب في المنهج السلفي يعرف أصول الإسلام، ومراجع معرفة العقائد والأحكام، ويعرف كيف يكون ذا فكر مستقل غير مقلد، وكيف يحترم العلماء، ولا يتعصب لأقوالهم، وكيف يأخذ الحق أنى وجده ما دام مؤيدًا بالدليل، وكيف يترك الباطل مهما كان

---

(١) ولعل الأَوْلَى أن يقال: من طلاب العلم المجدين فيه معهم العلم النافع وفيهم العمل الصالح.

مصدره إذا وجد دليل بطلانه، وبذلك يفهم الإسلام في سهولة ويسر.

وإذا كان هذا التيسير مطلوبًا في الأزمان الماضية، فهو أشد ضرورة ونحن أكثر حاجة إليه في أزماننا هذه التي يستغرق فيها التعليم الدنيوي كل عمر الإنسان، وتستهلك فيها الحضارة الحديثة كل وقته، ويركض الناس فيه خلف الحياة بكل طاقاتهم وجهدهم. ولذلك كان المنهج السلفي لتعليم الإسلام وتعلمه هو المنهج الأكمل الأسلم؛ لأنه يأخذ من الفرد أقل الأوقات ويعطيه أعظم الفوائد ، فلا يفني الفرد عمره في معرفة حواش وجزئيات وفرعيات وخزعبلات لا تغني عنه في دينه ولا دنياه شيئًا، وإنما ينصرف إلى حقائق الدين رأسًا فيتعلم أصول التوحيد ليصحح إيمانه وعقيدته وأصول العبادات ليصح عمله ويكون صالحًا، وأصول التزكية والأخلاق لتزكو نفسه وتطهر، كل ذلك من الكتاب والسنة حيث يتعامل السلفي مع كلام الله الذي سماه روحًا ونورًا ، ومع كلام الرسول ﷺ الذي هو الحكمة والهداية. وهذه هي الفائدة الثالثة والميزة الأولى للسير في الطريق السلفي طريق النبي ﷺ الذي علم أمة كاملة بأيسر الجهود وأقل التكاليف

وهكذا كان صحابته، كما قال ابن مسعود: أبر الناس قلوبًا وأعمقهم علمًا وأقلهم تكلفًا. وهكذا نريد الجيل السلفي الحديث على نحو الرعيل الأول أبر الناس قلوبًا وأعمقهم علمًا وأقلهم تكلفًا. اهـ.



٦- سلفية المنهج سلفية المواجهة
(بين الأصالة والمعاصرة)

سلفية المواجهة لعقبات الدعوة إلى المنهج السلفي تواجه باستعمال الوسائل والأساليب العصرية في الدعوة، وذلك لا ينافي أصالة الدعوة. فإن الأصالة والمعاصرة من الكلمات التي كثر الحديث عنها، والدعوة إليها في العصر الحاضر وما من شيء أخطر على الدعوة من أن تلتبس سماتها الأساسية أو يلابس خصائصها غموض أو اضطراب.

ويقصد بالأصالة: المحافظة على جوهر الدعوة باستنادها إلى الأصول والأدلة الشرعية والتمسك بمبادئها الأساسية.

والمعاصرة هي: تكافؤ الدعوة مع العصر الذي تعيش فيه بحيث تعالج واقعه وتلبي متطلباته.

ومن هذا التعريف يتضح أن الدعوة بالأصالة وصف صالح لكل زمان ومكان[1]. ووصف الدعوة بالمعاصرة أيضًا

---

(١) الأصولية في المفهوم الغربي الأوروبي تطلق على الذين يعتقدون قدسية الإنجيل ويتمسكون بحروفه ويسعون لإقامة الحياة على تعاليمه، ونظرة الغرب لهؤلاء الأصوليين منهم نظرة ازدراء، =

صالح لكل زمان ومكان، وليس وصفًا خاصًّا بالعصر الحديث كما قد يتوهم، فدعوة الناس بلسانهم ولغتهم معاصرة، واختيار الأسلوب الدعوي المناسب لموقف من المواقف معاصرة، واستخدام الوسائل المتوفرة في عصر من العصور لنشر الدعوة معاصرة وسيرته ﷺ في تمسكه بأصالة دعوته لا يحيد عنها، ولا يقبل مساومة فيها، وفي ذات الوقت معالجته واقع عصره، وتخيره الأساليب النافعة لدعوته، واستخدام جميع أنواع

=

ويصفونهم بالرجعية. إذ إن العلمانية هي المذهب السائد في أوروبا بعد الصراع في القرون الوسطى بين العلم والنصرانية المحرفة والذي انتهى بعزل سلطة الكنيسة عن المجتمع وحصرها بين جدران الكنيسة ، وبالتالي فصل الدنيا عن الدين.

وإطلاق هذا الوصف بهذا المفهوم الغربي على الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي خطأ شنيع، إذ ليس بين الإسلام والعلم عداء، والإسلام بتشريعاته دين ودولة، علم وإيمان، لإصلاح الدنيا بالدين، والدعوة إلى الرجوع إليه مصلحون لا مفسدون. فإن الله تعالى أنزل كتابه القرآن وحفظه من التحريف والضياع ليكون نبراسًا يهدي البشرية. وقد قامت على نظمه وتعاليمه حضارة إسلامية رائدة، ودولة متسعة الأرجاء شرقًا وغربًا، دامت لها السيادة في الأرض أكثر من ألف عام. ولم تضعف وتفقد مكانتها إلا بابتعاد المسلمين أنفسهم عن الإسلام وهديه.

الوسائل المشروعة المتوفرة في عصره غير زاهد بشيء منها أمر لا يخفى على من اطلع على سنته ﷺ، وقد سار الصحابة والخلفاء الراشدون ﷺ على نهجه[١] [٢]

❑ ضوابط الأصالة والمعاصرة[٣]:

ليست الأصالة تحجرًا في العقول، وليست المعاصرة ميوعةً في المواقف، ولا ذوبانًا للشخصية المسلمة، وليست الغاية منها إرضاء الأهواء والرغبات. فهذا كله مخالفة للصراط المستقيم ودعوة الناس للهداية.

وفي الشرع التحذير من فقد الشخصية المسلمة واتباع سنن وهدي غير المسلمين، واتباع ما يخالف الإسلام.

- **ومن أهم هذه الضوابط**[٤]:

١- المحافظة على الأصول الشرعية محافظة تامة، والتمسك

---

(١) مثال ذلك: في خلافة أبي بكر: التشاور في جمع القرآن والاتفاق على جمعه، والتشاور في إنفاذ جيش أسامة خشية على المدينة من خطر المرتدين

(٢) تحصيل الزاد: ص١٣٤

(٣) يراجع في ذلك تحصيل الزاد: ص ١٣٥-١٤١

(٤) راجع تحصيل الزاد.

بالسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، والعض عليها بالنواجذ، وفي الحديث: « فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ » رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا الاتباع يشمل الأقوال والأفعال والمناهج والأساليب.

٢ - اجتناب البدع اجتنابًا تامًّا والحذر منها كل الحذر:

ففي الحديث المرفوع: «وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ ».

وفي الحديث: « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ ». متفق عليه.

٣- التمييز بين الثوابت والمتغيرات:

فالمنهج الدعوي ثابت لا يتغير ولا يتحول. والأساليب والوسائل البشرية متطورة متغيرة.

فالأصل في المناهج الربانية الثبوت والاستمرار وعدم التحول.

والأصل في الأساليب والوسائل والمناهج البشرية التطور والتحول إلى ما يناسب كل عصر.

٤- مراعاة موافقة الشرع في المناهج والأساليب والوسائل، وتجنب مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

فعلى المسلم أن يتجنب الحرام ولو توهم أن اقترافه يأتي بخير، كما أن عليه أداء الواجب وإن توهم في تركه دفع شر، فإن الخير لا يأتي بشر.

٥- البعد عن الغلو والتشدد، وتجنب التقصير والتساهل، والأخذ بالاعتدال في التمسك بالدين.

ففي الحديث: « هَلَكَ الْـمُتَنَطِّعُونَ» قالها ثلاثًا. (رواه مسلم).
المتنطعون: المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد.

وفي الحديث: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِن الدُّلْـجَةِ » . رواه البخاري.

وليس المراد منع طلب الكمال في العبادة، ولكن المراد منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة المفضية إلى ترك الأفضل.

وفي الحديث: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ » رواه ابن ماجه.

٦- الرجوع في حكم المسائل والحوادث المستجدة إلى أهل العلم والاختصاص لتحقيق التوازن بين المحافظة على الأصالة ومراعاة المعاصرة.

وفي الحديث: « إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا ». متفق عليه .

وإذا كانت العبادات الأصل فيها التوقيف، فإن المعاملات عمومًا الأصل فيها الإباحة طالما أنها لم تصطدم بنصوص الشريعة ووافقت الضوابط الكلية.

❑ ما يخالف هذه الضوابط [١] :

- معاداة كل قديم وتحسين كل حديث.

فالخير في الاتباع، لا في الابتداع، والحكم على الأمور بحق أو باطل وحسن أو قبيح لا يعتبر فيه القدم لذاته ولا الحداثة لذاتها، وإنما هو في موافقة الحق، والتمسك بالأصول من جهة، وفي مراعاة الظروف والأحوال، وتغير الأزمنة والأمكنة في ضوء تلك الأصول من جهة أخرى.

- إنزال بعض الدعاة لأقوال وسلوك أصحاب دعوتهم أو مؤسس جماعتهم أو رؤساء تنظيماتهم منزلة الأصول الثابتة والحجة القاطعة على الرغم من ظهور خطئها ومخالفتها

(١) تحصيل الزاد: ص١٤٠ ، ١٤١

للشرع، أو عدم صلاحيتها في ظروف وأحوال.

- الركون إلى أصحاب المنكرات ومداهنتهم.

- ترك مخالطة الناس واعتزالهم وهجرهم. فإن الهجر إنما شرع لجلب مصلحة ودفع مفسدة، وهو أسلوب علاج، فلا يستخدم إذا أدى إلى بتر وإهلاك. فالهجر ينفع في المجتمعات التي يغلب عليها الصلاح.

- إهمال الوسائل المتطورة التي تمكن من الوصول للأهداف المرجوة وتعين على تحقيق الغايات، فكلما وجد الداعية وسيلة موافقة للشرع أجدى وأنفع، أو أيسر وأسهل، لزم عليه الاستفادة منها واستخدامها لتحقيق هدفه.

وأخيراً نقول إن: «الكل مطالب أن ينتبه للأخطاء التي تحدث باسم الأصالة والمعاصرة، فكم من شباب الدعوة اليوم من لا يتميز سلوكه عن سلوك عامة الناس فيقع في المحرمات والمخالفات في طريق الدعوة متوهمًا أنه يحقق بذلك نوعًا من المعاصرة اللازمة، كحالة من يصافح النساء أو يحلق لحيته أو يتساهل في حجاب زوجته أو بنته أو يألف أنغام الموسيقى المحرمة. وفي الوقت ذاته كم من شباب الدعوة من يصاب بنوع من التحجر والجمود، فيتشدد في أمور ينفر الناس من حوله متوهمًا أنه يحقق نوعًا من الأصالة المطلوبة، وهو يقع في

الإفراط، ومن هذه الصور أن يحجر على المرأة في بيتها، وتمنع من الخروج والزيارات المباحة، مع تأدبها بالآداب الشرعية، ومع وجود الحاجة لذلك، أو يمنع من لباس دون لباس، مع انطباق المواصفات الشرعية على هذا، وليس هو شعارًا لغير المسلمين، ولا سيما إذا دعت إلى استعماله مصلحة زمنية أو حاجة علمية»[1]

---

(١) تحصيل الزاد: ص١٤٠، ١٤١

المراجع

(١) السلفية وقضايا العصر: د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي.
(٢) أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر.
(٣) إحكام الأحكام: ابن حزم.
(٤) أدلة تحريم حلق اللحية: الشيخ محمد إسماعيل. ومعها رسالة (تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب).
(٥) أصول الدعوة: د. عبد الكريم زيدان.
(٦) أصول الفقه: محمد أبو زهرة.
(٧) أضواء البيان: الشنقيطي.
(٨) إعلام الموقعين: ابن القيم.
(٩) الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري.
(١٠) الإبداع في مضار الابتداع: الشيخ علي محفوظ.
(١١) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي.
(١٢) الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد: سليم الهلالي.

(١٣) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية: عبد العزيز المحمد السلمان.
(١٤) الاعتصام: الشاطبي.
(١٥) الإكليل في المتشابه والتأويل: ابن تيمية.
(١٦) الإمام مالك: محمد أبو زهرة.
(١٧) البداية والنهاية: ابن كثير.
(١٨) الجواب الباهر في زوار المقابر: ابن تيمية.
(١٩) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية.
(٢٠) الرد على المنطقيين: ابن تيمية.
(٢١) الرسالة المدنية: ابن تيمية.
(٢٢) الرسالة: الشافعي.
(٢٣) السلسلة الصحيحة للألباني.
(٢٤) السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية: د. مصطفى حلمي.
(٢٥) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيه: دكتور: محمد أمان بن علي الجامي.
(٢٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: ابن القيم.
(٢٧) الضوابط الشرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية: الشيخ سعيد عبد العظيم.

(٢٨) العقائد السلفية بأدلتها العقلية والنقلية: ابن حجر القطري.
(٢٩) الفتوى الحموية: ابن تيمية.
(٣٠) الملل والنحل: الشهرستاني.
(٣١) النبوات: ابن تيمية.
(٣٢) الوجيز في أصول الفقه: د. عبد الكريم زيدان.
(٣٣) بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول: ابن تيمية.
(٣٤) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: الألباني.
(٣٥) تحصيل الزاد: الشيخ سعيد عبد العظيم.
(٣٦) تحفة الإخوان في صفات الرحمن: محمد بن محمد بن عبد العليم.
(٣٧) ترجمة الإمام أحمد: الحافظ الذهبي.
(٣٨) تفسير ابن كثير.
(٣٩) تفسير القرطبي.
(٤٠) تقريب التدمرية: الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(٤١) تمام المنة في الرد على أعداء السنة: الشيخ محمد إسماعيل.
(٤٢) تهذيب موعظة المؤمنين: القاسمي.

(٤٣) جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي.
(٤٤) جذور العلمانية: الدكتور السيد أحمد فرج.
(٤٥) حلية الأولياء: أبو نعيم.
(٤٦) خواطر على طريق الدعوة: جراح وأفراح الشيخ محمد حسان.
(٤٧) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (تاريخها - مبادؤها - أثرها): محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان.
(٤٨) رسالة الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، ووجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والرد على شبه المخالفين: الألباني.
(٤٩) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ابن تيمية.
(٥٠) روح المعاني: الآلوسي.
(٥١) زاد المعاد: ابن القيم.
(٥٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي .
(٥٣) شرح العقيدة الطحاوية تحقيق أحمد شاكر.
(٥٤) شرح العقيدة الواسطية: خليل هراس.
(٥٥) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام: السيوطي.

(٥٦) فتح المجيد: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.
(٥٧) فتح رب البرية بتلخيص الحموية: ابن عثيمين.
(٥٨) فرق وطبقات المعتزلة: القاضي عبد الجبار.
(٥٩) فصل الكلام في ذم علم الكلام: يحيى مختار.
(٦٠) قواعد المنهج السلفي: د. مصطفى حلمي.
(٦١) كتاب الإيمان: ابن تيمية.
(٦٢) كتاب التوسل: ابن تيمية.
(٦٣) كتاب الزيارة: ابن تيمية.
(٦٤) لسان العرب: ابن منظور.
(٦٥) مجموع الفتاوى: ابن تيمية.
(٦٦) محاسن التأويل: السيوطي.
(٦٧) محيط المحيط: بطرس البستاني
(٦٨) معارج القبول: حافظ أحمد حكمي.
(٦٩) معالم الانطلاقة الكبرى: محمد عبد الهادي المصري.
(٧٠) مفاتيح الغيب: الرازي.
(٧١) مقارنة بين الغزالي وابن تيمية: د. محمد رشاد سالم.
(٧٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن الأشعري.

(٧٣) مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر: د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي.
(٧٤) منة الرحمن في نصيحة الإخوان: الشيخ ياسر برهامي
(٧٥) منهاج السنة النبوية: ابن تيمية.
(٧٦) منهج الماتريدية في العقيدة: د. محمد بن عبد الرحمن الخميس.
(٧٧) منهج علماء الحديث والسنة: د. مصطفى حلمي.
(٧٨) موقف الإمام ابن القيم من آراء المتكلمين: د. محمد سعيد صبري صباح.
(٧٩) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي: د. مصطفى حلمي
(٨٠) نقض المنطق: ابن تيمية.
(٨١) هداية الحيارى في الرد على أسئلة اليهود والنصارى: ابن القيم .

الفهرس


تم بحمد الله


منتدى إقراء الثقافي


الناشر
مكتبة فياض
المنصورة ـ عزبة عقل